نعيم صبري

صافيني مرة

رواية

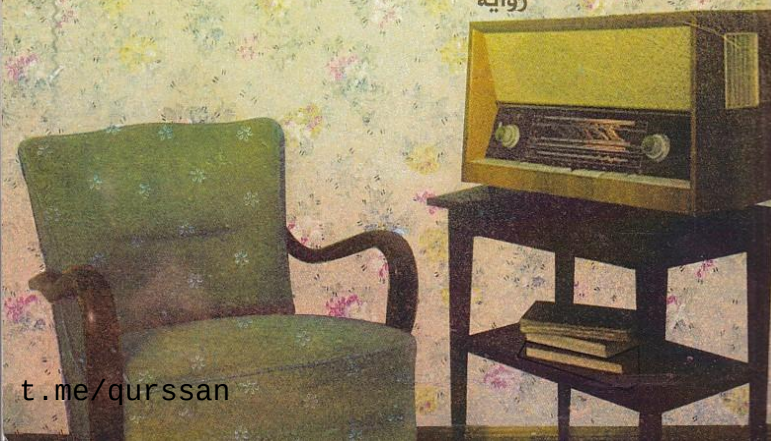

t.me/qurssan

صافيني مرة

صافيني مرة

نعيم صبري

الطبعة الأولى ٢٠١٨

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

© دار الشروق

٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
www.shorouk.com
dar@shorouk.com

رقم الإيداع ١٦٦١٣/ ٢٠١٨
ISBN 978-977-09-3511-8

الغلاف: هاني صالح

صبري، نعيم،
القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٨
تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٩٣٥١١٨
١- القصص العربية
أ. العنوان

٨١٣

صافيني مرة/ نعيم صبري
٢٣٢ ص، ٢٠سم
رقم الإيداع ١٦٦١٣/ ٢٠١٨

t.me/qurssan

نعيم صبري

صافيني مرة

دار الشروق

t.me/qurssan

صافيني مرة
وجافيني مرة
ولا تنسَنيش كده بالمرة.....
صافيني مرة... وجافيني مرة.....

خَرَجَت من غرفتها المطلة على الصالة المستطيلة الشكل، تتوكأ على ضعف ركبتيها وهي تستند بإحدى يديها إلى ترابيزة السفرة التي تماثل الصالة في استطالتها وتتوسطها، وبيدها الأخرى على البوفيه المجاور لباب الشقة، في طريقها إلى الطرقة المؤدية إلى المطبخ والحمام والكابينيه أو المرحاض. بيوت زمان كان معظمها بكابينيه منفصل عن الحمام، البيوت ذات الأسقف العالية والبراح في كل شيء. امرأة مصرية ممتلئة الجسم كالعادة، ارتقت سنوات عمرها المتتابعة منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى ما بعد منتصف القرن العشرين، لتصل إلى مرتبة الجدة. تيته مريم، أو الست أم حنا، كما اعتاد الناس أن ينادوا الستات في مصر بأسماء أبكارهم الذكور، تحرجا من ذكر أسماء النساء على الملأ. ولِدَت تقريبا في جيل أم كلثوم وطه حسين ونجيب الريحاني، حتى تستطيع أيها القارئ العصري أن تتمثلها في ذهنك بقدر من الحميمية. لا تغادر بيتها المطمئن في شارع جزيرة بدران بأول شبرا، شبرا أيضًا، نعم،

لا تغادره بسبب ضعف ركبتيها وصعوبة حركتها مع استحالة صعود السلم للدور الرابع حيث تستقر شقتها.

كنت في غرفتي، المجاورة لغرفتها، أستمع إلى الراديو الترانزستور الذي أوصيت أحد معارفي بشرائه لي من غزة، رحلات غزة كانت تُنَظَّم للتسوق من مشتريات غزة الرخيصة، قطاع غزة كان تحت الإشراف الإداري لمصر وله حاكم عسكري مصري. لم أذهب إلى غزة شخصيا فأنا لست مغرما بالتسوق، لكن لا بأس من توصية أحد المسافرين لشراء راديو ترانزستور صغير بالبطارية، كان من مستجدات العصر المدهشة بعد الراديو الكهرباء الفيلبس الذي كان معتليا عرشه على البوفيه في الصالة لتستمع إليه الأسرة جميعا كمتعة تسلية وحيدة في البيت قبل دخول التلفزيون مصر. نستمع فيه إلى نشرات الأخبار، خاصة نشرة الساعة الثانية والنصف ظهرا ونحن جلوس حول المائدة لتناول الغداء، أخبرتني الأسرة أنني نزلت من بطن أمي ساعة نشرة أخبار الثانية والنصف بعد معاناة ولادة لمدة ثلاثة أيام في البيت على يد الحاجة بهجة الداية، لا أدري لماذا كنت أحس بالزهو عندما أستمع إليهم يرددون ذلك بنوادره المؤلمة والضاحكة أحيانا، وكأنني كنت أتصورني خبرا مهما ورد إلى الدنيا في نشرة أخبار الثانية والنصف. نستمع طبعا إلى ساعة لقلبك، ذلك البرنامج الفكاهي الذي كنا ننتظره بفروغ صبر لنضحك من قلوبنا مع أبو لمعة الأصلي وهو يسرح بالخواجة بيجو بحكاياته الخيالية والخواجا يصرخ معترضا على الكلام الذي لا يصدقه، المعلم شَكَل والأستاذ شديد، كل نجوم الكوميديا الذين ظهروا بعد ذلك سمعناهم في برنامج ساعة

t.me/qurssan

لقلبك، وقرآن الساعة الثامنة مساء قبل نشرة أخبار الثامنة والنصف بأصوات الشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ عبد الباسط عبد الصمد والشيخ علي البنا وغيرهم من أفذاذ القراء، والذي كان أبي يواظب على سماعه إذا كان بالمنزل ولم يغادره كالمعتاد إلى القهوة ليلعب عشرتين محبوسة مع أصحابه، الأوين بشلن والمارس ببريزة. هذه مسميات العملة وقتها، الشلن هو الخمسة القروش الصاغ، والبريزة هي العشرة القروش، هناك أيضًا الريال وهو العشرون قرشا ثم بقية العملات من ربع الجنيه ونصف الجنيه وأخيرا الجنيه الذي كان عملة محترمة تستطيع أن تفعل بها الكثير. كنا أيضًا نستمع في الراديو الكهرباء إلى برامج ما يطلبه المستمعون وحول الأسرّة البيضاء ويوم الجمعة بابا شارو وبعده أبلة فضيلة ثم على الناصية ظهرا، وفي شهر رمضان فوازير رمضان التي ظلت تقدمها آمال فهمى لسنين طويلة، والتي مر على كتابتها شعراء كثيرون أشهرهم بيرم التونسي وصلاح جاهين، وطبعا العمل الفذ ألف ليلة وليلة التي أعدها طاهر أبو فاشا وأمتعنا سنوات الصبا والشباب بصوت شهرزاد البديع، صوت الست زوزو نبيل الرصين وهي تفتتحها كل ليلة قائلة بتؤدة... بلغني أيها الملك السعيد، ذو الرأي الرشيد أن...، وقبل ذلك جميعا حفلات الست أم كلثوم في الخميس الأول من كل شهر في موسم غنائها الذي يستمر أشهر الخريف والشتاء والربيع لتستريح في الصيف، حفلات تجتمع الأسر فيها حول جهاز الراديو لتحتفل وتستمع وتصهلل... الله يا ست...، نرجع مرجوعنا، كنت أستمع إلى عبد الحليم حافظ وهو يغني صافيني مرة، أغنية حلوة قوي أحبها لهذا المُغَنّي الجديد نسبيا الذي ظهر ونجح بسرعة الصاروخ في أقل من خمس سنوات، يعني تقدر تقول مع الثورة.

رأيت تيته مريم وهي تمر في الصالة أو الفَسَحة كما كنا نطلق عليها، انتظرت عودتها من الكابينيه ثم قمت إلى المطبخ وأحضرت فنجان قهوة فارغا لي، لأشاركها في شرب القهوة والدردشة الصباحية، وقد أصبحنا في الحقيقة وقت الضحى، دخلت إليها في الغرفة بعد أن رجعت إلى مكانها المفضل على سريرها. سحبتُ صينية القهوة من مكانها على الرف الذي تحتفظ عليه بعلب كراكيبها الصغيرة من أزرار وكباسين وبنس وخلافه، ثم جلست إلى جوارها وأنا أشعل السبرتاية وأملأ الكنكة بالماء من إبريق الماء. قمت بتلقيم القهوة ووضعها على السبرتاية وانتظرت أن تفور لنشرب القهوة معا ونحن نُخَمّس في سيجارة بلمونت. أفرغت الكنكة في الفنجانين، فنجانها مغسول وجاهز دائما على الصينية، راعيت طبعا توزيع الوش على الفنجانين حسب الأصول، أعطيتها فنجانها ومددت يدي لأحضر علبة السجاير من فوق الرف وأشعل سيجارة. أخذت نَفَسا عميقا وأعطيتها لها. طقس أحرص عليه في الإجازة الصيفية عندما نكون بمفردنا صباحا في البيت. أنا مدخن حديث بدأت التدخين العام الماضي في إجازة الصيف أيضًا واستمرأت الأمر.

بدأت تحكي لي وأنا أسألها بشغف. تكلمنا بالأمس عن هوجة عرابي التي حكت لها أمها وجدتها عنها. قالت لي إن عرابي كان متعصبا ضد المسيحيين، كنت مشدوها لما سمعت، قلت الست دي بتخرف ولّا إيه، لم أكن أدقق في ما يمتزج من حقائق بالخيال في حكاياتها لطرافتها، قالت لي إن العرابيين إذا قابلوا قبطيا في الطريق كانوا يشخطون فيه وهم يقولون بحزم.... اشمِل يا نصراني... أي

t.me/qurssan

تحرك ليسار الطريق، شرحت لي أن النصارى كانوا مجبرين على السير يسار الطريق. هززت رأسي مبتسما، فأنا أحب الاستماع إلى حكاياتها القديمة عن عصرها وعصر أهلها الذي لم أعشه. علاقتي بها علاقة حميمة فيها شرب القهوة، الذي بدأ منذ طفولتي المبكرة بلحس الطبق، كانت تصب لي نقطتي قهوة في طبق الفنجان وتنفخ فيه لتبرد القهوة قبل أن تعطيها لي لألحسها باستمتاع وأطلب المزيد، كل هذا طبعا من وراء ماما، كذلك تَشَاركنا في تخميس السجاير وقعدة البلكونة في عصاري الصيف وأمسياته، كانت تناديني بحماسة وفرحة إذا ظهر الهلال أول كل شهر عربي وهي مغمضة عينيها، تقول لي أسرع فقد ظهر الهلال، عاوزة أشوف الهلال على وِشَّك، كانت تستبشر برؤية الهلال على وِشّي، تمسك وجهي بكفيها ثم تنظر حيث رأت الهلال وأغمضت عينيها، تتمتم بكلمات لا أسمعها ثم تفتح عينيها مبتسمة وأمارات البشرى تنير وجهها. أحببت هذه الست جدًّا وبكيت كثيرا لفراقها.

لم تنزل الست أم حنا من البيت منذ وفاة زوجها، جدي إبراهيم حنا، أسمَى ابنه البكري على اسم أبيه، صورته في ذهني وهو يأخذني إلى المدرسة أول يوم دراسي في حياتي، يلبس البدلة كاملة بالصديري وربطة العنق التي كنا نسميها بالبلدى جرافَتة أو جرافِته، نقلا عن الفرنسية بتصرف العامية المصرية العبقري، لماذا عبقري؟... قد نرجع إلى ذلك فيما بعد، والأمر ليس تعصبا على فكرة، المهم يلبس البدلة كاملة والطربوش على رأسه، الطربوش هذا موضوع هام لهندام الرجل وقيمته، دولاب أبي به أكثر من

طربوش، يرسلونه للكي عند بتاع الطرابيش في أول شارع جزيرة بدران، قبل أن يرتديه أبي، يمسك الطربوش بين أصابع يده اليسرى من أعلى ناحية الزر الأسود المشرشِب ويقبض عليه جيدا بين أطراف أصابعه وكفه، وبطرف كم جاكتة البدلة ليده اليمنى يمر على الطربوش رائحا جائيا عدة مرات لينظفه، منظر مألوف قبل كل مرة يلبسه فيها، كنت أعتقد أن أبي يلبس الطرابيش لأنه أقرع ويخجل من قرعته فيداريها، لكني لاحظت بعد ذلك أن جدي إبراهيم يلبس الطربوش أيضًا رغم أنه بشعر كثيف، بعدها لاحظت أن كل الرجال تلبس الطرابيش. ولتتصوروا أهمية الطرابيش في ذلك الوقت فقد قرروا علينا في كتاب المطالعة بالمدرسة الابتدائية قطعة مطالعة بعنوان.. القرود وبائع الطرابيش... ما أذكره منها أن مجموعة من القرود سطوا على بائع للطرابيش ولبسوا كل الطرابيش في المحل ليُفاجأ الرجل بطرابيشه فوق رءوس القرود أعلى الشجر..

وصورة الطرابيش لمن لم يرها.

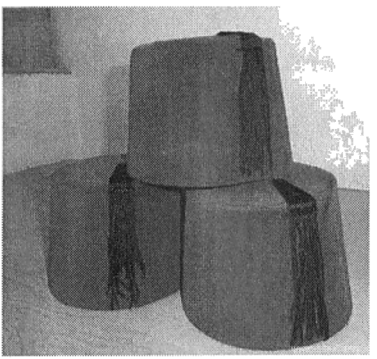

t.me/qurssan

هذا طبعا في مناهج التعليم ما قبل كتاب الأرنب شرشر الشهير الذي أرادوا به بعد الثورة تطوير التعليم من البداية والذي كان بتعليم الحروف والهجاء أولا، إلى التعلم من الصور ومدلولاتها من الأسماء والتي سخر منها عبد الفتاح القصري في فيلم الأستاذة فاطمة المحامية لفاتن حمامة، التي ستصبح سيدة الشاشة العربية، وكمال الشناوي مع عبد الوارث عسر، كان عبد الفتاح القصري يتعلم القراءة على كبر بأن تصرف في صورة الثعبان عندما لم يستطع قراءتها بأن قرأها.... حَنَشٌ. جدي إبراهيم وتيته أم حنا يعيشون معنا في البيت. هذه أنصع صورة لجدي في ذهني، أول يوم يأخذني للمدرسة ويتركني هناك وأنا مقهور أبكي بحرقة. واظب على توصيلي المدرسة وإحضاري من المدرسة ظهرا حتى وفاته. كان يضحك من قلبه وأنا أعلن عن رغبتي في عدم الذهاب إلى المدرسة ونحن في الطريق إليها، يقول لي بصوت تمثيلي... لا نريد الدرسَ اليوم.... اليومَ حرامٌ فيه العلم.... أسأله عما يقوله فيشرح لي أن هذه كانت هتافات الطلاب قبل الخروج في مظاهرات لتأييد حزب اسمه الوفد، لاأفهم ما يقول طبعا لكنه يقوله وخلاص، ثم يردف بهتاف مازلت أتذكره.... يحيا الوفد ولو فيها رفد... طبعا فهمت هذه الهتافات بعد أن كبرت وقرأت في تاريخ الوفد والسرايا ومؤامراتها ضده بمعاونة أحزاب الأقلية. أحببت حزب الوفد من الحكايات المسلية التي يحكيها جدي عنه والتي لا أفهم معظمها، لكنه كان يحكي بحب وانسجام، وأحببت أيضًا أسماء لا أعرفها، مصطفى النحاس، سعد زغلول، أم المصريين... كم كنت أتمنى

بعد رحيل الجد ومرور السنين، أن أكون بوعي السنين لأستزيد من سؤاله عن عصرهم وأيامهم وحكاياتهم الصغيرة.... خسارة.... الحكايات الصغيرة التي تحدث بين السطور ولا ينتبه إليها التاريخ عظيمة القيمة عندي، فهي الناس البسيطة، وليست الناس البارزة والحكام الذين يهتم التاريخ بسيرهم وأخبارهم، سأحكي لأحفادي وسأحكي سواء فهموا أم لم يفهموا، فسيجيء يوم يفهمون فيه ويعرفون قيمة حكايات زمان التي لا تذكرها كتب التاريخ.

من مباهج الطفولة إيقاظ جدي إبراهيم لي صباحا لأشرب معه القهوة باللبن، ذلك قبل أن ننعم بالنسكافيه وأنواع القهوة الفلتر وخلافه، طعم جميل جذبني لطعم البن مبكرا، كانت قهوة تركي باللبن والسكر. أرى البن يرقد في قاع الكوب وفوقه اللون الجذاب للقهوة وهي ممتزجة باللبن في تنوعات اللونين البني والأبيض. حكايات جدي عن الوفد والقهوة باللبن في الصباح كانا من أكثر مباهج الطفولة قربا لقلبي، لا ليس هذا دقيقا، كان احتضان كريمة بنت الجيران التي تكبرني بعدة سنوات لا أعرف عددها أكثر قربا إلى قلبي، متعة غريبة كنت أشعر بها ولا أفهمها، شيء ما فيها كان يغريني باحتضانها فجأة والتمسح بها، جمالها، رائحة عطرها، صدرها البارز قليلا، ربما، وكانت هي تدفعني بقرف بعيدا عنها وهي تقول بس بقى، كانت طويلة وبيضاء ولها عينان ملونتان، أباغتها وأعاود الكَرَّة ملتصقا بها أكثر فتدفعني بقوة أكبر. ذات مرة فاجأتها وشلحت فستانها، شعرت برغبة لاتقاوم في رؤيتها عارية. يومها ضربتني بالقلم ودفعتني بقوة فوقعت على الأرض. طردتني

t.me/qurssan

من شقتهم وعدت لشقتنا محزونا وحائرا، كيف أستطيع أن أحضنها طويلا وأعريها دون أن تزعل. القهوة باللبن المبكرة مع جدي إبراهيم تطورت إلى لحس فنجان القهوة مع تيته مريم فمشاركتها في فنجان قهوة مضبوط كامل مع تخميس السجاير ثم شرب سيجارة بلمونت كاملة حتى الفلتر. عندما كبرت ودخلت الجامعة كان أصحابي يتندرون عليَّ بأني أكاد أشرب الفلتر، أشرب هنا المقصود بها أدخن لكن العامية تفضل أشرب السيجارة عن أدخن السيجارة. أنا باموت في العامية المصرية، يعني باحب العامية المصرية جدًّا... ترى ما الصلة بين الموت والحب؟... لماذا يربط المصريون بين الحب والموت؟.. والضحك والموت؟.. حاموت من الضحك.. هل هي محاولة من محاولاتهم الدءوب لقهر الموت بجعله مرادفا للحب والضحك؟... يجوز... فقد قلبوا مقابرهم إلى أماكن مريحة عامرة بالمأكل والمشرب والملبس.. تعجبت يوم وفاة جدي إبراهيم، قبل وضعه في الصندوق ألبسوه كما كان يأخذني إلى المدرسة، البدلة الكاملة، وكانت زرقاء اللون، لا... كحلية آخر شياكة، والصديري وجرافتة ملونة، وأيضًا الطربوش الأحمر وعدلوا الزر على جانب الطربوش، بعد ذلك قفلوا الصندوق الخشبي المدهون بالأسطر اللامع والمزين بالصلبان الصفراء كالذهب، صوَّتت نساء العيلة عندما كان الرجال يرفعون الصندوق على أكتافهم، نزلوا به السلالم ووضعوه في عربة زجاجية آخر شياكة، هيكلها الخارجي من الذهب، أو هكذا تصورته، ويجرها ثمانية خيول لابسه شيك هي الأخرى، وأذكر المناقشة المحمومة أثناء التحضير للجنازة حول

عدد الخيول، ستة خيول أم ثمانية خيول، انبرت خالتي لتقول بحزم، إيه قلة القيمة دي، ثمانية خيول طبعا، أقرع ونزهي، كما سمعت الست جارتنا تهمس لأختها، فالأسرة متوسطة لموظفي حكومة على قد حالهم، ثم عزفت الموسيقى لحنا مهيبا حزينا مازال صداه يتردد في أذني.

ونحن نشرب القهوة معا وندردش من هنا ومن هناك، ضرب جرس الباب، اعتدنا أن نقول الجرس بيضرب وليس بيرن، فتحت زينب الشغالة، كنا نسميها الخدامة، لكني لاأحب هذا الاسم، مين يا زينب.... دا بتاع اللبن، طيب خدي رطلين لبن، قبل التحول إلى استخدام الكيلو جرام في الموازين، أيامنا كان الباب بيضرب عدة مرات خلال النهار، بتاع اللبن وبتاع العيش، المكوجي، وبتاع الزبادي، نأخذ منه سلاطين الزبادي الفخار البنية اللون ونرد له السلاطين الفارغة من اليوم السابق، سلطانية الزبادي كانت بتلاتة تعريفة، يعني قرش ونصف، والجنيه مائة قرش، شوفوا بقى الجنيه يجيب كام سلطانية زبادي، الزبال أيضًا يجيء يوميا بانتظام زي الساعة. بعد شرب القهوة مع تيته قمت لأرتدي ملابس الخروج استعدادا للذهاب إلى سامي صاحبي بطوسون للعب الكرة الشراب، كنا نصنع الكور من الشرابات القديمة، التصرف التلقائي للتعايش مع الإمكانيات المحدودة للأسر المتوسطة في ذلك الوقت، كل الصبية كانوا يصنعون الكور الشراب بمهارة، نجمع الشرابات القديمة، نكور بعضها لحجم قريب من حجم الكرة التي نريدها ثم نضعها في فردة شراب

t.me/qurssan

سليمة نسبيا ونكبسها داخلها جيدا لتتماسك، نلف فردة الشراب الخارجية عدة مرات ثم نقلبها ونعاود الكَرَّة مع فِرَد شراب أخرى عدة مرات، في النهاية نخيطها بإبرة وخيط من الخارج بإحكام حتى لا تنفجر مع اللعب العنيف والشوطات القوية. تطورت الكرة الشراب قليلا بعد ذلك بوضع قطع من السفنج في داخل الكرة مكان الكومة الأولية من الشرابات لكي تعطي الكرة مرونة السفنج وقدرته على الارتداد مثل الكُوَر الجلد. كان مصدر السفنج هو كراسي الأتوبيسات والقطارات، يتم تمزيعها بمطواة وأخذ السفنج من داخلها وتركها مدمَرة، وسائل بسيطة استعان بها الأطفال على اللعب والفرفشة. كان اللعب أيضًا بنوى البلح والمشمش وغطيان الكازوزة، وأحيانا كنا ندق غطيان الكازوزة بزلطة لنفردها ثم نصنع بها مجسمات تخيلية بشبك بعضها البعض وثنيها بالدق أيضًا، تفانين بدائية ملأت حياتنا بهجة ولعبا بدون تكاليف إضافية ترهق ميزانيات الموظفين أرباب الأسر في ذلك الوقت. كنت أحب الكرة في ذلك الوقت، لعبا وتشجيعا، وتنقلت ما بين تشجيع الناديين الأهلي والزمالك عدة مرات لأسباب غير مهمة، أحيانا تقليدا لمن أحب من أصحابي أو لأسباب أخرى لا أذكرها، كنت أواظب على الذهاب إلى سامي للعب الكرة معه ومع أصحابه وجيرانه في الشارع، عيال حريفة بجد، أستمتع باللعب طبعا، وهناك سبب آخر عاطفي، كنت أنتظر واحدة من بنات جيرانه تقف دائما بالشباك للفرجة على الشارع وعلينا، لا أميز ملامحها بدقة من على البعد لكني تعلقت بظهورها وسرحت

مع خيالاتي بشأنها، خُيّل لي في بعض الأحيان أنها تنتظر قدومي، لا أدري لِمَ؟.. ليست هي الوحيدة من بنات الجيران التي وضعت عيني عليها، فأنا أتابع كل بنات جيراننا في البيت وأسرح بخيالي وتصوراتي.

استقبلني سامي في الشقة بالبيجاما، صحا لتوه من النوم، جلسنا ندردش حتى أفاق من النوم، سألته عن اللعب فقال لي إنه مكسل، جاءت أمه بالشاي باللبن والساندوتشات ليفطر وشاركته فيها، كنت جوعانا أنا الآخر، أخذنا قعدتنا واتفقنا على الذهاب لفيلم طرزان الجديد في سينما مترو يوم الجمعة القادم. نتابع أفلام طرزان بانتظام ونتعلق بها جدًّا، عموما السينما مهمة جدًّا في حياتنا ونواظب على الذهاب لمعظم السينمات حولنا أو في وسط البلد. أتذكر اسم الممثل الذي كان يقوم بدور طرزان، جوني ويسمولر، ثم حل محله ممثل آخر لا أتذكر اسمه الآن، عندما طعن في السن.

أخذنا قعدتنا ورجعت إلى البيت، ياترى طابخين إيه النهارده؟... بدأت مصاريني في الصوصوة، وجدت تيته قاعدة على ترابيزة السفرة وعمالة تقص علب السجاير القديمة لقصاصات مستطيلة لاستعمالها في توليع بابور الجاز البريموس من السبرتاية، المطبخ فيه دايما سبرتاية مولعة بالسبرتو الأحمر وإلى جوارها كوب به قصاقيص الورق المأخوذة من علب السجاير القديمة لتوليع البابور أو الوابور، لا أدري أيهما أصح، أعتقد الوابور لأنها لازم تكون أصلها هو الكلمة الإنجليزية vapour أي بخار، لأن الآلات كانت تدار بالبخار وقتها وكان يطلق على أي أداة تعمل بالاشتعال الوابور،

t.me/qurssan

مثل وابور الطحين ووابور البحر وكذلك وابور السكة الحديد. كل شيء كان له استخدام فالحياة ليست باذخة. سألتها عن الغداء فقالت بصارة. كانوا صايمين صيام الرسل. كنت أحلم بغدوة معتبرة، ملوخية بالفراخ مثلا أو بوفتيك ومكرونة.

وصورة الوابور البريموس لمن لم يره من الأجيال الحديثة.

لاأدري من أين أتى أبي بدعوة المسرح التي أخذني لحضوره، قال لي معي تذكرتان، إيه رأيك تيجي معايا نروح المسرح، ترددت قليلا فأنا لاأعرف شيئا عن المسرح وحضوره سوى حكايات الكبار عن شارع عماد الدين ومسارح يوسف بيه وهبي وعزيز عيد والريحاني. لم يطل ترددي وقلت له ماشي. لاأدري أين كان المسرح، لكنها كانت مسرحية قنديل أم هاشم ليحيي حقي، ذلك الرجل الفاتن الذي سأقابله صدفة في الكبر ويزداد افتتاني به وبكتاباته. البطلة كانت كفيفة، أو مريضة بعيونها ثم أصيبت بالعمى، الممثلة شويكار، التي

ستتألق بعد ذلك مع فؤاد المهندس على المسرح في سلسلة من المسرحيات الفكاهية البديعة. ليلتها تغير مسار حياتي. بدأ تعلقي بالمسرح الذي سيلازمني طوال العمر ويصبح غوايتي وحياتي، وسأعيش البقية الباقية من عمري بين كواليسة وناسه وعوالمه، ممثلا يحلم بالنجومية والمجد والشهرة والفلوس. سألت في اليوم التالي عن فريق المسرح بالمدرسة وتقدمت للانضمام إليه. ياه على الغواية، غواية أي شيء، فن أو صنعة أو حرفة، كنت أراقب الغاويين وأحوالهم بعد ذلك باستمتاع، أول غاوٍ سمعت عنه لكني لم أره، سمعت عن عم راغب قريب أبي من بعيد، كلما كان يعطل بابور الجاز البريموس كان أبي يأخذه معه في شنطة ليصلحه عند عم راغب في حي السيدة زينب، أسأله يعني لازم تروح السيدة تصلح بابور الجاز ونحن نسكن في شبرا، اسأل عن أي واحد يصلح بوابير الجاز في شبرا، كان يبتسم ويهز رأسه وبريق يشع من ملامحه، عم راغب أسطى فنان، أصله غاوي الشغلانة دي من صغره، اشتغل عند أسطى كبير وهو صغير وغوى منه الصنعة. وقف قدام أبيه عندما أراد أن يعلمه صنعة تكسب أكثر، رضخ أبوه أخيرا عندما يأس منه. الغواية حقا لا تقاوم، كنت أبتسم عندما أستمع إلى أغنية صباح.. الغاوي ينقط بطاقيته تسلم لي عينه وعافيته... وبعدها تتدلل وهي تمط الكلمة كأنها تتذوقها على مهل... الغاوي.. عيني أصبحت تلتقط أي غاوٍ وتنتبه له فتجده مجيدا في غوايته، لاعب الكرة الشراب الحريف، تجده من فرط غوايته يقضي يومه بطوله في الشارع في لعب الكرة الشراب.. الغاوي مزيكا تجده عازفا شاطرا متميزا.. راقب معي وسترى صحة فكرتي. من لا

t.me/qurssan

يغوي شيئا معينا يفقد الكثير من المتعة في حياته، فالغواية سحر الحياة. وهي باللغة المتأنقة.... الهواية، حتى لو لم يتميز المرء في هوايته، فسيستمتع بالحياة وسيشعر بمعناها. استمرت هوايتي للمسرح على مدى عمري، عاوز أمثّل؟.. لِمَ؟... لا أدري، أمثّل وخلاص... لاحظت أنني لاشعوريا كنت أمثل وأنا أحكي أي حكاية لأحد، يعني أقوم بتشخيص ما أقول دون أن أدري، أشوَّح بيديّ وأتحرك بجسدي مقلدا حركة من أحكي عنه، أغيّر ملامح وجهي ابتساما وتكشيرا، أو حزنا وغضبا، بدأت أراقبني، والعجيب أنني لاحظت أن أمي تفعل نفس الشيء عندما تتكلم، الله.... هي وراثة؟.. إيه الحكاية؟... ومنذ بداية ملاحظتي تلك انتبهت إلى أنني بدأت أصبح رغّايا، ثرثارا يا سيدي ما تزعلش، أسيطر على القعدة بالكلام، عاوز أمثل يا عالم، تدريجيا جاءت فكرة تأليف سكتشات طريفة، أقوم مع زملائي من فرقة التمثيل، بتمثيلها لأصحابي في المدرسة أوقات الفسحة بعد أن انضممت لفريق المسرح بالمدرسة، يتحلق حولي بعضهم ويتبادلون القفشات والتهريج، لم أكترث وقتها، المهم أن أمثّل، صاحب تلك الحمى الانتباه للقراءة ومتعتها، وبدأت بمجلة السندباد البحري، كل يوم أربعاء، لو لم تَخُنّي الذاكرة، كنت أصحو من نومي مبكرا وآخذ ديلي في سناني على بياع الجرايد لشراء عدد مجلة السندباد الجديدة، أنتظر حكايات زوزو ذي الشعرة الواحدة في رأسه الزلبطة، وحمدان وصفوان وحازم وحاتم، وتطورت الحكاية إلى قراءة الكتب، أرسين لوبين في البداية وشرلوك هولمز، ثم الروايات والكتب.

مع دخول الجامعة، وللأسف كلية الهندسة، لمجرد أني كنت

تلميذا شاطرا في الرياضيات وحصلت على مجموع يؤهلني للالتحاق بكلية الهندسة تبعا لقواعد مكتب التنسيق، كانت هناك الفرصة المذهلة للمسرح الجامعي، سألت وذهبت للاشتراك واحتجت لبعض الوقت وبعض المحاولات حتى أكتشف طريقي الصحيح وأصل إلى الالتحاق بالمسرح الجامعي، وبعد أن تحديت مسئول فرقة مسرح كلية الهندسة وكونت فرقة صغيرة أدرتها ومثلت فيها تحديا له. كنا في ستينات القرن العشرين، حيث النهضة المسرحية الهائلة، المسرح القومي، مسرح الحكيم، مسرح الجيب العظيم الذي شاهدنا فيه كل المدارس الحديثة في المسرح، وغيرها من مسارح تقدم كل شكل ولون في عالم المسرح، ثم أعقب ذلك مسرح التلفزيون العظيم الذي خَرَّجَ الأجيال في فن المسرح والذي له الفضل على جميع محترفي مهنة التمثيل فيما بعد.

قبل التلفزيون كانت السهرات بسيطة وهادية، في الصيف في البلكونة، مع التين الشوكي والذرة المشوية، لب البطيخ المحمص، الناس كانت تستغل كل شيء، بعد أكل البطيخ تنشف اللب في الهواء وبعدها تحمصه بقليل من الملح وتقعد تقزقز بالليل. في الشتاء مع الراديو والحكايات، وسهرات الشتاء سمعت فيها الكثير من حكايات الماضي من جدي وجدتي. سمعت عن الأورنس وقت الحرب، التي هي الحرب العالمية الثانية، عمل الكثيرون في الأورنس بالجيش الإنجليزي، يقولون كانت فلوسه كثيرة، مافهمته أن الأورنس مثل إدارة الإمداد والتموين، تهيئ طلبات واحتياجات الجيش الإنجليزي عامة من بضائع ومعدات وصيانة، حكى لنا عنه الأستاذ نجيب محفوظ في رواية «زقاق المدق» وسمع الناس عنه

t.me/qurssan

أكثر في الرواية على الشاشة التي أخرجها حسن الإمام، المخرج الذي ظُلم كثيرا لأنه كان صاحب مزاج ورايق، لم يكن متجهما ليحظى بالإطراء من المثقفين واليسار المصري الذي يفضل الجدية، الأورنس الذي أثر في مصائر أبطال الرواية، فترك عباس الحلو الحارة ودكان الحلاقة ليذهب للعمل فيه إرضاء لحميدة المتطلعة لحياة أفضل، سمع نصيحة أخيها الشقي، حسن يوسف في الفيلم، وراح ليعمل في الأورنس ليُكَوّن نفسه، يعني يحَوّش قرشين، وانتهى الأمر كما ينتهي مع أي طموح جامح قد يودي بأصحابه إذا زاد وطغى على ما عداه. حكايات الحرب العالمية وغاراتها الفظيعة التي لم أتصور فظاعتها إلا بقراءة رواية «خان الخليلي» للأستاذ نجيب محفوظ أيضًا الذي كان قابعا في ركنه يترصد أحداث الأيام ولا يترك شاردة ولا واردة إلا وذكرها وبحثها ودقق فيها، لا أنسى شخصية أحمد عاكف أفندي وعائلته وهروبهم من حي السكاكيني إلى حي الحسين ليتباركوا بجوار الحسين طمعا في السلامة. على فكرة هذه الرواية من أحب الروايات إلى نفسي ولا أنسى شخوصها وبالذات المعلم نونو وصيحته الشهيرة..... ملعون أبو الدنيا... ورشدي أو حسن يوسف في الفيلم الذي حزنت على وفاته بمرض السل. حكايات ليالي الشتاء كانت ممتعة لي، يحكون عن الأحداث الكبيرة والوقائع العائلية الصغيرة، عن غلاء الأسعار الرهيب بالنسبة لهم يومها، سعر العشر بيضات كان بتعريفة وأصبحت البيضة بقرش صاغ، يعني الجنيه يشتري مائة بيضة فقط، تصور، بكم تشترون البيضة الآن؟... حكاية. خريج الجامعة كان يبدأ تعيينه في الوظيفة بمرتب سبعة عشر جنيها شهريا، وممكن

بالتعاون مع مرتب شريكة حياته يتزوج ويفتح بيتا، كنا نقضى شهر المصيف في المندرة بالإسكندرية وكان إيجار الشقة في الشهر يتراوح بين عشرة جنيهات وخمسة عشر جنيها. يعني ممكن الأسرة الصغيرة أن تقوم بادخار جنيه واحد شهريا من دخلها لتقضى شهر المصيف على بحر الإسكندرية الجميل أو في رأس البر وبلطيم، هذه كانت أماكن المصيف مع مرسى مطروح طبعا لكنها كانت بعيدة، لم تكن أماكن الإجازات الحديثة قد ظهرت بعد، الغردقة وشرم الشيخ ودهب ومرسى علم والعين السخنة، العين السخنة كانت للرحلات المدرسية لمدة يوم واحد، نذهب في الصباح الباكر لنعود آخر النهار منهكين، نقفز إلى السراير ونحن نتثاءب من طول اليوم وإرهاق الرحلة لنغرق في أحلى الأحلام.

جـواب حبيبي بخط إيـده.. قريته

وكـل مـا أقـراه أعـيـده أعـيـده...

باكتب لك جوابات واستنى ترد عليَّ

وابعت لك سلامات أغلى من نني عنيّه...

وتشدو ليلي مراد عن الجوابات، أو البوسطجية اشتكوا من كُتر مراسيلي لرجاء عبده، الأغاني تتكلم عن الجوابات والبوسطجية، والأشعار، من ينسى الخال عبد الرحمن الأبنودي وجوابات حراجي القط إلى زوجته الست فاطمة أحمد عبد الغفار في جبلاية الفار قريتهم في صعيد مصر وحكاياته عن عمله في السد العالي... السد العالي هذا أيضًا حكاية وعشناها في صبانا وغنينا لها مع عبد الحليم حافظ... قلنا حانبني وآدي احنا بنينا السد العالي....، المهم نرجع

t.me/qurssan

للجوابات والبوسطجية تاني، حاجات اندثرت أو كادت، لكننا لا نغني الآن للإي ميلات والكومبيوترات، الجوابات زمان كانت حياتنا، وغرامياتنا السرية، نحتفظ بها ذكرى حميمة ونراجعها كلما اشتقنا للحبيب البعيد لدواعي السفر أو الإقامة، وإذا انتهت قصة الحب لأي سبب نستردها من الحبيب، ومن ينسى أغنية نجاح سلام الجميلة... عاوز جواباتك.. يعني افترقنا خلاص؟!... عالم كامل يشملنا بمشاعره وأشواقه. مررت على صندوق البوسطة في مدخل العمارة، وهو الصندوق الذي قد تضعه الشقة لساعي البريد، الذي هو البوسطجي، ليضع فيه جوابات الشقة صاحبة الصندوق، نكتب عليه أسماء أهل الشقة الذين يتوقعون استقبال خطابات. وجدت جوابا لي من نادر من الإسكندرية. تهللت وفضضته سريعا وأنا أتقافز فوق درجات السلم، في سننا هذا كنا دائما متعجلين، عاوزين نحوّط على الدنيا ونغرف منها، سيحضر كالمعتاد في إجازة نصف السنة ليقضي أسبوعا منها في القاهرة، حضر في العام الماضي وقضينا أياما حلوة مع بعضنا فقرر أن يعيدها في إجازات نصف السنة كل عام، يبيت جزءا من الإجازة ببيت خالته بالقرب من ميدان سفير بمصر الجديدة والبقية معي في بيتنا، يشاركني سريري ونمضي معا طوال اليوم نلف القاهرة بسينماتها وشوارعها صعلكة يظل يحكي عنها طول العام. فرحت لخبر وصوله الأسبوع القادم وأخذت أفكر في إعداد برنامج حافل له للفُسحة والفرفشة. ستظل هذه العادة لسنوات قادمة حتى دخول الجامعة وبعد التخرج، اتفقنا على ذلك، أراه في الإسكندرية في الصيف، ويأتي هو إلى القاهرة في الشتاء، علاقة

استمرت سنوات حتى خفتت بمشاغل الحياة واختلاف الأحوال، لكنها لم تنقطع. شاهدنا سنتها فيلم سعاد حسني «السفيرة عزيزة» في سينما أوديون، العرض الأول، يمكن كانت أول مرة أشوف فيها سعاد حسني، من يومها أصبحت فتاة أحلامي، كانت فعلا السفيرة عزيزة، وشكري سرحان كان عنده حق عندما وقع في حبها رغم جبروت أخيها الجزار الجشع عدلي كاسب، وانتهى الفيلم بالخناقة الشهيرة بينهما والتي لقنه فيها شكري سرحان درس عمره بعلقة محترمة، لم يتركه فيها حتى أخذ منه مستند ملكية البيت الذي ورثته السفيرة عزيزة واستولى عليه أخوها.

لا أتذكر من أحداث ثورة يوليو إلا بعض الحكايات عن محمد نجيب وحب الناس له، وأن أمه كانت من السودان على ما أذكر، هذا ما استقر بذهني حتى الآن ولم أدقق فيه، ماذا يهم، مصر والسودان بلد واحد منذ أزمان، لا تهمني الحدود السياسية الاتفاقية، ما أذكره أن الناس كانت تحبه لهذا السبب من ضمن الأسباب التي تشمل بشاشته وابتسامته الحلوة، هذا الرجل حُدّدت إقامته بقية عمره في قصر مهمل مهجور لأنه اختلف مع بقية أعضاء مجلس قيادة الثورة، كان انتقامهم عنيفا، لا بأس من الاختلاف، فهو طبيعة الحياة، لكن كل هذه القسوة والغلظة، وعند المقدرة؟!... لم أغفر لأعضاء مجلس قيادة الثورة ولجمال عبد الناصر شخصيا، رغم حبي وتقديري له، هذه القسوة والشر في حق رجل تقدم به العمر وضعفت صحته وهو سجين في قصر مهجور. أذكر من الثورة أيضًا شعارها، الاتحاد والنظام والعمل، ومن قبل الثورة لا أكاد أتذكر

t.me/qurssan

شيئا إلا خيالات واهية لحريق القاهرة وأحزانه وبعض الأحداث الطفولية الطريفة التي سأحكيها لكم حالا. أول الأحداث الهامة التي أتذكرها بوضوح هو حرب السويس سنة ١٩٥٦، حكايات عن غارات وطائرات تلقي القنابل وخوف، نزول إلى المخابئ بالدور الأرضي أو بدروم العمارة وقت الغارة وسماع صفارات الإنذار المتقطعة، نداءات.... طفوا النور من الدفاع المدني، ثم صفارة الإنذار، أسوار المباني الطوب أمام أبواب العمارات حماية من شظايا القنابل، ثم الصوت العذب لصفارات الأمان المستمرة بدون انقطاع حتى نطلع إلى شققنا بالأدوار العليا ونشعل الأنوار، كذلك دهان زجاج النوافذ والشرفات باللون الأزرق ليحجب أي بصيص نور قد ينبعث من الشقة للخارج فتستدل به الطائرات على البيوت وتقذفها بالقنابل. أجمل شيء في حرب سنة ١٩٥٦ كان الأناشيد الوطنية، الله أكبر فوق كيد المعتدي... والله للمظلوم خير مؤيد، ووالله زمان يا سلاحي الذي أصبح النشيد القومي بعد ذلك، ودع سمائي، أناشيد جميلة ارتبطنا بها وغنيناها دائما بعد ذلك. أما عن أحداث الطفولة التي أتذكرها من قبل الثورة، فهناك حادثة طريفة تذكرتها الآن من الطفولة المبكرة جدًّا، قبل الثورة وحريق القاهرة، أحضرنا كلبا صغيرا مولودا حديثا لتربيته وكان اسمه بينكي، لا أدري فكرة من كانت، فرحت به جدًّا، كان كلبا أبيض ودمه خفيف جدًّا، طفل صغير مثلي، كنت مرة أجلس على القصرية وألعب معه فإذ به يفاجئني ويعضني عضة خفيفة في طرف حمامتي، بكيت يومها

وجاءت أمي سريعا لتفحصني فلم تجد شيئا خطيرا فالكلب مازال صغيرا جدًّا وضعيفا، ويمكن بدون أسنان، المهم استُنفِر البيت كله للحدث وقرروا التخلص منه سريعا، لا أذكر كيف تخلصوا منه، بهذه المناسبة تذكرت واقعة أخرى في نفس المجال، كنت أقف في البلكونة والرجل الكِشِر الذي يسكن تحتنا واقف في بلكونتهم ويتكلم مع أحد بصوت عالٍ، فجأة أخرجت حمامتي وطرطرت عليه وجريت للداخل وأنا أضحك من كل قلبي وأسمع زعيقه وشتيمته وأنا أقول في سري، تستاهل.

أعتقد أن بداية الوعي الوطني قد ظهرت عند جيلنا مع حرب السويس سنة ١٩٥٦، تفتحت عيوننا على وطن يتعرض للخطر، على مقاومة ونوع من الزهو، على أناشيد وطنية ترتجف لها أجسادنا. سمعنا خطابات عبد الناصر... سنقاتل.... سنقاتل ولن نستسلم أبدا، سمعنا حكايات البطولة الأسطورية في بورسعيد، حكايات عامة مشوشة في أذهاننا، لكنها كانت تشعرنا بالفخر الذي لم نكن نفهم كنهه وقتها، بطولة شاهدناها عندما كبرنا في مسلسل ليلة القبض على فاطمة، وفي الفيلم. لا أنسى انبهاري بفاتن حمامة في دورها في بورسعيد، أقصد الفيلم، انتبهت لأنها ممثلة قادرة فعلا وليست مجرد البنت الطيبة المستضعفة الرقيقة، وتأكدت قناعتي بها بعد مشاهدتها في فيلم أفواه وأرانب، فلاحة مصرية حقيقية، ونما هذا الشعور الوطني منذ وقتها باطراد مع عبد الناصر وأغنيات عبد الحليم حافظ في عيد الثورة، نسمعها فتصعد بنا إلى عنان السماء، يا أهلا بالمعارك، يا بخت مين يشارك... ملايين

t.me/qurssan

الشعب تدق الكعب تقول كلنا جاهزين، بالأحضان بالأحضان بالأحضان... بالأحضان يا بلدنا الحلوة بالأحضان... بالأحضان يا مصانع... يا مزارع بالأحضان، ومع قوانين ١٩٦١ الاشتراكية، على راس بستان الاشتراكية... واقفين بنهندس ع الميه، والمسئولية وصورة صورة صورة... كلنا كده عاوزين صورة، زخم من الأغنيات التي رددناها وراء عبد الحليم حافظ من كلمات صلاح جاهين وأقرانه من الشعراء وألحان كمال الطويل ومحمد الموجي. فترة غنية بالمشاعر والزهو القومي بكينا لها بحرقة مع نكسة ١٩٦٧ ووقفنا كاليتامى ننعي وطننا الذي أهين بشدة زلزلتنا جميعا وأوقفت أنفاسنا عندما شاهدنا أفواج العساكر الحفاة العائدين على أرجلهم من سيناء ممزقين ومقهورين من هزيمة لا ذنب لهم فيها مسئول عنها قياداتهم العسكرية المترهلة الغارقة في اللهو والمجون كما سمعنا من حكايات، بكينا وقتها بحرقة أطلال وطننا بعد أن حلمنا معه بتماثيل رخام على الترعة وأوبرا... في كل قرية عربية... أه.... يا لحرقة الألم.... موجات من الزهو الوطني والقومي عشناها في تتابع مُرهِق أليم، الوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨، غنينا لها أيضًا، حموي يا مشمش... بدي عريس أسمر عربي شرط... شرط... شرط من المتحدة طلبي شرط... بدي خدوده تفاح شامي وبدي شفايفه فزدق حلبي، ومصري سوري يد واحدة من زمان... اكتب الوحدة النهارده يا جمال... ثم الانفصال الخاطف في ١٩٦١، والحكايات التي سمعناها وتدمي القلب، وحدة.... انفصال.... زهو وطني.... نكسة، هزات متتالية زلزلتنا من الداخل، الخطة

الخمسية الأولى والتصنيع الثقيل الذي غنى له أيضًا عبد الحليم حافظ، حنمد طريق ع النيل... اسمه في الاشتراكية... التصنيع التقيل، السبد العالي وملحمة بنائه... ثم حرب اليمن ومصائبها، أيام كانت حبلى بالأفراح والأحزان في تتابع رهيب.

في أثناء فترة الوحدة بين مصر وسوريا دخلت إلى سن البلوغ والمدرسة الثانوية، مدرسة التوفيقية الثانوية بشبرا، فترة زاهية من عمري. الشعور بالفتوة، بأنني أصبحت رجلا، طالبا بالمرحلة الثانوية، ثلاث سنوات فقط وأصبح طالبا جامعيا، رغم أن إحساسنا بالزمن وقتها كان بطيئا، تطلع روحنا حتى ينتهي العام الدراسي ونبدأ الإجازة الصيفية. لم يَدُم هذا الشعور مع مضي السنين، كلما كبرنا أسرع الزمن بالسنين، حتى نُفاجأ بالمشيب، ما بين أول العام وآخره كأنه غمضة عين، تميزت مدرسة التوفيقية بالملاعب الرياضية، ملعب لكرة القدم كبير مثل ملاعب النوادي الرياضية، ملعبان للتنس، وملاعب لكرة السلة والكرة الطائرة. انفتحت شهيتي لممارسة الرياضة على أصولها. في المدرسة الإعدادية كنا نلعب بكرة جلدية، ثمنها ستة قروش وحجمها يزيد قليلا على حجم البرتقالة. تطلعت إلى ملعب كرة القدم وأنا أشرب الكازوزة بعشة عم جوهر التي تقبع على مشارف الملعب، والتي مر عليها كل من تخرج في مدرسة التوفيقية الثانوية بشبرا. حاولت الانضمام لفريق المدرسة الرسمي، طموح الصبية البريء الذي يريد أن يحتوي العالم كله بين يديه، بلا سقف، أتذكر أنني لعبت عدة مرات بهذا الملعب، لكني لم أنضم إلى فريق المدرسة، ولا أذكر الأسباب. هل

t.me/qurssan

كان السبب هو التنافس الشديد بين الطلبة المقبلين على كرة القدم وأعدادهم الكبيرة، أو ربما لم أكن ماهرا في اللعب بقدر يسمح بقبولي بفريق المدرسة الذي يشارك في دوري المدارس وهو مسابقة هامة كالدوري العام للأندية، الله أعلم، لا أتذكر بالضبط. المهم أنني أخفقت في لعب كرة القدم مع فريق المدرسة فلجأت إلى لعبة التنس التي لا أعرف عنها شيئا ولا أدري لماذا اخترتها بالذات، رغم تعليقات الزملاء بأنها لعبة الأغنياء، فالمضارب غالية والكرات كذلك وتُستهلك دائما، ذهبت إلى عم سعيد مدرب التنس وأول سؤال له كان... عندك مضرب تنس؟... عندما أجبته بالنفي وعدني بتدبير مضرب مستعمل لي، قال... سَكاند هاند، الظاهر فراسته أنبأته باتضاع إمكانياتي المادية، ففي الحقيقة أبي موظف حكومي ومكاننا في السلم الاجتماعي هو الطبقة المتوسطة السائدة وقتها، عرفت بعدها أنه عمل لفترة في نادي الجزيرة، كان أشيب الشعر ويبدو أنه فشار بطبعه من كثرة حكاياته عن أمجاده في لعبة التنس. بدأت في التدريب على لعبة التنس معه واستمتعت باللعبة جدًّا. لم أكمل فيها أيضًا بدون سبب وجيه سوى عدم تعلقي بالرياضة بشكلٍ كافٍ، تعلقي الأساسي كان بالمسرح والتمثيل عموما. بدأت أيامها في الاستمتاع بالقراءة وشجعنا الأساتذة بتكوين مكتبة صغيرة في الفصول وتَعوُّد الاستعارة منها. طُلِبَ منا إحضار الكتب التي لا تحتاجها الأسرة من منازلنا لضمها إلى المكتبة والاستفادة بها فيما بيننا. تكونت مكتبة لا بأس بها من كتب الجيب وسلاسل الكتاب الذهبي وغيرها مما كان موجودا في ذلك

الوقت. بدأت منذ ذلك الوقت في قراءة القصص مع مجلة السندباد البحري التي واظبت على قراءتها والاستمتاع بها.

في المرحلة الثانوية أحببت بنت الجيران، وفاء، في الحقيقة أنا وجاري سمير أحببنا وفاء وأختها الأكبر سنا منها، كان سمير يكبرني بعام. شاغلناهما من البلكونة وتجاوبتا معنا. راقبنا نزولهما معا ونزلنا وراءهما، ركبتا الترام ركبنا الترام، سمير كان أكثر جرأة مني بحكم السن، تكلم مع صاحبته عندما وقفنا إلى جوارهما في الترام المزدحم، استجابت بحياء وصعوبة، لكن لم يحدث شيء أكثر من ذلك، إيقاع العصر، تابعنا مشاغلاتنا من البلكونة وكنا كمن يعيشون معا معظم النهار، نصحو من النوم فنجري إلى البلكونة نفتح الشيش وننتظر ظهورهما، تظهران تباعا، نُصَبّح ملهوفين ولسان حالنا يغني مع محمد قنديل... يا حلو صبَّح يا حلو طُلّ... ياحلو صَبّح نهارنا فل، نلاغي بعضنا البعض بالإشارات، تختفيان وتظهران حسب مشاغل المنزل، ننتظر نزولهما وننزل وراءهما، نقترب منهما في الشارع، مع الوقت ندخل في الحديث مباشرة، بعد شهور وافقتا على الخروج معنا في أيام معينة، نركب الترام معا ونذهب بعيدا لنتمشى معا، أقصى ما نفعله أن نتماسك بالأيدي ونحلم. حلاوة لمسة يد المحبوبة لا يمكن وصفها لكم، بالتأكيد مررتم بها في صباكم، حتى ذلك الوقت لم تتعدَ علاقتي بالجنس الآخر تلك المرحلة، إشارات من البلكونة بتحفظ حتى لا يلاحظ الجيران شيئا، تمشية في الشارع، تواصل بالأيدي، وغناء مع عبد الحليم حافظ في البيت كل أغانية العاطفية ونحن نعاني من الحرمان. لم

t.me/qurssan

أعرف معنى القُبلة الفعليّ حتى أنهيت المرحلة الثانوية ودخلت إلى الجامعة، بعد دخولي الجامعة بدأت علاقتي بسميحة زوجة جارنا عم صابر الذي يتغيب طوال النهار في عمله ولا يعود إلا في ساعة متأخرة من الليل، معها كانت العلاقة كاملة متأججة، عرفت القبلة والعناق وسخونة الجسد في الشتاء وحلاوة الجنس المتقد. كنت وقتها في الثامنة عشرة من عمري تقريبا.

عبد الحليم حافظ كان محور حياتنا الفنية، أو فلنقل الغنائية توخيا للدقة، نحب، نغني معه ضِحك ولِعب وجَد وحُب، وعلى قد الشوك اللى في عيونى يا جميل سَلّم، نُصدم من الحبيب فنغني ظلموه، حتى تحولت إلى قول مأثور في حكينا الشعبي، عندما يفشل أحد في أي موضوع يقولون عنه... سيُغني ظلموه... كناية عن الخيبة والخسران، نفكر في كتابة جواب للحبيبة فنغني... حبيبي الغالي... من بعد الأشواق بهديك ألف سلام...، في أعياد الثورة نغني معه كل أغانيه وكلنا حميّة وشعور بالزهو، استمر معنا إلى ما بعد هزيمة ١٩٦٧ لنغني معه رائعة الخال عبد الرحمن الأبنودي... عَدَّى النهار.. وبلدنا عَ الترعة بتغسل شعرها... جانا نهار ما عرفش يدفع مهرها.. لم أسمع هذه الأغنية في أي وقت من الأوقات، إلا وأجد دموعي تجري بلا انقطاع، وهذا أيضًا ما يحدث الآن وأنا أكتب تلك الذكريات التي هي حياتنا.

وكانت السينما نزهتنا الأساسية وبهجتنا الأولى. في شبرا نذهب إلى سينما دوللي، سينما شبرا بالاس في الترعة البولاقية، سينما مسرة عرض مستمر، تعرض ثلاثة أفلام دون توقف وكثيرا ما

تَفَرّجنا على الأفلام الثلاثة ثم واصلنا الفرجة مرة أخرى على بعضها في العرض المستمر. في الصيف نذهب إلى سينما الجندول، لن تجدوها الآن، وسينما أمير بشارع خلوصي في الدوران، لن تجدوها أيضًا ولكن ستجدون ملمحا من ملامح العصر الحديث، مول، يعني مركز تجاري أمريكي الطابع، كانت السينما أملا للفسحة والمتعة، خاصة قبل دخول التلفزيون إلى حياتنا سنة ١٩٦٠، وكانت الأفلام العربية، أي المصرية، والأفلام الأجنبية تشكل ملمحا أساسيا في حياتنا، أبطالها كانوا مثلنا الأعلى في الجمال والخفة والشجاعة وكل القيم التي تتخيلها. نجمع صورهم ونحتفظ بها. كانت الصور توزع مع الحلوى، مع اللبان لو لم تخني الذاكرة، وكنا نتبادل الصور لنكمل مجموعاتنا كأطفال، نبدل الصور المكررة عندنا بالصور غير الموجودة بمجموعتنا، أتذكر أسماء النجوم الأجانب الذين فتنونا حتى الآن، جين مانسفيلد وكاترين هيبورن، إستر وليامز، فيكتور ماتيور وجون واين، كيرك دوجلاس وروبرت ميتشوم وبرت لانكستر. في الطفولة المبكرة كنا نفضل الأفلام العربية، يجوز بسبب سهولة الفهم وعدم قدرتنا على قراءة ترجمة أنيس عبيد وإيديال تترا فيلم. يا سلام على أفلام إسماعيل ياسين وشكوكو مع سامية جمال وفريد الأطرش الذي كان يعشق اسم وحيد في الأفلام، محمد فوزي وليلى مراد، من ينسى فيلم شحات الغرام وهو يغني لها تحت البلكونة.... لله... وهي تتدلل وتقول له اسرح... فيقول لها مصرًّا... لله... فتقول له بعذوبة... رَوِّح...، أنور وجدي وفيروز وأغنياتهما المرحة.... معانا ريال.. دا

t.me/qurssan

مبلغ عال وموش بطّال، فيروز أو ياسمين، كنا نطلق عليها الاسمين، وأغنية عَ البسكليته.. عَ البسكليته.. نلفوا يابا.. في أي حتة، تحية كاريوكا وسليمان بك نجيب، حسين رياض وعبد الوارث عسر، وملك الترسو فريد شوقي ومحمود المليجي. عشنا معهم جميعا في خيالاتنا، ممثلين أجانب وعربا، كررنا جملهم الحوارية المشهورة وتمثلناهم في خيالاتنا.

قبل التلفزيون كان ارتباطنا بالراديو والبرامج الإذاعية طوال اليوم في البيت. كنا ننتظر مسلسل الساعة الخامسة والربع بعد الظهر كما ينتظر الناس مسلسلات التلفزيون الآن، لكن كان عندنا مسلسل وحيد، الساعة الخامسة والربع، استمعنا فيه إلى مسلسلات سمارة والقط الأسود والعسل المر. كنا سعداء جدًّا بما في أيدينا رغم قلته، هل يعني هذا أن الإنسان يمكن أن يكون سعيدا دون حُمَّى الوفرة والكثرة والبذخ؟... دون ثلاثين مسلسلا في شهر رمضان مع الشكوى من قلة عدد المسلسلات في ذلك العام؟... هذا يحيلنا إلى السؤال الصعب دائما عن ماهية السعادة، ذلك السؤال الذي لا نجد الوقت للتفكير فيه أو حتى تذكره. نلهث سعيا كأن السعي هو الغاية واللهاث هو الوسيلة الوحيدة، وإلا...، وإلا ماذا؟... ندور في دوامات الحياة فاقدي الرؤى والاتزان وكأننا مصابون بدوار أزلي.

الثانوية العامة، مشكلة كل بيت، لكنها لم تكن بالضراوة التي آلت إليها بعد ذلك، عانينا منها مع مُفتتح الستينات، عندما تسربت الامتحانات عن طريق إذاعة إسرائيل، أعادت الحكومة

الامتحانات ومر كل بيت له ابن أو ابنة في الثانوية العامة بأزمة فظيعة. عانينا نحن مع أخي الأكبر ميشيل، لم يكن تلميذا متفوقا من الأساس. وكان متعثرا في دراسته، أعاد الامتحانات ولم يحصل على مجموع يؤهله لدخول الجامعة، وهو أصلا لم يكن مقبلا على الدراسة، عمل بعدها بالثانوية العامة عن طريق واسطة أحد المعارف الذين تدخلوا لتعيينه في شركة عمر أفندي، موظفا بالثانوية العامة حتى تم تجنيده بالقوات المسلحة وإرساله إلى اليمن مع القوات التي ذهبت للمشاركة في حرب اليمن بعد قيام ثورتها ضد الإمام البدر.

فترة الستينيات لعبت بمشاعر جيلنا صعودا وهبوطا بتواتر عنيف. بناء السد العالي في بدايتها وشعور الزهو الوطني الذي أضيف للزهو القومي بالوحدة مع سوريا. القوانين الاشتراكية ومعانى المساواة والعدالة الاجتماعية التي كنا قد بدأنا في التعلق بها مع بدايات قراءاتنا الثقافية وتكون معارفنا الأساسية. ثم فجأة الانفصال وتداعي أمل نواة الوحدة العربية التي غرسها عبد الناصر في قلوبنا منذ منتصف الخمسينيات. الخطة الخمسية الأولى والجدل المحتدم حول التصنيع الثقيل، وغناء عبد الحليم له، للأفراح والرفاهية... حنمد طريق عَ النيل، اسمه في الاشتراكية... التصنيع التقيل...، ثم حرب اليمن ومشاعرها المتضاربة، زهو قومي... قلق وطني... حيرة وتيه... آلاف الجنود المصريين يُبعث بهم إلى اليمن تباعا، عانت عائلتنا في حرب اليمن معاناة خاصة أليمة بتجنيد أخي ميشيل وخدمته في اليمن، عاد بعد أن أصيب

t.me/qurssan

إصابات جسيمة في العمليات العسكرية، أجريت له العديد من العمليات الجراحية وأعيد إلى أرض الوطن ليستكمل علاجه في المستشفيات العسكرية ويُسَرَّح من الجيش بعدها، ما حكاه لنا بعد ذلك من أهوال لاقاها الجنود المصريون هناك من كل صوب حولهم، لا يعرفون من يحاربون بالضبط، من مع من؟... ومن ضد من؟... مقاتلون يخرجون من كهوف الجبال وغارات جوية متوالية... صعوبة وصول الإمدادات لهم والضحايا في كل مكان. لم يسترد صحته بعدها وظل عليلا حتى وفاته إثر إصابته بالحمى الشوكية في صيف ١٩٦٥ وعدم قدرة جسمه على المقاومة لضعف صحته. صدمة وفاته المفاجئة لم تبرأ منها الأسرة لسنوات. ثم كانت خاتمة المطاف بنكسة يونيو ١٩٦٧. بنهاية الستينيات كان جيلنا قد شاب من هول الأحداث وتتابعها الطاغي العنيف. خرج جيلنا من دراسته الجامعية ليدخل إلى الجيش في مدة تجنيد مفتوحة مع الاتجاه إلى تجنيد المؤهلات العليا لرفع كفاءة القوات المسلحة. لا يعرف متى سيتم فترة تجنيده؟... متى سيبدأ حياته؟... متى سيتزوج فتاته التي يحبها منذ الصغر أو خلال دراسته الجامعية؟... ليس من حقه المعرفة. البلد في أزمة. لا يوجد من يعرف مدتها أو مداها. جيل فقد المستقبل وهو حزين لما آلت إليها آماله وأحلام صباه وشبابه. وانتهت حقبة الستينيات بوفاة عبد الناصر في بداية السبعينيات المبكرة، ومن لم يلحقه التجنيد، خرج من البلاد هجرة أو بحثا عن العمل في البلاد العربية.

دخلنا إلى عالم المراهقة مع بداية حقبة الستينيات، بداية

المراهقة مع بدايات المعرفة والتفتح والتعلم بالقراءة والفنون، وأيضًا التفكير في موضوعات أكثر جسارة من اهتمامات الطفولة. العلاقة بالدين والمعتقدات والإيمان عموما. علاقتي بالكنيسة كانت علاقة بداية طفولية احتفالية، مصاحبة الكبار في الذهاب إلى الكنيسة أحيانا قليلة في أيام الصلاة أو التناول، وكان يكتنفها الملل من طول الصلاة وعدم الحماسة لها. لحظة التناول كان لها وقع ألطف، لماذا؟... هل للتشبه بالكبار؟... هل لطعم الأباركة اللذيذ؟.. هل لكسر الجوع المفروض منذ الاستيقاظ من النوم والذي يصعب على الأطفال الصبر عليه؟...لا أدري بالضبط، لكنها سعادة غامرة لحظة انتهاء التناول وانتظار الدقائق القليلة المتبقية للمغادرة والعودة للبيت للعب والانطلاق مرة أخرى. أيضًا الكنيسة ليلة العيد ولمّة الأطفال والشباب في حوش الكنيسة والبهجة السارية في المكان. أعقب ذلك التردد على مدارس الأحد بدفع من تيته مريم. ترددت عليها قليلا ثم سرعان ما انقطعت. لم تجذب طفولتي واهتماماتي وأشعرتني بنوع من الملل والرتابة. هذه هي كل علاقتي بالكنيسة ومؤسساتها. لم يكن منزلنا متزمتا دينيا أومواظبا على أداء الطقوس سوى صيام أسبوعين قبل كل عيد مع صيام العذراء الذي يكنون له محبة غريبة.

وبدأ العقل في التأفف. صلوات القداس الطويلة. القيام والقعود بدون فهمي للسبب. أجزاء الصلاة باللغة القبطية التي لا يفهمها أحد. ملابس القساوسة أثناء القداس والاحتفالات الكنسية وفخامتها، ملابس بيضاء عكس الأردية السوداء الكئيبة

t.me/qurssan

التي يرتدونها في الخارج، موشاة بالخيوط الذهبية اللون، تاج فخم على رءوس الكهنة، مرصع بالأحجار الملونة. في طفولتي المبكرة تمنيت أن أصبح قسيسا عندما أكبر لانبهاري بالملبس الفخم داخل الكنيسة وقت القداس. كنت أنفر أيضًا من تقبيل يد القسيس. أشعرتني بالدونية والمهانة. بدأت التساؤلات في التتابع إلى ذهني، كيف تتناسب فخامة الثياب مع بساطة المسيح وكرهه للفخامة والأغنياء. ثم لماذا لا تتم الصلاة كما عَلَّمَ المسيح، إذا أردتم الصلاة فقولوا فقط... يا أبانا الذي في السموات....، هل كان يرضى المسيح عن هذه الفخامة في الملابس والديكورات داخل الكنائس؟... ثم لماذا يُقَبّلون يد القسيس وقد كان المسيح متواضعا جدًّا، حتى أنه غسل أرجل تلاميذه؟... تساؤلات عامة بسيطة بدأت تتوارد إلى ذهني وتؤرقني. كنت أحب سيرة المسيح جدًّا وأعجب ببساطته وصرامته في الحق. مع تزايد قراءاتي وبدايات تكون وعيي السياسي، كنت أقدّر اتجاهات المسيح الإنسانية الاشتراكية الروح، أعجبني جدًّا رأيه في الأغنياء وصعوبة معاينتهم ملكوت السماوات، وصَعّبها عليهم بتشبيه دخولهم بمرور جمل من خرم إبرة، كان مكانه دائما بين الفقراء والمساكين، ينادي كل المُتعَبين دائما... تعالوا إليَّ يا جميع المُتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم...، كانت تلك الهواجس هي بدايات التأمل والمراجعة عندي لكل ما يتعلق بالعقيدة والإيمان، ثم تطورت شيئا فشيئا لتناقش كل شيء بلا تحفظ أو محاذير.

تطور الأمر شيئا فشيئا مع تطور الوعي من الاعتراض على

الشكليات إلى معاني الحياة أولا ثم إلى المعاني الكلية بعد ذلك. تأملت حولي فراعني حجم البؤس الذي يطحن بعض البشر. لماذا هذا التباين الرهيب في المقادير والمصائر؟... طبعا التساوي ليس من طبيعة الحياة والحركة، لكن... أتصلُ الفروق إلى هذا الحد الظالم الرهيب؟... لماذا كل هذا الفقر والاحتياج عند البعض؟... ولماذا تلك الوفرة الباذخة والسفه في الإنفاق عند البعض الآخر؟... لماذا كل تلك الحروب التي أفنت الملايين من البشر؟... لأي غاية؟... تنامت هذه الأفكار مع الاتجاه إلى الفكر الاشتراكي في السياسة بفضل القراءات المتزايدة في محاولة للبحث عن معنى لكل هذا الاختلاط والبؤس. عشنا بعدها أحداث حرب فيتنام وتوالت الأنباء عن حجم الدمار والضحايا الرهيبين بفعل الغارات الجوية المدمرة، التي استمرت لسنوات واستفزت اعتراضات العالم كله ومعهم أصحاب الضمائر من الشعب الأمريكي. أمريكا التي بدأت تاريخها حديثا في سجل التاريخ بإبادة أهل البلاد الأصليين من الهنود الحمر وواصلت نموها وازدهارها بسحق الملونين من كافة أنحاء الأرض وتأصيل معاني التفرقة العنصرية، ثم أبدعت بافتتاح العصر الذري والنووي بفاجعتي هيروشيما ونجازاكي، لتُفني من لا يروق لها من بني البشر وتبني الحلم الأمريكي، ها هي تواصل كراماتها بإبادة شعب آخر وحيوات أخرى وستواصل تلك المهمة بإصرار وعناد حتى نهاية القرن لتدخل بهذا التراث المثقل بالقسوة إلى القرن التالي. دوامات من المعاناة والأفكار ظلت لسنوات تتصارع داخلي، دفعتني في لحظات منها لمحاولة كتابة

t.me/qurssan

الشعر، حاولت الكتابة عن الفقر، كتبت عن الخادمات في عائلتنا وأحوالهن، كتابات ساذجة مباشرة طبعا، كتبت عن حرب فيتنام بمبالغات مدفوعة بالبراءة والألم. كانت تلك بدايات للاتجاه نحو الفنون عموما، انسحبت محاولات كتابة الشعر البدائية ليبقى حب الشعر، ومعه المسرح الذي بدأ شعريا هو أيضًا في الدراما اليونانية الكلاسيكية، فأقبلت بنهم على قراءة أساطينها، إسخيلوس وسوفوكليس ويوربيدس والعظيم أريستوفان، ومرورا بكورني وراسين وموليير الذي عشقت مسرحه ومعهم شيكسبير وصولا إلى إليوت وعبد الرحمن الشرقاوي والعظيم صلاح عبد الصبور.

فترة المراهقة كانت فترة صراع بين الموروث والفكر المكتسب بالمعرفة والاطلاع، فترة ثورة على الموروث الذي لم يُناقَش ولا يُناقَش عند عامة الناس. ثورة على عدم المساواة بين البشر، على المعتقد، على الإيمان المُلَقن لنا منذ الميلاد، على الدين الذي نرثه عن آبائنا بلا مناقشة أو حرية، دينك دين أهلك، يجب أن تؤمن به وتدافع عنه، بل وتتعصب له أحيانا، والآخر على نفس الحال، فننمو مُختلِفَين بالوراثة، بلا رأي أو تفكر أو تعقيب، وإلا نقع تحت طائلة القانون كمزدرين للأديان. هذا جانب الثورة على الموروث، لكن صاحَبَه جانب مُرهِقٌ آخر، الخوف، الخوف من الخروج على المألوف، الخوف من الأهل، من المجتمع، وقبل ذلك جميعا من الله. هل تجرؤ حقا على أن تفكر بعقلية نقدية بلا محاذير؟... وهَب أنك كنت مخطئا؟... أيكون مآلك جهنم بما وقر في ذهنك عنها وعن عذاباتها المتجددة أبديا؟... صراع هادر بين العقل والوجدان،

استمر يؤرق العقل والروح جميعا بلا شاطئ أمان، حتى حط على تخوم اللا أدرية، فماذا تفعل عندما لا تستطيع أن تصل بعقلك المجرد إلى يقين ما؟...

في المرحلة الثانوية كنت تلميذا متفوقا، قررت المدرسة تخصيص فصل للمتفوقين في منتصف السنة الأولى ونقلت إليه. هيئة التدريس كانت متميزة جدًّا ونكِن لها احتراما شديدا مقترنا بالمحبة. ناظر المدرسة، الأستاذ محمد رشاد عبد المجيد، ولفخر طلبة المدرسة كان اسمه ضمن المؤلفين الأربعة المذكورين على كتب الرياضيات. عندنا كان رشاد بك، أصداء من بقايا عصر الملكية كانت مازالت مألوفة للناس وقتها كنوع من الاحترام بعد إلغاء الألقاب. رجل مهيب هادئ ومُهندَم، في الحقيقة كان الهندام صفة لمعظم المدرسين، يرتدون البدلة الكاملة، الصديري، أشيك أربطة العنق، سمعنا أيامها عن الماركات الأجنبية المتلألئة كالأرجانس، عندما يقتربون منك تتنسم عبق العطر المميز لكل أستاذ على حدة. حاجة أُبَّهة فعلا. وكيل المدرسة الأستاذ كيرلس، رجل ربعة قصير أحمر الوجه، كنا نخشاه ولا أذكر لِمَ. نُقلنا في منتصف السنة الأولى الثانوية إلى فصل المتفوقين، فصل أولى أول. مازال الأستاذ رشدي مدرس اللغة الإنجليزية في مخيلتي. رجل هادئ، قرر أن يساهم الطلبة كلٌ بمبلغ خمسة قروش، بالإضافة إلى مبلغ أكبر ساهم هو به، وذلك لعمل مكتبة بالفصل للاستعارة. كلف نجارا بعمل المكتبة بالمبلغ المتجمع، تم تعليق المكتبة على الحائط في أول الفصل بجوار الباب، مازلت أذكر شكلها، طلب منا أن نُحضِر

t.me/qurssan

من البيت الروايات الإنجليزية المُبسَّطة والمختصرة التي تخص الإخوة الأكبر منا والأهل، كل حسب ظروفه. تجمع عدد لا بأس به من الروايات الإنجليزية. طلب من كل طالب أن يستعير رواية كل شهر على ما أذكر، يقرأها بالبيت، إلى جانب المقرر، ثم يقوم بتقديمها لزملائه في الفصل في حصة أسبوعية خصصها لذلك الغرض. كان يريد تقوية لغتنا الإنجليزية وتعويدنا على القراءة الخارجية. أذكر إنني قرأت رواية (سجين زندا) مختصرة ورواية (جين إير) لشارلوت برونتي. كان هذا في السنة الأولى بمدرسة التوفيقية الثانوية. لا أذكر من مدرسي السنة الأولى سوى الأستاذ رشدي الذي أحببناه وتبارينا في إرضائه بقراءة أكبر عدد من الكتب. رجل هادئ ودود، صوته خفيض وخجول.

في صيف ذلك العام بدأت التدخين، ذهبنا، أنا وأبي، إلى المندرة لبضعة أيام في شهر مايو أو يونيو، لا أتذكر بالضبط، وذلك بعد نهاية الامتحانات، لقضاء إجازة سريعة وحجز شقة للمصيف في شهر سبتمبر، كنا نسكن عادة في بيت أسرة نادر صديقي، ومن هنا جاءت المعرفة. كان أبي صديقا لأبيه، الاثنان يغويان الطاولة ويقضيان معظم النهارات في لعبها على البحر. قضينا بضعة أيام مع نادر وأبيه. نادر كان يكبرني بعام واحد وسبقني إلى التدخين. كنا بمفردنا والوالدان يلعبان الطاولة بانهماك شديد... العب يا خيبان... وريني شطارتك... وهكذا طوال فترة اللعب، تَسَحَّبنا أنا ونادر ليدخن سيجارة، أحببت أن أجرب، أخذت منه سيجارة بلمونت وبدأت في تدخينها، شرح لي نادر كيف أدخن وأبلع

النَّفَس، بلعت النفس فدخلت في نوبة سعال شديدة وشعرت بدوار فظيع، دمعت عيناي ودارت الدنيا بي. لم أرتدع، التقطت أنفاسي وواصلت التجربة وأنا أعاني، لم يجذبني التدخين، لكنني أصررت على تكرار التجربة عندما طمأنني نادر أن هذه المتاعب تكون في البداية فقط وبعدها سأستمتع بالتدخين، وقد كان. عدت من المندرة مدخنا لم يكمل الرابعة عشرة من عمره.

بدأت السنة الثانية الثانوية وأنا مدخن منتظم إلى حد ما في حدود الميزانية المتواضعة لمصروف الجيب الذي يتبخر منذ بداية الشهر. شراء السجاير كان فرطا، ثلاث سجاير، خمس سجاير، من النادر أن تشتري علبة سجاير كاملة في هذه الظروف. تخميس السجاير كان أساسيا في هذه المرحلة، أي شرب السيجارة شركةً بين أكثر من مدخن، تشعل السيجارة وتلتهم منها نفسين أو ثلاثة بشراهة ثم تمررها لآخر حتى تخوم الفلتر. طبعا مشاركة تيته في سجائرها ومشاركتها لي في سجائري أمر عادي، أو التخميس معا.

بدأ الإرسال التلفزيوني في مصر عام ١٩٦٠، بدأ قبل أن تنتهي عملية بناء مبنى ماسبيرو على النيل. كانت عمليات الإنتاج تتم بهمة ونشاط وسط مواد البناء من رمل وزلط وشكاير أسمنت بين الشدات الخشبية للأسقف وعدة البناء. في تلك الفترة كان بناء السد العالي على قدم وساق أيضًا مع العديد من المشروعات الصناعية والزراعية، كما كان الجدل محتدما بين السياسيين والشباب حول أولويات البناء والصناعة الثقيلة أم الصناعات الخفيفة عندما بدأ العمل في مشروع مصانع الحديد والصلب ومصنع الكوك بالتبين

t.me/qurssan

جنوب حلوان. فترة عامرة بالنشاط والحيوية والأمل والحماسة والغناء للثورة المصرية وجمال عبد الناصر والوحدة العربية والتصنيع الثقيل، كان شعور الزهو والثقة في المستقبل هو السائد بين جيلنا في تلك المرحلة المبكرة من حياتنا. شعور بالأمان، نما وتعملق ثم هوى بنا فجأة مع هزيمة ١٩٦٧ التي دللها الرئيس عبد الناصر بإطلاق لفظ النكسة عليها.

ومرت محنة الثانوية العامة على خير بمجموع مرتفع يسمح بالدخول في أي كلية في توزيعات مكتب التنسيق العتيد. كان النزوع العام للنشء في ذلك الوقت بين كليات الطب والهندسة، ولما كنت متفوقا ومغرما بعلوم الرياضيات، الهندسة والميكانيكا والجبر وحساب المثلثات، فكان الاختيار مع التيار السائد، كلية الهندسة جامعة القاهرة. فحتى تلك المرحلة من العمر لم يكن هناك رابط بين الدراسة والهواية، أو المهنة التي سيمتهنها الشاب في المستقبل وما يحب أن يعمله وينفق فيه عمره وإنجاز حياته. وبدأت دراستي للهندسة واكتشاف المصيبة التي أوقعت نفسي فيها بدون انتباه أو وعي. أدرس منظومة من علوم الرياضيات والهندسة، فقد أدركت وجود علوم للرياضة البحتة، وعلوم للرياضة التطبيقية التي يمكن إدراج الدراسات الهندسية تحتها، وأن ما كنت أهواه في دراستي الثانوية هو علوم الرياضيات البحتة. هذا أول ملمح أخذ في التوضح وبدأت في استيعابه بعد فوات الأوان. الملمح الأهم، أن نزوعي الوجداني كان ناحية العلوم الإنسانية والفنون، وبخاصة فن المسرح. انجلت هذه

الحقائق بعد مرور سنتين في كلية هندسة القاهرة، فكان الوقت قد فات، أو هكذا بدا لي.

صدمة العمر أول يوم في الكلية، مولد وصاحبه غايب بالنسبة لطالب ثانوي متفوق قادم من مدرسة التوفيقية الثانوية. إحساس بالضياع رهيب.. أين أذهب؟.. ماذا أفعل بالضبط؟.. أين الفصل الذي سأدرس فيه؟.. تساؤلات عشوائية للطلبة.. روح انقل الجدول الأول.. سألت عن مكان الجداول ودلني الطلبة.. يا نهار أسود!.. ما كل هذا الازدحام حول الجداول.. الطلبة ينقلون الجداول المعلقة للكلية كلها بجميع الأقسام في إطارات خشبية بواجهات زجاجية على الحائط.. كتلة بشرية بالمئات.. وقفت حائرا ثم تقدمت ببطء بين المحشورين أمام الجداول.. وصلت بعد لأي فوجدت طلاسم غير قابلة للفهم.. ماذا أنقل بالضبط؟.. وأين جدولي أنا؟.. السنة الإعدادية بكلية الهندسة.. سألت بتردد وحرج.. أحد الطلبة الأقدم في الكلية أشار لي على جداول السنة الإعدادية.. يا نهار مطيّن!.. جدول شديد التعقيد.. لم أفهم شيئا ولا أعرف حتى كيف أنسخه.. انسحبت وتراجعت محبطا مهزوما.. وقفت حزينا ضائعا. مر الوقت بطيئا ثم لمحت ميشيل.. جارنا بالسنة الأولى. يسبقني بعام. كنت قد زرته بالمنزل قبل بداية العام الدراسي للاستفسار عن الدراسة بكلية الهندسة. أقبل نحوي مبتسما وهو يتساءل.. هيه.. نقلت جدولك؟... قلت له بانكسار.. لم أفهم منه شيئا.. ضحك وجذبني من يدي قائلا.. تعالَ معي أنقله لك.. بحث عن اسمي في جداول الفصول التي يطلقون عليها «سكاشن»، وأصلها

الكلمة الإنجليزية (section)، قال لي نبيل حرف النون ستكون في المجموعة الرابعة، السنة الإعددية مقسمة إلى أربع مجموعات، وأنا في سكشن ٣٤ من أصل ٣٦ سكشن. المجموعة حوالي ٥٠٠ طالب، يعني السنة الإعدادية بها ٢٠٠٠ طالب، تعجبت وسألت ميشيل الذي يسبقني بسنة، وأنتم كنتم بهذا العدد؟.. نفى ضاحكا وقال إنهم كانوا خمسمائة طالب فقط. كنا أول سنة دراسية يتضخم فيها عدد الطلبة المقبولين بالجامعات ويبدأ فيها مستوى التعليم الجامعي في التدهور بشدة، فالطالب لا يرى السبورة ولا يسمع المحاضر من فرط الزحام. أراد الرئيس عبد الناصر زيادة عدد الطلبة المقبولين بالجامعات تحقيقا لمجانية التعليم على أصولها، لم يكن عنده أماكن كافية بالجامعات ولا ميزانيات لبناء فصول تستوعب المقبولين، لم تعطله هذه العقبات فقرر أن يقبل الطلبة المتقدمين بأي أعداد ويحشرهم في الأماكن المتاحة، يعني بمبدأ لقمة هنية تكفّي مِيّة، أو حصيرة الصيف واسعة.

أخذ يشرح لي الجدول وأنا أتابعه بتركيز، الخانات الطولية للمحاضرات، عنوان الموضوع ومكان المحاضرة. الخانات العرضية الصغيرة للسكاشن، عنوان السكشن ومكانه. تعاونا في نقل الجدول ثم أخذني إلى جولة تفقدية في الكلية ليعرفني على معالمها، أماكن المدرجات وأسمائها والمباني المختلفة التي سنأخذ بها السكاشن. نظر إلى الجدول وقال لي، أنت عندك سكشن رسم هندسي الآن، اطلع بسرعة، أشار لي إلى المبنى فودعته وتوجهت متثاقلا إلى الدور العلوي للمبنى حيث الصالة

التي سنأخذ فيها دروس الرسم الهندسي. صالة رحبة مفروشة بطاولات عالية وطويلة يقف أمامها الطلبة في مواجهة الأستاذ الواقف ناحية السبورات، عدد من السبورات المتجاورة في صفين، يعلو أحدهما الآخر، ست أو ثماني سبورات على صفين، لا أتذكر العدد بالضبط. دخلت مترددا والأستاذ يسخر من قدومي متأخرا بنبرة لطيفة حانية. أستاذ كبير في السن، في الغالب تعدى الخمسين أو الستين من عمره، قصير وربعة، أشيب الشعر المصفف بعناية بفرق في ثلث رأسه. عرفت بعدها أنه أسطورة الهندسة الميكانيكية، الدكتور علي حسن ـ رحمه الله ـ قمة الجدية والانضباط والشدة والحنان والطيبة، خلطة عجيبة محببة، يمتلك حسا ساخرا ولا يكف عن مشاكسة الطلبة. أرشدنا إلى الأدوات المطلوبة ومن أين نحصل عليها، لوحة رسم هندسي خشبية، بحامل إذا كان متيسرا شراؤه أو بدونه وتوضع على أي طاولة، مسطرة حرف T، مثلثات كبيرة وأقلام رصاص وأنواعها والورق الذي سنرسم عليه ونوعه والمحلات التي سنشتري منها ما نريد. بعدها بدأ في شرح المبادئ الأولية للمادة، كان الوقت المخصص لدرس الرسم الهندسي طويلا، حصتان متتابعتان وما بينهما من استراحة. أنهينا الدرس في حوالي الرابعة بعد الظهر واستعددنا لحضور محاضرة الهندسة الوصفية في الخامسة مساء ويليها محاضرة الكهرباء. خرجت متثاقلا من الحصة وأشعلت سيجارة، توجهت إلى الكافيتريا حيث شعرت بالجوع، قلت آكل ساندوتش وأجلس للراحة حتى موعد المحاضرة.

t.me/qurssan

وكأنني في معهد علمي للطلاسم، أساتذة يلقون محاضراتهم متدفقين في سكب المعلومات الغامضة على أكثر من خمسمائة طالب مذهول في مدرج ضخم مزدحم جدًّا لا يسمع فيه ما يُقال سوى صفوف أمامية معدودة لعشرات من هؤلاء الطلبة الضائعين في هذا العالم الجديد، الأساتذة يواصلون والطلبة ذاهلون دون استيعاب أو قدرة على المتابعة أو التسجيل لما يستمعون. ينظرون ببلاهة إلى السبورات المتعددة وهي تمتلئ وتفرغ وهم يمسكون بأقلامهم ويفتحون كراساتهم دون أن ينجحوا في تدوين شيء مما يسمعون ويشاهدون. شعور ثقيل بعجز فادح وعبثية مستبدة.

خرجت منهكا من الكلية بعد التاسعة مساء عقب انتهاء المحاضرات، مشيت متثاقلا أجرجر أقدامي حتى بلغت محطة الأتوبيسات، انتظرت أتوبيس رقم ١٢٤ حتى وصل وصعدت إليه وسط زحام الطلبة، وقفت بين الواقفين وأنا أحلم بكرسي أتهاوي عليه من تعب وإحباط اليوم الأول لي في الجامعة. حلم لم يتحقق ووصلت إلى البيت أخيرا لأتلقى تساؤلات العائلة عن يومي الأول بالجامعة، أوجزت اليوم لهم بنفس مسدودة وطلبت تحضير الطعام لي خلال استبدال ملابسي، أكلت بفتور ونمت.

استيقظت متثاقلا في اليوم التالي ونزعت نفسي من الفراش بالعافية، استعددت للنزول للكلية بسرعة فقد كان عندنا المحاضرة الأولى، نزلت ووقفت على محطة الأوتوبيسات، مرت أتوبيسات ١٢٤، ١٢٤ بشرطة مكدسين بالركاب حتى البروز من السلالم، كيف سأركب؟.. عرفت بعدها أن الحل الأمثل هو النزول مبكرا

واللف بالأتوبيس حتى موقف الأتوبيسات، ١٢٤ شرطة بعد دوران شبرا بمحطة و١٢٤ في المظلات. دوخيني يا ليمونة حتى أستطيع الحصول على مقعد للجلوس حتى جامعة القاهرة في الجيزة، أو حتى أستطيع أن أجد مكانا للوقوف داخل الأتوبيس وليس على السلم. كانت البهجة الوحيدة في هذه الظروف هي حظ سعيد بزميلة جامعية جميلة تشاركنا في هذا الكفاح، كانت تركب معنا بعد ذلك زميلة قمر، سوزان، قوام ممشوق وشعر أسود فاحم طويل تتركه مسترسلا ينسدل على ظهرها ليصل إلى ما بعد خصرها، تسكن أيضًا في شارع جزيرة بدران، لا أعرفها شخصيا وليست في نفس العام الدراسي، لكني لا أستطيع أن أصف لك سعادتي بوجودها بين ركاب الأتوبيس، راقبت مواعيدها الصباحية واجتهدت أن أنزل في نفس الموعد، مجرد مشاهدتها ومرافقتها في رحلة الأتوبيس كانت تكفيني، ومرت سنوات الدراسة دون أن أكلمها أو حتى أتعرف عليها. في تلك المرحلة العمرية وظروف عدم الاختلاط الحر نسبيا والكبت الجنسي لشباب مراهق، كان مجرد رؤية فتاة جميلة يفرحنا ويبعث البهجة في نفوسنا العطشى، وجودها في نفس المجال يشبعنا على ما قُسِم، حتى على البُعد.

كانت الحصة الأولى لليوم التالي في الكلية هي لمادة الرياضيات، الدكتور نجيب باخوم، سمعنا عنه قبل بداية تعرفنا عليه في المحاضرات، شخصية صارمة وسمعة علمية ممتازة، سرت الأقاويل أيامها أن السيدة فتحية التي تزوجها الزعيم الغاني كوامي نكروما كانت

t.me/qurssan

أخته، عرفت بعدها أنها ابنة عمه وليست أخته، كانت مصر أيامها قِبلة لكل ثوار وزعماء القارة الأفريقية في مرحلة مد التحرر الوطني التي اجتاحت أفريقيا بعد حرب سنة ١٩٥٦ وبدعم من الرئيس جمال عبد الناصر، تردد عليها كوامي نكروما وأحمد سيكوتوري وباتريس لومومبا والعديد من رؤساء الدول المستقلة حديثا.

خرجت من حصة الرياضيات إلى حصة الميكانيكا للدكتور صلاح خشبة، رجل نحيف منكوش الشعر يعطيك انطباعا بالعلماء السارحين في ملكوتهم، يتدفق بالشرح وهو رائحا جائيا ويداه في جيوب بنطلونه أو مشبّكتان خلف ظهره دون أن ينظر إلينا تقريبا، رجل مسالم أحببناه ولم نفهم منه إلا شيئا واحدا هو أن عدد المعادلات يجب أن تساوي عدد المجاهيل حتى نتمكن من حل المسألة. عظيم كيف نصل إلى المعادلات؟... أو كيف نحدد المجاهيل؟.. عندما كان يستدير مبتعدا عن الجانب الذي نجلس فيه في المدرج وينطلق في مسيرته إلى الجانب الآخر كنا نتوقف عن إمكانية الاستماع إليه أو متابعته فالصوت يكون عندئذ غير واضح أو مسموع. خرجت من محاضرات اليوم الثاني وأنا شبه فاقد الأمل في المستقبل والهندسة وقد غامت الدنيا في وجهي ولعنت الدنيا واليوم الأسود الذي دخلت فيه كلية الهندسة. توجهت إلى الكافيتيريا جوعان وقرفان. اشتريت ساندوتشا لا أذكر ماذا كان وزجاجة بيبسي كولا وجلست إلى إحدى الطاولات مهموما أقضم الساندوتش بذهول وأُبلّع بالبيبسي بدون استمتاع.

طيب وبعدين؟... ما العمل في هذه المتاهة؟.. تذكرت فجأة

المسرح. عشقي وهوايتي. بَلا هندسة بَلا زفت.. سأبحث عن فرقة المسرح وأنضم إليها. كان المسرح دائما هو المعادل الحنون لسخافات الدراسة والحياة منذ أيام مدرسة التوفيقية... ياه... ألم يكن من الأجدى أن أدخل معهد المسرح؟... لكني أيضًا أحببت الرياضيات... وهل تقارنها بمحبتك للمسرح؟... لا طبعا... المسرح حاجة تانية... حياة... منذ تَجَمُّعِنا لقراءة الترابيزة... ثم بروفات الخشبة ولحظاتنا الحلوة معا... أيام تمضي ونحن في عالم آخر... ثم البروفة جنرال... ويوم العرض... فاكر أول مرة اشتركنا فيها في مسابقة الفرق المسرحية للمدارس الثانوية... قبل الدخول إلى المسرح غامت الدنيا في عيني وشعرت بالتردد... كيف سأدخل إلى الجمهور؟.. البروفات غير العرض على الجمهور... خفت وترددت وأنا بطل المسرحية... الكابتن أدولف... كابتن سلاح الفرسان في مسرحية ستراندبرج.. الأب... قلبي كاد ينخلع إلى أن وجدت نفسي مندفعا إلى خشبة المسرح... وسمعت الصيحة الحازمة... يالّا... لاحظ الأستاذ محمود مدرس التاريخ والمشرف على فريق المسرح ترددي فدفعني إلى خشبة المسرح... وإلى عالم المسرح... كأن دفعة اليد هذه هي الانطلاقة الأولى لي في ذلك العالم السحرى، وجودي على خشبة المسرح كان له فعل السحر فانطلقت في تقمص الدور.. كان الأستاذ محمود قد أجرى تعديلا بسيطا بدخول البطل بعد رفع الستار بدلا من جلوسه على المسرح منذ البداية... مازلت أتذكر تلك الدفعة والصيحة... انفعلت بالدور يومها وأجدت... تأثرت كثيرا بشخصية الكابتن أدولف

t.me/qurssan

وحفظت الدور كله عن ظهر قلب... لا... لست أنا أبا طفلتك... هذه جريمة مدفونة بدأت تفوح روائحها السامة... ويالها من جريمة... لقد اقتَنَيتِني عبدا لكِ ولأمكِ ولطفلتك... ضحيتُ بالمستقبل وبالترقية... تحملت العذاب والأرق والقلق لأجلك حتى شاب شعري... لقد حملت هذا العبء كله دون شكوى... لأنني.. لأنني ظننت نفسي أبا الطفلة...إن هذا أسوأ أنواع السرقة والعبودية والوحشية... ماذا تستطيعين أن تعطيني نظير ذلك ؟... وتقولين إنني جننت!... إن هذا هو أملك... وما سعيتِ إليه بنفس قاسية شريرة عندما بذرت الشك في نفسي وروحي بدم بارد حتى تصلي إلى غايتك وتتحكمي في مصير ابنتنا... لا... هي الأن ابنتك أنت... أنت فقط... ياه... مازلت أتذكر الحوار بحذافيره... يومها فزنا بميدالية ذهبية في المسابقة... ذكريات حلوة لحياة هانئة... يجب أن أبحث عن فرقة المسرح بالكلية فورا... هي التي ستصبّرني على هذه المصيبة التي وضعت نفسي فيها...

سيسير المسرح مع الدراسة بعد ذلك، إلى حين، الدراسة عذاب والمسرح حضن دافئ، الاستثناء الوحيد من عذاب الدراسة كانت محاضرة هندسة الإنتاج للأستاذ حسن فهمي. أكثر أستاذ جامعي شعرت بأنني استفدت منه في دراستي الجامعية. سمعنا عنه قبل أن يدخل لنا أول محاضرة. أستاذ هندسة الإنتاج غير حاصل على درجة الدكتوراة، لكنه يمنحها لطلبة الدراسات العليا.... يا سلام!.. أستاذ متمكن في مادته... له كتب علمية اشتريناها وما لفت نظرنا أنها كانت بدون غلاف خارجي... أبو راقصة فرقة رضا

للفنون الشعبية فريدة فهمي... ياسلام!... اختها أيضًا تعمل في الفرقة مصممة أزياء... هو أحد المؤسسين الرئيسيين لفرقة رضا... متزوج من إنجليزية تزوجها عندما كان يدرس في إنجلترا... طيب لماذا لم يحصل على الدكتوراة؟... لا توجد إجابة شافية... ودخل الرجل أول محاضرة لنا في إعدادي هندسة بمدرج الساوي... رجل نشيط، يسير بحماسة وسرعة، قصير القامة نسبيا، شخصية جذابة... بل شديدة الجاذبية، بدأ بتوجيهنا لكيفية كتابة المحاضرة في الجامعة، قال لنا إننا سنقسم كشكول المحاضرات إلى جزأين، الصفحة اليسرى والصفحة اليمنى. سنكتب في إحدى الصفحتين كل ما نريد أن نكتبه مما يقوله الأستاذ ونراه نافعا، نكتب بدون ترتيب وبسرعة لنلاحق الأستاذ، نكتب بالقلم الحبر أو بالقلم الجاف أو بالقلم الرصاص حسب ما نرى ونستريح، نخلط الكتابة بين كل الأقلام التي بحوزتنا، حبر، جاف، رصاص، ألوان، المهم أن نكتب بوضوح ما نفهمه بعد ذلك عندما نراجعة بالمنزل، نشخبط ونشطب ونرسم ما نراه من أشكال توضيحية على كيفنا في الصفحة التي نكتب فيها، ثم عندما نعود إلى المنزل لمراجعة المحاضرة، نبدأ في ترتيب وتنسيق وتحرير المعلومات في الصفحة المقابلة لها. نحذف ما نراه زائدا أو مكررا أو لا لازوم له، ونحتفظ بالهام الملخص المفيد مرتبا ومنسقا ونؤكد على ما نريد التأكيد عليه بوضع الخطوط تحته بالمسطرة والقلم، ما لا يتيسر لنا وقت كتابة المحاضرة ومتابعة الأستاذ فيما يلقيه علينا من معلومات وشرح وحكايات وقفشات وكل ما يميز التواصل الإنساني.

t.me/qurssan

انبهرنا بالرجل واقتنعنا به. نفذنا ما نصحنا به ووجدناه مفيدا وعمليا جدًّا. كل ما قيل على اليسار مثلا، والمعلومات مرتبة ومحررة بدقة على اليمين. كان من ضمن أسئلة امتحانه آخر العام، يأتي إلينا بصفحة كالتي نكتبها في المحاضرات يؤلفها هو مبعثرة ومرتبكة، تماما كما نكتبها نحن، ثم يطلب منها تنميقها وتصنيفها وتحريرها ليرى كيف نحكم على الأشياء وكيف نختار الأهم وبأي نسق نرتبه.

أستاذ الجامعة الوحيد الذي نبهنا إلى أن الدراسة الجامعية تختلف عن الدراسة المدرسية، تماما كما تختلف رياضة السباحة عن رياضة الجري، فمن تفوق في الدراسة المدرسية كمن تفوق في رياضة الجري مثلا، سيغرق عندما يتصور نفس خصائص رياضة الجري في رياضة السباحة عندما يبدأ في ممارستها، فلنعتبر أن الدراسة الجامعية كرياضة السباحة بعد تفوقنا في رياضة الجري، وتفوقنا في الدراسة الثانوية بالمدرسة لا يعني ضرورة تفوقنا في الدراسة الجامعية، فلا بد أن تتطور مفاهيمنا ومناهجنا في الدرس والاستيعاب لنواكب طبيعة الدراسة الجامعية. لم تكن محاضرته في هندسة الإنتاج فقط، كان يقول لنا إن تفاصيل العلم في الكتب والمراجع في المكتبة نستطيع أن نطلع عليها ونقرأها، لكنه كان يتحدث إلينا في مناهج التفكير وتجارب الحياة في معظم وقت المحاضرة، بينما تشغل العلوم الهندسية أقل وقت فيها.

أحببت هذا الرجل من كل قلبي. قابلته في الكبر صدفة بالكوربة في مصر الجديدة، سعيت إليه فرحا وسلمت عليه، قدمت له نفسي كأحد تلاميذه، رحب بي ووقف يتحدث معي لبعض الوقت. لا

أستطيع أن أصف لكم فرحتي بهذا اللقاء. كان قد هرم بعض الشيء، لكنه كان محتفظا بنضارته وحيويته رغم مرور السنين، ربما في عينيَّ فقط، كنت أراه بقلبي... يجوز... احتفظ بنفس تأثيره الذي أعطاني انطباعي الأول عنه... الأستاذ حسن فهمي... فقط... قليلون من نقابلهم في مسيرة حياتنا ويضعون بصماتهم عليها بوضوح... رحم الله هذا الرجل الذي أراه من أفذاذ أرضنا الطيبة.

عرفت أن المسئول عن فريق التمثيل بالكلية اسمه أحمد حازم، طالب بالسنة الثالثة بقسم الهندسة المدنية. سعيت إليه وقابلته داخلا إلى إحدى المحاضرات فاتفقنا على اللقاء بكافيتريا الكلية بعد انتهاء محاضرته. كان عندي سِكشن رياضيات، لم أحضره من فرط الانفعال والحماسة وتوجهت إلى الكافيتيريا، طلبت شايا وجلست أنتظره بصبر نافد. بدأ تركيزي ينسحب من الكلية وموادها الدراسية الصادمة إلى المسرح وعالمه الأثير عندي. كنت قلقا ومتعجلا مرور الوقت لكي أستوضح وضع الفرقة المسرحية للكلية وألتحق بها. مر الوقت بطيئا حتى موعد انتهاء المحاضرة، لم يحضر وازداد قلقي، شغلت نفسي بمراقبة الطلبة الداخلين والخارجين بين المحاضرات حتى هدأت الحركة ثانية لبداية المحاضرة التالية. شعرت بالغضب الشديد والضيق من تصرفه. ماذا أفعل؟... وإلى متى سأنتظر؟.. شعرت بالشلل وعدم القدرة على التصرف. بعد مرور مايزيد على نصف الساعة على بدء المحاضرة ظهر أحمد حازم بصحبة طالبتين ودخلوا إلى الكافيترا وهم منهمكون في الحديث. لاحظني من على البعد فرفع يده تحية وواصل حديثه مع الطالبتين ثم ودعهما

t.me/qurssan

واتجه إليّ. نهضت لاستقباله وجلسنا وهو يعتذر عن التأخير دون إبداء تفسير لذلك. كتمت ضيقي وبدأت الحديث بإبداء رغبتي في الانضمام إلى فريق تمثيل الكلية. دار حوار بيننا تبينت منه خيلاءه الواضح وتعاليه في الحديث، سألني عن فكرتي عن التمثيل وهل مارسته من قبل؟... سردت له بفخر حصولي على ميداليات ذهبية من قبل في مسابقة الفرق المسرحية للمدارس الثانوية، ونشاطي المسرحي في مدرسة التوفيقية الثانوية وما قبلها. من حواري معه شعرت بأنه على قدر من الادعاء والغرور. سألته عن موعد لقاءات الفرقة ومكانه وقلت له إنني سأحضر للتعرف على الفرقة في موعد لقائهم. غادرته وأنا غير راضٍ عن اللقاء وشعرت بأنني لست متفائلا بالموضوع عموما. تأكدت مشاعري في أول لقاء لي بالفرقة، لم أشعر بترحيبه بانضمامي وإن لم يعلن ذلك صراحة. كانوا يرتبون لعرض مسرحي للعام الجديد ومازالوا لم يستقروا على المسرحية التي سيختارونها لبداية البروفات. تركت الفرقة تكمل اجتماعها واستأذنت في الانصراف.

عدت إلى البيت مهموما، كنت آمل أن أبدأ بداية مُرَحّبَة مع الفرقة المسرحية، لم أشعر بالراحة. أحمد حازم يشعر بنفسه ولا يتعامل معي بمودة وترحيب. ملعون أبوه، تذكرت سمير جارنا بالدور الثاني الذي يكتب قصصا ويقرأها لنا عندما نلتقي. كانت له بعض القصص الحلوة. غاوي كتابة قصص ورأيت عنده كشاكيل القصص التي كتبها وهو يضعها في كرتونة تحت السرير، تهكمت عليه يومها فأخذ على خاطره مني، طيَّبت خاطره وقلت له إنني أمزح

معه. مررت عليه في اليوم التالي بعد أن عزمت أمري، طلبت منه أن يكتب لي مسرحية، سأكوّن فرقة مسرحية في الكلية وأنافس بها أحمد حازم وفرقته. سمير كان يذهب معي إلى المسرح في بعض الأحيان. فكر قليلا ثم سألني، هل أحوّل لك قصة من قصصي إلى مسرحية؟.. كنت أفضل أن يكتب مسرحية خصيصا للفرقة، تناقشنا في الأمر وتركته ليبدأ في كتابة المسرحية التي ستكون باكورة نشاطي في مسرح الكلية. اتفقنا على موعد لمتابعة الموضوع بعد أسبوع.

أبلغنا معيد الميكانيكا بامتحان في السِّكشن التالي، مهلة أيام قليلة ولم يكن لديَّ أي فكرة عن الموضوع، لا أستطيع كتابة شيء ذي بال في المحاضرة فالدكتور صلاح خشبة سارح في ملكوته يتدفق بالميكانيكا والمعادلات والمجاهيل ولا يتخيل حالتنا المتردية، وأننا لا نسمع نصف الكلام ولا نستوضح ما يكتبه على السبورات، كذلك المسائل التي يعطيها لنا المعيد في السِّكشن طلاسم، حالة من الخِدر والبلاهة انتابتني، ذهبت يوم الامتحان وصُدِمت بطلاسم الأسئلة، كتبت أي كلام قريب من الموضوع وكانت النتيجة في الحصة التالية فضيحة طبعا، أثنان من عشرة، أنا الطالب المتفوق في الثانوية العامة والشاطر في الرياضيات، ديناميكا وإستاتيكا وهندسة فراغية وحساب مثلثات، أصبحت أجهل من دابة ولا أملك من أمري شيئا، لا أعرف كيف أستذكر ما يسكبونه على رءوسنا من سيول العلم وألغازه دون أن نسمعه أو نراه جيدا، حتى قبل أن نفهمه إذا كان هناك أمل.

t.me/qurssan

تعددت لقاءاتنا، سمير وأنا وتقاربت لمتابعة كتابة المسرحية، سمير عنده أفكار أدبية جيدة، قد تكون بعيدة عن المسرح، لكننا تداركنا هذا النقص بمساهمتي معه من واقع تعاملي مع المسرح والبروفات والمخرجين. اتفقنا على أن يكون عدد الشخصيات محدودا حتى لا أحتاج لعدد كبير من الممثلين في البداية نظرا لارتباط كل هواة التمثيل مع أحمد حازم وتوقعي لوجود بعض الصعوبات في ضم عناصر جيدة للفرقة الجديدة. تفاجأنا وسط انهماكنا بالعمل بنبأ اغتيال جون كنيدي في دالاس بالولايات المتحدة الأمريكية بعد إطلاق النار عليه من إحدى البنايات أثناء زيارته للمدينة وتجوله في شوارعها بسيارة مكشوفة. كانت صدمة كبيرة للعالم. الرئيس الأمريكي الذي صاحبته ضجة كبيرة عند انتخابه خلفا للرئيس أيزنهاور، أول رئيس كاثوليكي لأمريكا والذي مثل أملا كبيرا للشباب والملونين بمساندته لحركة الحقوق المدنية. صاحب أكبر ضجة في الحرب الباردة بين أمريكا وروسيا باقتحامه لخليج الخنازير في أزمة الصواريخ الكوبية حيث وضع العالم يده على قلبه خشية قيام حرب عالمية ثالثة تدمر العالم كله هذه المرة في وجود الترسانات النووية. اقترح سمير أن نُغَيِّر موضوع المسرحية ونكتب موضوعا سياسيا عن الحرب الباردة بهذه المناسبة الساخنة لكنني لم أحبذ الفكرة وفضلت إتمام الموضوع الاجتماعي الذي نعمل عليه. كان موضوعا بسيطا عن قصة حب بين شاب وشابة بينهما اختلاف في المستوى المعيشي، الشاب من أسرة متوسطة، أبوه يعمل

موظفا بالحكومة والشابة ابنة لتاجر ثريّ تعليمه بسيط وتطلعاته جامحة.

انتهينا من كتابة المسرحية ومراجعتها في أسابيع قليلة بعد أن اقتنعت بها. بدأت على الفور في العمل على تكوين فرقة مسرحية خاصة بالكلية بعيدا عن أحمد حازم. نشرت الخبر بين بعض الزملاء ومنهم بالطبع بعض أعضاء فرقة الكلية المتعاونين مع أحمد حازم، عندما وجدت تشجيعا مبدئيا نشرت إعلانا عن تكوين فرقة مسرحية من الطلبة هواة التمثيل وحددت موعدا للقاء الراغبين في الاشتراك. لدهشتي الشديدة تقدم للاشتراك في الفرقة عدد لا بأس به من أعضاء فريق المسرح بالكلية واكتشفت نفورهم مثلي من أحمد حازم وطريقة تعامله معهم.

بدأنا بروفات المسرحية مع بدايات العام الجديد، تجمعنا في أحد المدرجات غير المشغولة وبدأنا في قراءة الترابيزة بعد توزيع الأدوار، بدأت إجازة نصف العام واتفقنا على مواصلة البروفات. كنا نقوم بالبروفات في إحدى الصالات الخاوية بالكلية ونحن نأمل أن نقدم عرضا للمسرحية قبل نهاية العام الدراسي.

وصل نادر من الإسكندرية لقضاء أسبوع في القاهرة منتهزا إجازة نصف السنة، نزل ببيت خالته بمصر الجديدة وكنا نلتقي يوميا، كنت أنظم وقتي بين بروفات المسرحية ولقاءات نادر للفسحة معا، ذهبنا يوم الخميس الأول من الشهر إلى منزل أحد أقاربه بآخر شبرا بعد كنيسة سانت تريزا لزيارته وقضاء سهرة أم كلثوم معه، كان موعد الحفلة المرتقب حيث ستشدو الست لأول

t.me/qurssan

مرة أغنية من تلحين عبد الوهاب، كانت الإشاعات المتداولة أن الرئيس جمال عبد الناصر طلب منهما في إحدى الحفلات الاشتراك في عمل فني بعد هذا العمر الطويل فشرعا في مشروع أغنية «إنت عمري»، اشترينا زجاجة زبيب لزوم السهرة وقضينا سهرة جميلة نستمع للحن عبد الوهاب، لم نستوعبه للوهلة الأولى وتصورنا أنها أغنية مثل غيرها من أغنيات أم كلثوم، في الحقيقة كان بالي مشغولا بالمسرحية والاستعداد لعرضها طيلة هذه الفترة، لكن بعدها بدأنا نستمتع بها ويزداد إعجابنا بلحن عبد الوهاب وشدو الست أم كلثوم فيها بمزاج عالٍ. في اليوم التالي صدرت الصحف بعنوان لقاء السحاب وكان حديث الساعة. سافر نادر بعد انقضاء الأسبوع وانغمست أنا في بروفات المسرحية والترتيب لعرضها.

بدأنا نبحث عن مسرح لعرض المسرحية، ناقشنا عدة أفكار. وعد الجميع ببذل المساعي مع الأقارب والأصدقاء لبحث إمكانية المساعدة في مهمتنا، قاربنا على الانتهاء من البروفات والاطمئنان لاستعداد الفرقة لعرض المسرحية. استطعنا أن نصل إلى اتفاق على عرض المسرحية على مسرح الهوسابير المملوك للجمعية الثقافية الأرمنية عن طريق أحد الأرمن من جيران أحد زملائنا في الفرقة. هدأت أعصابنا بعد نجاحنا في توفير مسرح العرض وبدأ العد التنازلي لعرض المسرحية قبل نهاية العام الدراسي.

قمنا بدعوة الأصدقاء والأقارب وتولى أحد أعضاء الفرقة عمل الدعاية عن طريق تعليق الإعلانات البسيطة بالكلية وبعض كليات الجامعة التي لنا فيها بعض الأصدقاء. صمم لنا الإعلانات زميلنا

الذي تولى أعمال الديكور بالمسرحية، أحد زملائنا الموهوبين في الفن التشكيلي، وقد قام بتنفيذ الإعلانات ببساطة آثرة وبأقل التكاليف التي تناسب القروش القليلة التي جمعناها من بعضنا البعض مع بعض التبرعات من أهالي أعضاء الفرقة القادرين.

لم أستطع النوم بسهولة في الليلة السابقة لليلة البروفة النهائية أو البروفة جنرال كما نطلق عليها في عالم المسرح. ظللت متيقظا حتى مطلع الفجر، كلما مر الوقت زاد توتري وقلقي، يجب أن أنال قسطا من النوم. التجربة كانت هامة جدًّا في حياتي وشديدة الإثارة، فأنا مسئول للمرة الأولى عن الفرقة المسرحية، وعن الإخراج، بالإضافة إلى المشاركة في التمثيل. كنت فيما قبل هذه التجربة مجرد عضو في فرقة تمثيل المدرسة تحت قيادة مخرج متمرس، والآن أنا صاحب الفرقة أو مسئولها ومؤسسها، في تحدٍّ أردت فيه أن أثبت نفسي كممثل فوجدت نفسي مسئولا عن العمل برمته. وسط هذا المأزق، لا أنكر أنني شعرت بمشاعر شتى، هي بين الخوف والفرحة والزهو الذي قد يصل إلى حد الخيلاء. أنا أدخل عالم المسرح من أوسع أبوابه، منذ كتابة النص وتأسيس الفرقة من لاشيء وحتى تدبير مسرح العرض والتمويل، وإن كان بسيطا، إلى جانب الإخراج والتمثيل والإعداد لليلة العرض. يغلف كل هذه المشاعر الفياضة، خلفية بعيدة من اللامبالاة بالكلية والدراسة والهندسة جميعا. المسرح هو حياتي كما يتأكد لي كل يوم، وليكن ما يكون.

أيام لا يمكن نسيانها، يوم البروفة جنرال، تجَمُّعنا بالمسرح قبل الموعد، حماستنا، الخامات البسيطة التي استخدمناها في بناء

t.me/qurssan

ديكور متواضع، حلولنا البسيطة للإضاءة والموسيقى التصويرية والملابس، ثم ليلة العرض التي كنا فيها كالمخَدرين، نتحرك وننفذ وندفع إلى خشبة المسرح، نندمج في أدوارنا ويسكرنا تصفيق الجمهور الذي دعوناه من أهلنا وأصدقائنا وزملاء الدراسة. تَجَمُّع الحاضرين حولنا بعد نهاية العرض والاحتفاء بنا، كان بمثابة شحنات وجدانية هزتنا من الأعماق، ذهبنا بعدها للاحتفال بنجاحنا على شاطئ النيل، المنطقة التي يُطلق عليها اللسان حيث ثلاجة البيرة على الرصيف، وبالمناسبة ذلك اللسان هو موقع شيراتون الجزيرة الآن، قبل أن يُبنى، بقعة بكر بديعة هادئة تجمعُنا على شط النيل وتناسب القروش القليلة بجيوبنا، نتسامر ونلهو ونحتفل ونحن نشرب البيرة المثلجة، ما أبسط الحياة، رغبة.. إصرار.. عمل.. نجاح.. أن نكون أنفسنا.. نفعل ما نحب.. ولحظة هانئة ولو بقروش قليلة.

عدت إلى البيت مع اقتراب بزوغ فجر يوم جديد وأنا أشعر شعورا غير محدد المعالم، بأن حياتي تتخذ منحى جديدا، بدأت السماء في الابتسام عند الأفق البعيد، تلك الابتسامة الوردية الساحرة التي تمهد الطريق لبزوغ سيدة الكون معلنة مولد نهار جديد، وأمل جديد، ودورة جديدة من دورات صنع الحياة.

فكرت في الخطوة التالية بعد أن أثبتُّ لنفسي أني قادر على إنجاز عرض مسرحي من الألف إلى الياء، تحديت الظروف وكونت الفرقة، أنجزت النص مع المؤلف، قدت البروفات وأخرجت النص ثم قمنا بالعرض بعد تدبير المسرح، والأن قد نجح العرض.

شعرت أنني يجب أن أنضم لكيان مسرحي كبير بالجامعة للمشاركة في المسابقات الجامعية بشكل أكثر احترافية. بدأت في البحث والتقصي، هل يوجد فريق مسرحي لجامعة القاهرة؟.. سألت المعارف والزملاء وعرفت أن فريق مسرح الجامعة مقره المدينة الجامعية ببين السرايات.

توجهت إلى مكتب رعاية الشباب بالمدينة الجامعية وقابلت المسئولين به، عرفت بوجود فريق لجامعة القاهرة يتدرب بنادي المدينة الجامعية ويتكون من طلبة من جميع الكليات. اتضحت الصورة بذهني، هذا هو الطريق الذي يجب أن أتبعه، الانضمام لفريق مسرح جامعة القاهرة للاشتراك في مسابقات المسرح الجامعي.

اقتربت الامتحانات في خضم هذه التطورات المتلاحقة التي أخذتني تماما، كنت غير مواظب على حضور المحاضرات والسكاشن، أسمع عن أوراق تمارين يشتريها الطلبة لحلها وتقديمها وعن امتحانات بالسكاشن، فقدت الحماسة للكلية وشعرت بأنني في وادٍ آخر، عندما كنت أضغط على نفسي لحضور محاضرة في محاولة لاستعادة ما فاتني، أشعر بهول الصدمة لما أسمعه من طلاسم لا أفهمها طبعا وغير قادر على تدوينها في كشكول المحاضرات مثل بقية الزملاء المنهمكين في الكتابة. غربة فظيعة في وسط كئيب. ينتهي الأمر بأن أغادر المحاضرة والكلية وأقفز إلى أول أتوبيس يحملني إلى وسط المدينة، أتجول قليلا حتى أتعب ثم أجلس على أحد المقاهي متأملا الناس من حولي وأنا أحاول أن أتناسى مصيبة كلية الهندسة التي تورطت فيها.

t.me/qurssan

وتجيء الامتحانات، حيرة فظيعة وارتباك، موقف لم أقفه في حياتي، أنا التلميذ الذي كان متفوقا وحشره مكتب التنسيق بكلية الهندسة، أسعى للانضمام لمجوعات مراجعة المواد في الليالي الأخيرة مع الزملاء المقربين، يحاولون مساعدتي لكنني لا أستجيب بالطبع لقصوري عن الفهم والمتابعة، وأرسب في معظم المواد.

مهما كان المنطق يقول إن المقدمات تقود إلى النتائج، لكن متى قبلنا بالنتائج، سحابة حزن ظللتني منذ قرأت النتيجة في الكشوفات المعلقة بلوحة الإعلانات حتى دخلت إلى البيت بعد منتصف الليل متلصصا خَجِلًا مهزوما، لأول مرة منذ بداية السنة الدراسية أواجه الحقيقة المرة، لأول مرة في حياتي أعاني الفشل في الدراسة وأشعر بالضياع، قضيت النهار هائما على وجهي كالمُخَدّر، سرت من الجيزة حتى وسط المدينة دون أن أدري بالوقت والمسافة، شعرت بالإعياء فجلست على أول مقهى صادفني، طلبت شايا وجلست ساهما. ما العمل؟... كيف سأبلغهم في البيت نبأ رسوبي المُرَوِّع؟... وفي معظم المواد؟... هَمٌّ كالرحى يجثم على صدري... نسيت الشاي وشربته باردا دون أن أستطعمه. استمررت في جلستي حتى كادت الشمس أن تغيب، دفعت الحساب وانصرفت بلا وجهة، شعرت بالجوع فأكلت ساندوتش طعمية. مرهق ولا أملك الشجاعة على العودة للبيت.

استيقظت قرب انتصاف النهار، كانت ماما بالمطبخ، سألتني عن النتيجة التي كانوا ينتظرونها، قلت لها دفعة واحدة.. لقد رسبت، شهقت مفجوعة.. يعني إيه؟.. رسبت مثل أي واحد ممكن أن

يرسب.. معقول يا نبيل؟!.. إنت طول عمرك متفوق.. ماذا جرى؟.. لا أدري.. الدراسة في الكلية تفرق عن المدرسة.. وجمت.. تركتها وانسحبت من المطبخ.

استبدلت ملابسي وغادرت بعد أن ألقيت بالخبر في وجه ماما تاركا مهمة نقله إليهم وفضلت الابتعاد عن البيت حتى ينتشر الخبر بينهم. سرت بلا وجهة، وصلت إلى شارع شبرا، وقفت حائرا أمام إجزخانة زاريه، لا أدري ماذا أفعل.. خرجت هروبا من البيت وكثرة الكلام في موضوع الرسوب، بحثت في جيبي فوجدت معي عشرة قروش فقط، تمشيت قليلا بشارع شبرا ثم اشتريت خمس سجاير بلمونت، أشعلت سيجارة ونسيت الدنيا وما فيها، عبرت الشارع واستقللت الترام المتجه إلى دوران شبرا، سأمر على مصطفى، مصطفى هو الصديق الذي طلعت به من الكلية في هذا العام العصيب، تعرفنا في اليوم الأول بعد حصة الرسم الهندسي، خرج خلفي وطلب مني كبريتا لإشعال سيجارته، قدم نفسه لي، يعيد السنة بعد رسوبه فيها، تعارفنا واكتشفنا بسعادة أننا شبراوية، هو يسكن في شارع خلوصي وأنا في جزيرة بدران. تبادلنا الشكوى من الكلية وصدمتنا فيها، هو أيضًا تلميذ شاطر في المرحلة الثانوية، لكنه لم يستطع التواؤم مع الدراسة بالكلية فرسب، عرض عليَّ أن نستذكر دروسنا معا، فهو لا يستطيع المذاكرة بمفرده، خاصة وأننا من شبرا والمسافة ليست بعيدة بين سكننا، بدأنا بعدها في التزويغ من المحاضرات معا، كنا نذهب إلى مقهى بميدان الجيزة بجوار مطعم فول المانش للسباح عبد المنعم عبده، أحد السباحين الذين

t.me/qurssan

عبروا المانش. نمضي وقت المحاضرات المملة هناك، نشرب الشيشة وندردش معا ثم نعود بعد نهاية المحاضرات لنستقل الأتوبيس عائدين إلى شبرا.

وجدت مصطفى مكفهرا، خير يا مصطفى، كان أخوه صلاح في حالة مرضية سيئة جدًّا بعد الإفراج عنه مع الشيوعيين المفرج عنهم حديثا، تأثرت صحته من فترة الاعتقال والتعذيب الذي عانوا منه في بدايات اعتقالهم. اعتقل مرتين الأولى في أول الثورة ثم مع الاعتقال الشهير في بداية ١٩٥٩، أمه أيضًا كانت في حالة يرثى لها حزنا على ابنها الذي تعذبت في الجري وراءه طيلة فترة اعتقاله في السجون والمعتقلات حتى أنهكت صحيا هي الأخرى، مررنا على الغرفة التي كان ينام فيها أخوه في طريقنا إلى غرفة القعاد، كان يتأوه بصوت مُنهَك من الألم... ألم يذهب إلى الطبيب؟.. قال لي متنهدا... دُخنا مع الدكاترة ومافيش فايدة.. حالته ساءت جدًّا في المعتقل بسبب إهمال العلاج وعدم المتابعة الطبية... تصور كان الدكتور يزورهم مرة واحدة فقط في الشهر في الواحات... كان المريض يشارف على الموت ولا يسمحون له بالانتقال إلى المستشفى إلا بشق الأنفس... سألني عن النتيجة ونحن نهم بالجلوس فأبلغته برسوبي، رَبَّت عليَّ مواسيا وهو يهز رأسه متأسيا... قال بصوت خفيض... نفس ما حدث معي... سألته مترددا... وأنت؟.. الحمد لله... نجحت... لكن بعلمين... قدمت له سيجارة وجلسنا واجمَين... نهض بعد قليل وهو يقول.. سأحضّر الشاي.

كنت في هذه الفترة قد بدأت القراءة حول النظم الاقتصادية واستغرقتني القراءة في الاشتراكية مع بداية تطبيق القرارات الاشتراكية. جذبتني عموما الأفكار الاشتراكية وقرأت قليلا عن الماركسية. كانت فترة تأمل وتساؤل.. كيف يعلن عبد الناصر القرارات الاشتراكية ويعتقل الشيوعيين بل ويمعن في تعذيبهم ذلك العذاب البشع اللا إنساني؟... تساؤلات كثيرة أرقتني سياسيا ولم أجد لها إجابة في ذلك الوقت. عرفت بعدها حجم التعذيب الذي عاناه كل المحبوسين والمعتقلين السياسيين في سجون عبد الناصر من شيوعيين وإخوان مسلمين وكانت نقطة سوداء في حقه رغم تقديري له في أمور كثيرة. لماذا يلجأ إلى التعذيب؟.. لماذا يلجأ إلى سحق الإنسان وإذلاله؟.. لم يكن عنده شرف الخصومة أو فروسيتها ونبلها. قامات شامخة من فنانين وعلماء وسياسيين وشيوخ وقادة عماليين يقوم ضباطه بإذلالهم يوميا.. طابور صباح للمذلة... قول أنا مرة... قول عاش الزعيم جمال عبد الناصر.. ضرب حتى الموت ومعاملة مذلة في الإقامة والمأكل والعلاج والزيارات للأهل والعقاب يصل إلى وطء الرقاب بالنعال لأناس اختلفوا معه سياسيا وهم وقتها تحت قبضته في السجون والمعتقلات. خرجت من عند مصطفى وأنا في حالة من الغضب الشديد.. تجولت في الشوارع حتى المساء حتى شعرت بالإعياء من الإرهاق والجوع، عدت إلى البيت ودخلت إلى غرفتي في هدوء، استبدلت ملابسي وتوجهت إلى المطبخ لتناول أي شيء يسد رمقي، التقيت مع أبي في الطُرقة، بادرني بالسؤال الاستنكاري... ما هذا الذي سمعته من أمك؟...

t.me/qurssan

أطرقت صامتا مختنقا من الضيق... هل هذا معقول يا نبيل؟... طول عمرك مجتهد في دراستك... ماذا حدث؟.. صمت قليلا ثم أردف... أعتقد أن موضوع الانشغال بالمسرح هذا يجب أن تراجع نفسك فيه... واضح أنك أهملت دراستك... يبدو أنه رأف بحالي فلم يُطل وتركني مبتعدا... واصلت طريقي إلى المطبخ مختنقا وأنا أحبس دموعي بصعوبة... أول مرة في حياتي أواجه هذا الموقف... أكلت لقمة سريعة وعدت إلى غرفتي... أطفأت النور ودخلت إلى السرير وأنا أشعر بحزن عميق بعد أن انتهت هوجة الصدمة والمواجهة.

حالة من الاكتئاب دهمتني ذلك الصيف، موقف لم أقفه في حياتي، مفترق طرق، ما العمل؟... ضياع تام وفقدان للبوصلة. سيل من التساؤلات عبر برأسي، هل سأنجح في مواصلة الدراسة بالكلية؟... وماذا سأفعل؟... هل يمكن أن يتكرر رسوبي؟.. سلسلة متتابعة من الأسئلة حتى مناقشة ترك الكلية... لكن، ثم ماذا؟.. وكيف أواجههم في البيت؟.. وهل سيصرفون عليَّ وأنا فاشل في دراستي؟.. الشيء الواضح في ذهني نسبيا أن حياتي هي المسرح والتمثيل.. لم أناقشه.. لم أقترب منه.. طَيِّب كيف؟.. أتوه في التساؤلات ويبقى الأمر معلقا وضاغطا.

مرت شهور الصيف كئيبة بلا هدف ولا فعالية، كنت كالماكينة المُعطلة، أيام تمر وأنا أدور معها، زاد ترددي على سميحة كلما سنحت الفرصة، لحظات ملتهبة انغمسنا فيها معا شارفت حد الاستهتار الطائش وعدم المبالاة بانكشاف أمرنا، زادت ساعات

نومي، كأنه الهروب، لم أطق البقاء بالبيت فكنت أهرب منه بمجرد تمكني من مغادرة الفراش. مغادرة الفراش كانت معاناة شديدة، أود لو أبقى به إلى الأبد، عندما أنجح في النهوض، علاقاتي بالمنزل كانت محدودة جدًّا، مرور سريع على تيته مريم لأخذ سيجارة أو تحية سريعة متحشرجة لمن أقابله وأنا أتفادى النظر في عينيه، أسرع بالاستعداد لمغادرة البيت وأظل هائما على وجهي طوال الوقت، غالبا بمفردي سائرا بلا وجهة أو ملقى على أحد المقاعد بأي مقهى يصادفني أدخل لألتقط أنفاسي وأنال بعض الراحة. لم أكن قادرا على ممارسة أي فعل مفيد، حتى القراءة توقفت عنها.

بدأ العام الدراسي الجديد وتحركت في طريقي إلى الكلية كالدمية، أذهب يوميا كالمُخَدَّر، هَمٌّ كالرحاة يثقل صدري، خبر مفاجئ أنعشني وأنعش الكثيرين مثلي، رفض جان بول سارتر لجائزة نوبل في الأدب... ياه... هناك من يقول لا... ولا قوية... لا... لا... قرأنا لسارتر وعن سارتر في ذلك الوقت... كان مثالا منعشا فكريا للشباب وقتها، فكرا وسلوكا، سارتر وسيمون دو بوفوار، مثال للشباب جميعا على الفكر والتحرر والثورة على السائد. خبر حَرَّكَ مياهي الراكدة وجلى عن فكري بعضا مما أعاقه وخنقه.

قارب العام على الانتهاء وبـدأت أعتاد على حالة التبلد الدراسي، لم أستطع التكيف، بدأ الحنين للمسرح يشتد تدريجيا مع مرور الوقت. شاهدت بعض العروض الممتعة التي ساعدت على إيقاظ الشبق المسرحي داخلي مرة أخرى، شاهدت مسرحية

t.me/qurssan

«دائرة الطباشيرالقوقازية» لبرتولد برخت وأعجبت جدًّا بالمسرح الملحمى، تألقت سميحة أيوب كعادتها دائما، كما تألقت أيضًا في مسرحية «سكة السلامة» لسعد الدين وهبى، معزوفة بارعة لفريق المسرح القومي، شفيق نور الدين الشامخ وتوفيق الدقن وعبد المنعم إبراهيم، قمة التمثيل تشعر معهم أنك أمام رهبان في قدس أقداس المسرح، شاهدت أيضًا درة فن الكوميديا، «أنا وهو وهي»، الأستاذ، فؤاد المهندس يصول ويجول فوق خشبة المسرح مع الموهوبة شويكار وبزوغ نجم عادل إمام في دور دسوقي وكيل المحامي.. بلد بتاعة شهادات صحيح... تلك الجملة التي كانت البشير لبزوغ نجم جديد في فن التمثيل والكوميديا عموما، دبت فيَّ الحماسة من جديد فتوجهت إلى المدينة الجامعية ببين السرايات منتويا الانضمام إلى الفريق المسرحي لجامعة القاهرة وليحدث ما يحدث، هناك لحظات في حياتنا نتحرك فيها بحدسنا ووجداننا وننحي الحسابات والتعقل جانبا.

الخروج من حالة الضياع بدأ بعودة الحماسة للمسرح. بدا واضحا لي في هذه المرة أن المسرح هو حياتي، رمانة الميزان فيها، هذا لم يمنع شعور الأسى الدفين الذي سببه إخفاقي في الدراسة... رسوبي للمرة الأولى في حياتي بعد أن كنت طالبا متفوقا طيلة مسيرتي الدراسية، لم أعتد على الهزيمة.. هل يمكن أن أستجمع طاقتي مرة أخرى وأحاول أن أسير في الاتجاهين.. المسرح الذي أشعر أنه هو ما أريد وأحب والدراسة... ولو بقدر يسمح بأن أحاول الاستمرار واجتياز المرحلة الجامعية دون إخفاق... ولو

بدون تفوق دراسي كما اعتدت... لتكن محاولات التفوق والتميز في المسرح ولتستجمع ما تستطيع من طاقات لتتعايش مع الدراسة وتواصل فيها.. هل أستطيع مواجهة فشل آخر؟.. رسوب آخر؟.. وكيف ستواجه الناس؟.. أباك وأمك؟.. ضيق شديد ورغبة في اجتياز تلك المتاهة..

بدأت أحاول الانتظام في حضور المحاضرات والسكاشن.. لم يكن الأمر سهلا.. عانيت بكثير من التركيز للمتابعة ومحاولة الاستيعاب.. طبعا إعادة السنة وتكرار حضور المحاضرات ساعدا على وجود قدر من الألفة مع المقررات بخلاف الصدمة الأولى في العام السابق. كنت أفضل قدرة على المتابعة، بدأت تنبت بداخلي بذرة الاهتمام القديم بإثبات الذات.. مفاجأة طيبة في محاضرة الميكانيكا بعثت قدرا من الانتعاش في نفسي.. وسط الانهماك في تدوين ملاحظاتي على المحاضرة سألتني عن بعض ما استغلق عليها.. انتبهت فجأة.. كانت تجلس إلى جواري في زحمة المدرج.. ممكن تشرح لي الجزء الأخير؟.. لم أستوعبه جيدا.. الميكانيكا علم كنت أحبه منذ المرحلة الثانوية وكنت أكثر ألفة معه.. شرحت لها بسرعة واستكملنا بقية المحاضرة.. خرجنا معا من المدرج وهي تشكرني.. سرنا تلقائيا في طريقنا إلى الكافيتريا.. قدمت نفسها لي.. هالة.. وأنا نبيل... لا أراك كثيرا في المحاضرات.. أجبتها بقدر من الخجل.. أنا أعيد السنة.. أبدت دهشتها.. انطباعي أنك تتابع المحاضرات جيدا.. أنا حاسة إني تايهة حتى الآن.. هذا بسبب أنها المرة الثانية التي أحضر فيها

t.me/qurssan

نفس الكلام.. قلت لها مبتسما.. سمعته قبل ذلك وتهت مثلك.. وصلنا إلى الكافيتريا ودخلنا.. طلبتُ شايا وأخذت هي ساندوتشا وزجاجة كوكاكولا.. توجهنا إلى إحدى الطاولات وجلسنا نكمل حديثنا.

شعور ممتع استيقظ داخلي. لاحظت ملامحها للمرة الأولى.. نظرات ذكية على قدر من الشقاوة وابتسامة متفائلة.. طلبت مني أن أشرح لها بعض المسائل التي لا تفهمها في الميكانيكا.. فكرت للحظات ثم وعدتها بالمحاولة.. قلت لها ضاحكا لا تنسي أنني طالب خائب وأعيد السنة.. اتفقنا على اللقاء في الأسبوع التالي قبل المحاضرة في الكافيتريا لشرح ما استغلق عليها من دروس الميكانيكا، استأذنت هي في الانصراف وجلست أنا واجما لبعض الوقت.. ماذا فعلت بنفسي؟.. أي ميكانيكا التي سأشرحها لها.. لا بأس... لأحاول... عموما الميكانيكا علم محبب لي منذ المرحلة الثانوية.. بالتأكيد يمكن أن أعاون ولو بقدر بسيط.. غادرت الكلية عائدا إلى البيت وأنا عازم على بذل بعض الجهد في مراجعة دروس الميكانيكا قبل اللقاء حتى لا تحدث فضيحة تكشف عن قلة حيلتي العلمية الحالية. حافز غامض لاجتياز هذا التحدي أشعل بعض الحماسة داخلي.. سحر الجنس الآخر والرغبة في إرضائه والفوز بتقديره.

كان الانضمام لفريق المسرح الجامعي نقلة هامة في حياتي الفنية والعملية، ساهمت بوضوح في ضبط توازني المختل إثر معاناة الرسوب والفشل وتَخَبُّط مواجهة تلك الصدمة العنيفة التي

زلزلتني وأفقدتني التوازن لشهور. كان الفنان نجيب سرور بصدد القيام بإخراج مسرحية تاجر البندقية لشكسبير، لحسن حظي اختارني ضمن طاقم الممثلين بعد أن قام بعمل اختبار لي ومناقشتي في نشاطي المسرحي السابق. اكتشفت بعدها أنه شاعر عظيم وله مسرحيات شعرية لم أكن على علم بها، فلم يكن المسرح الشعري منتشرا قبلها، أو لم أكن أنا متابعا جيدا للحركة المسرحية وقتها. قرأت المسرحية بنهم بعد أن أعطاني دورا بها، أمير أراجون، دور صغير لأحد خُطّاب بورشيا الجميلة، كم كنت أتمنى أن يعطيني دور شيلوك البطل بعد أن وجدت دور أمير أراجون صغيرا بالنسبة لدور شيلوك. بدأنا البروفات بإحدى قاعات المدينة الجامعية، بذلت جهدي في أداء الدور على أمل أن أنال إعجاب الأستاذ نجيب سرور، إمكانيات الدور لا تسمح لكنني تدربت عليه بحماسة بعد أن حفظت الدور عن ظهر قلب.. من ذا يَجرُؤ أن يخدعَ قَدَرَه... ليحوزَ الشرفَ وما هو أهلٌ له!... بل من ذا يقدِرُ أن يحملَ نوطَ المجدِ بلا حقٍّ فيه؟... ليت الشرفَ الخالصَ لا يكسو إلا أهلَه... وإذن لَتَحَلّى بالعِزّةِ حشدٌ من أهلِ الذلة... وتخلى حشدٌ من حُكام العصرِ عن السُلطة... وتخلصنا من حشدٍ من فقراء النفسِ الوضعاء... والآن إلى الصندوق... حفظت أيضًا دور شيلوك بالكامل لعل الظروف تسنح وأقوم بأدائه أمام الأستاذ نجيب... أنا لا أخشى حكمَ القانون...مادمتُ بريئا لم أذنِب أوَ ليسَ لديكم بعضُ عبيد؟... أوَ ما ابتعتوهم بالمال؟... أوَ ما سخّرتوهم؟... كحميركُمُ وكلابكُمُ وبغالكُمُ... في أحقرِ ما رُمتم من أعمال؟... لقد ابتعتوهم بالمال... أفلي أن أطلبَ منكم إعتاقَهُمُ

t.me/qurssan

أو تزويجَهمُ منكم... من أبنائكُمُ وبناتكمُ؟... ستُجيبوني... كَلاَّ... فعبيدُكُمُ مما ملكت أيمانكمُ... وكذاك أجيبكمُ... إني أطلبُ رطلًا من لحمٍ كنتُ ابتعتُه... ودفعتُ له أغلى الأسعار... ذا مِلكُ يميني ولسوفَ أنالُه... إما إن أنكرتم حقي... فالعارُ على نُظُمِ العدلِ هنا... أعيد وأزيد في الدور بالبيت بعد أن ينام الجميع لأصول وأجول في دفاعي عن حقي في رطلٍ من لحم أنطونيو الذي أفلس ولم يستطع رد دين التاجر اليهودي.

تحمست لمراجعة دروس الميكانيكا قبل موعد لقائي مع هالة، تيقظت داخلي روح التلميذ المجتهد وأردت أن أكون على قدر الموقف، لقد قبلت المهمة ويجب أن أكون أهلا لها، بدأت أشعر بالرغبة في مراجعة ما فاتني من محاضرات في بقية المواد لعلي أتدارك ما فاتني منذ أول العام... لو أستطيع أن أستعيد الهمة مرة أخرى... أمنية بدأت تدريجيا تنمو بداخلي.. هل بسبب التحاقي بفريق المسرح الجامعي واختيار الأستاذ نجيب سرور لي في مسرحية تاجر البندقية؟... هل بسبب تورطي مع هالة في شرح دروس الميكانيكا لها؟... في الحقيقة لا أستطيع أن أقول إنني ندمت على التزامي بالشرح لها، بل على العكس، كان هناك نوع من الترحيب الضمني، الانتشاء، ربما استعادة الثقة بالنفس، أو الميل الفطري إلى الجنس الآخر، لم أتبين بالضبط، لكن الأكيد أنني بدأت الذهاب إلى الكلية بنفسية جديدة، نفسية اختلفت بعض الشيء عن حالة اللامبالاة والقرف التي صاحبت صدمتي في دراسة الهندسة ورسوبي في العام الأول لي بالجامعة.

التقينا بالكافيتريا قبل المحاضرة بوقت كافٍ لمراجعة دروس الميكانيكا، كنت قد استعددت جيدا بمراجعة المحاضرات والمسائل المرتبطة بها، لم أجد صعوبة كبيرة لميلي للموضوع ولسابق تفوقي في الرياضيات في المرحلة الثانوية. مرور الوقت والتكرار يساعد أيضًا على مزيد من الاستيعاب. مرت القعدة بسلام ودخلنا إلى المحاضرة بعدها، دعتني للمذاكرة معها ببيتها، قالت لي إنها تسكن في مصر الجديدة مع والدتها، فهمت منها أن والديها منفصلان منذ سنوات وأن أباها يعمل في ليبيا، مهندسا وعنده شركة لأعمال المقاولات. أبديت تحرجا مبدئيا فشجعتني بأن والدتها سترحب بي عندما تعلم أني سأساعدها في المذاكرة وأن هذه هي رغبتها... قلت لها وهل ستصدق أن زميلك الراسب في السنة الماضية يمكن أن يساعدك فطمأنتني أن أمها لا تتدخل في التفاصيل وتثق في كلامها وتقديراتها للأمور، كما أنها على قدر كبير من التحرر وسعة الأفق.

دبت الروح فيَّ مرة أخرى وشعرت ببعض الشهية لمرجعة ما فاتني من دروس، استعدت بعضا من حماستي الدراسية مرة أخرى، كنت أقضي معظم وقتي بغرفتي بالبيت متجنبا الاختلاط بالأسرة ما استطعت، لم أكن أستطيع تحمل النظرات، قد تكون مبالغة مني أو حساسية زائدة بسبب خجلي من إخفاقي للمرة الأولى في دراستي، كانت غرفتي بجوار باب الشقة، أدخل من الباب وأدلف مباشرة إلى الغرفة كالمتسلل، أقوم بتحية من أقابله سريعا ثم أنزوي بغرفتي، كانت غرفتي في السابق هي غرفة مغلقة للضيوف، خُصصت

t.me/qurssan

لميشيل أولا بعد إلغاء تخصيصها للضيوف ثم آلت إليَّ بعد إنهاء ميشيل لدراسته وتجنيده. ميشيل ينام الآن على سرير جدي إبراهيم بعد وفاته، السرير المقابل لسرير تيته مريم وتنام نادية إلى جوارها، تُركت الغرفة لي بمفردي لأتمكن من المذاكرة والسهر براحتي.

استقللت مترو النزهة متوجها إلى بيت هالة للمرة الأولى، بيتها يقع في شارع جانبي بعد ميدان الإسماعيلية وقبل الوصول إلى ميدان سفير، بيت من الطراز المعماري القديم محدود الارتفاع تحيطه حديقة أو شريط ضيق مزروع بالأشجار العتيقة التي تمنحه قدرا من الوقار. المدخل رحب متسع والدرج رخامي شامخ. شعرت ببعض القلق الممتزج بالرهبة، ليس الأمر معتادا أن أزور زميلة أو صديقة في بيتها، رواسب المجتمع الشرقي، لكنها موجودة على أي حال. فتحت لي هالة الباب واستقبلتني بحرارة وابتسامة تعلو وجهها مما أشعرني بقدر من الألفة والهدوء. قادتني إلى غرفة الاستقبال ودعتني للجلوس لحين إحضار مشروب لي. لم تعطني فرصة للاختيار واختفت لدقائق لتعود بكوب عصير ليمون.

جلسنا نتسامر، فهمت منها أن والدتها ليست موجودة بالبيت وإنها على وشك الوصول. بعد شرب العصير والدردشة المبدئية سألتني... هل نبدأ؟... كما تحبين... نهضت لتقودني إلى غرفة أخرى بها مكتب وطاولة رسم هندسي، إلى جوارهما كنبة ومقعدان بينهم طاولة خدمة. سألتني هل نجلس على المكتب أم على الصالون الصغير. جلسنا على الكنبة وأحضرت كشكول الميكانيكا مقترحة أن نستهل بها لنكمل ما بدأناه بكافيتريا الكلية. بدأنا في

مراجعة المحاضرات ثم انتقلنا إلى حل بعض المسائل. حضرت والدتها بعد قليل وجاءت للسلام والترحيب بي، سيدة في غاية الجاذبية والشياكة، لا تبدو كأم، طبعا كنت أقارن بالست الوالدة والأقارب. تبدو عليها قوة الشخصية من الحوار القصير الذي دار للحظات بيننا. المستوى الاجتماعي للأسرة يبدو مرتفعا عموما. تركتنا بعد الترحيب وتبادل بعض الكلمات مع هالة وواصلنا نحن مراجعتنا لدروس الميكانيكا. اتفقنا على أن أمر عليها مبكرا يوم الجمعة التالي في عطلة نهاية الأسبوع نعمل لبعض الوقت ثم ستدعوني إلى السينما. قالت لي إنها تريد أن تشاهد فيلم زوربا اليوناني.. ابتسمت.. استفسرت عن سبب ابتسامي فقلت لها إنني شاهدته مرتين وعلى استعداد لرؤيته مرة أخرى من شدة إعجابي به. اتفقنا على الموعد واستأذنت في الانصراف. استقللت المترو غير المزدحم في ذلك الوقت المتأخر من المساء وجلست إلى جوار النافذة أفكر في هالة وأسرتها وشقتهم الفخمة، أمها على وجه الخصوص، امرأة في غاية الجمال والجاذبية، تشع بالأنوثة.

كما لو كانت تدب فيَّ الروح مرة أخرى، لن أفتي بالأسباب، فمن يعرفها؟.. عادت الاهتمامات الطبيعية للإنسان.. عاودتني الإثارة الجنسية.. عاودني الاشتياق للدفء.. للتلامس.. لرائحة العطر المنبعث من الجسد الحي.. سميحة... هالة... فتيات أحلامي وصحوي من بطلات السينما والمسرح ومذيعات التلفزيون.. زعزعني الاهتياج وأرقتني الرغبة فمررت على سميحة مساء أحد الأيام بعد عودتى من الكلية.. قابلتني بعتاب وفتور

t.me/qurssan

لانقطاعي مدة طويلة... سرعان ما تسامح العتاب وذاب الفتور... تعانقنا طويلا.. تعرينا بعدها وأبحرنا في شبق هائج عاتٍ صعدنا وهبطنا على أمواجه مراتٍ عدة... لم نشعر بالوقت... مر خاطفا... سمعنا أصواتا غير معتادة فانتبهنا... يا نهار اسود... موعد حضور زوجها... قفزنا من الفراش في نفس اللحظة... ارتدينا ملابسنا في عجلة عصبية.. غادرنا الغرفة وتنصتنا.. خفت الصوت.. يبدو أنه صوت الجيران على الدَرَج.. ودعتها سريعا وانطلقت خارجا.. لم أشعر كيف نزلت السلم قفزا.. خرجت من باب البيت متلفتا حولي.. لمحت عم صابر قادما فاستدرت مبتعدا إلى الناحية الأخرى.. قَدّر ولَطَف... دقائق معدودات فصلتنا عن فضيحة بجلاجل... دقات قلبي العارمة أصمت أذنيَّ وأنا أسرع الخطى مبتعدا عن مسرح الأحداث لاهثا خلف أنفاسي المضطربة.

وصلت إلى البيت مُنهكا، دخلت بهدوء، كانوا متجمعين أمام التلفزيون يتسامرون ويضحكون وهم يشاهدون تسجيلا لمسرحية السكرتير الفني وبائع السمك يكاد يُجن لأن فؤاد المهندس يصر على أن الدنيا بتلف. أغلقت باب غرفتي بهدوء واستبدلت ملابسي ثم ارتميت على السرير ورحت في نوم عميق حتى ضحى اليوم التالي، استيقظت متكاسلا وبدأت أستعد للذهاب إلى الكلية، كان ميشيل بالبيت في إجازة لتوعكه بدور أنفلونزا وارتفاع حرارته، صحته أصبحت ضعيفة بعد عودته مصابا من اليمن رغم خضوعه للعلاج الطويل والرعاية الطبية بمستشفيات الجيش، وجدته ممدا بسريره يتبادل الحديث مع تيته مريم، كانت تستجوبه عن متاعبه وتعطيه بعض

التوصيات للعناية بصحته، أصبحت تخاف عليه خوفا مبالغا فيه بعد إصابته باليمن واعتلال صحته المتكرر. اطمأننت عليه ثم غادرتهم لأتوجه إلى الكلية للحاق بالمحاضرة التالية بعد فوات المحاضرتين الأولتين. علاقتي بميشيل علاقة عابرة نظرا لفارق السن واختلاف الاهتمامات، هو في الحقيقة بلا اهتمامات فنية أو ثقافية، يعني موظف تقليدي يواظب على عمله ويتردد على الكنيسة للصلاة أو للمشاركة في مدارس الأحد. نشاطه خارج العمل لا يخرج عن ذلك.

انهمكت في تدريباتي المسرحية مع فرقة مسرح الجامعة تحت قيادة الأستاذ نجيب سرور، لم يفارقني حلم تمثيل شخصية شيلوك، كنت أشبع رغبتي بالتدريب على أداء الدور بالبيت بعد أن ينام الجميع، أغلق باب الغرفة بعد أن أتأكد من نوم الجميع، ثم أشرع في أداء الدور بمفردي، أصول وأجول بالغرفة وحدي مؤديا الدور، أعيد وأزيد في جمل الحوار المفصلية وأتمنى أن يجري لي الأستاذ تجربة للأداء، أتصوره جالسا أمامي يشاهدني وهو يتابع باهتمام وإعجاب.

اتفقت الفرقة على الذهاب لمشاهدة مسرحية الأستاذ في مسرح الجيب بالجزيرة، ياسين وبهية إخراج الأستاذ كرم مطاوع، كانت ليلة ممتعة خرجنا ذاهلين من موهبة الأستاذ الشعرية وهي تتجسد على المسرح.. ترددت كلماته وصوره الشعرية في ذهني وأنا في طريقي إلى البيت...

عند رأس الحقلِ غابت نخلتان
في عناقٍ خالدٍ إذ تبدوان
أسفل الجذعين نخلة واحدة..

t.me/qurssan

لكأن الحب من طبع النخيل..
مثلنا يهوى العناق
مثلنا.. يا ليتنا مثل النخيل..
في الوفاء
والغريب..
أن إحدى النخلتين
كالفتى تبدو فتية..
وقوية
بينما الأخرى صغيرة وحيية..
كفتاة..
هكذا شأن الطبيعة في بهوت
مثلما تهزل أحيانا تَجِدّ
في أحايين كثيرة.

دخلت إلى منزلنا منتشيا ممتنا لعظمة المسرح والفن المتجاوز الذي منحني هذه الليلة.

تعددت لقاءاتنا وتوالت، هالة وأنا، نقضي وقت الكلية معا، في المحاضرات والسكاشن، نلتقي في كافيتريا الكلية، نخرج من الكلية بين المحاضرات إذا كان الوقت يسمح، نسير معا حتى ميدان الجيزة، نجلس في الكازينو بقرب الميدان، نسيت اسمه الآن، حديقة هادئة تظللها الأشجار، نعم... تذكرت، سان سوسي.. شاهدنا فيلم سيدتي الجميلة لأودري هيبورن وريكس هاريسون معا، يومها زاد اقترابنا من بعضنا البعض، تشابكت أيدينا مع أغنيات أودري هيبورن وهي تتحول إلى بيجماليون آسرة الجمال والعذوبة... في

نفس الوقت، تواصل ترددي عليها في بيتها بمصر الجديدة وتبادلنا القبلة الأولى، لم تكن أمها بالمنزل، اقتربنا.. تلامسنا.. تبادلنا القبلات الجارة وانكمشت بعدها في حضني حتى سمعنا صوت عودة أمها من الخارج.

ودعتها عائدا إلى البيت وأنا في حالة من النشوة والارتباك. فكرت فيما حدث بيننا، القبلة الأولى لها وقع في النفس. هل هو الحب؟.. أم مجرد الاحتياج؟.. سرت أحاول أن أقارن بين مشاعري معها ومع سميحة. لا.. هناك فرق.. ما هو؟.. هل هو الفرق بين الخبرة والبكارة؟.. تختلف القبلة في الحالتين.. قبلتي لسميحة.. هي نوع من الإقدام.. الجسارة.. الثقة من الاكتمال.. ربما الشعور بالقوة والامتلاك.. لكن قبلتي مع هالة فيها شيء مختلف.. ربما التوجس.. الدهشة.. الاكتشاف.. ويا لروعة الرجفة التي صاحبتها.. استقللت المترو وأنا تائه في عالمي الجديد.

أوشك العام الدراسي على الانتهاء، بدأنا الاستعدادات النهائية لعرض المسرحية في مسابقة الجامعات. انتظرت ليلة العرض بقلق وتوتر، أريد أن أثبت نفسي في المسرح الجامعي لمواصلة طريقي نحو الأدوار الرئيسية في العروض القادمة. حضر الحفل كالعادة جمهرة من الصحفيين المهتمين بالمسرح وكبار رجال المسرح في مصر، فرصة للظهور أمام الوسط الفني والمخرجين، من يدري، لعل وعسى. دعوت هالة ووالدتها إلى العرض وأكدت عليهما بضرورة الحضور.

مرت ليلة العرض بسلام وقدمت الفرقة عرضا ناجحا شعرنا

t.me/qurssan

به من استجابة جمهور المشاهدين خلال وفي نهاية العرض. شعرت ليلتها أنني أضع قدمي بثبات في عالم الفن، فهذا أكبر عرض جماهيري يحظى بالحضور والاهتمام لهذا العدد الهام من الشخصيات بالمجال المسرحي والفني عموما، حضر كذلك عدد من الصحافيين المهتمين بالمسرح وصفحات الثقافة عموما، دارت رأسي بنشوة غريبة وتنامت الأحلام.

عرفت من هالة أنها ستسافر بعد الامتحانات إلى أبيها في ليبيا، فهمت منها أنها اعتادت أن تمضي جزءا من الإجازة كل عام مع أبيها. كانت تتحدث عن أبيها بفخر وحماسة. بازدياد الألفة بيننا شعرت منها أنها تنحاز إلى جانب أبيها، قالت لي إن أمها هي السبب في الانفصال لصعوبة طباعها، سربت وسط حديثها ما فهمت منه أن أمها على قدر من الأنانية، وتقضي معظم الوقت في نادي هليوبوليس مع صديقاتها وأن أبيها حاول جاهدا إصلاح الأمور لكن محاولاته فشلت في النهاية فوافق على طلبها الانفصال. فهمت منها أن أبيها يتولى كافة مصاريف الأسرة رغم إسراف أمها وإنفاقها ببذخ وبدون تفكير، واضح من كلامها ومن مستوى معيشتها أن أبيها متيسر ماديا وعمله ناجح في ليبيا.

بدأت الاستعدادات النهائية للامتحانات، كنت بالطبع في حال أفضل من السنة الماضية، شعور بأنني أفضل تمكنا من المواد الدراسية أو فلنقل أكثر اعتيادا ومتابعة، لاشك أنني بذلت مجهودا أفضل في محاولات الحضور والاستذكار، هالة كان لها دور فيما أتصور منذ استعانت بي في دروس الميكانيكا وبداية مذاكرتنا معا،

نوع من الرغبة في إثبات الذات واحترام النفس، ساعد على ذلك أيضًا انخراطي في فرقة المسرح الجامعي واختياري للتمثيل في عرض تاجر البندقية. كما لو كان قد حدث نوع من التوازن النفسي أو القبول بالأمر الواقع مع ذكريات التفوق الدراسي السابقة في المرحلة الثانوية وما قبلها. بذلت مجهودا كبيرا في الأسبوع الأخير قبل بداية الامتحانات في المراجعة والتمرين على حل مسائل الامتحانات، كنت أنام ساعات قليلة ولا أخرج من البيت، نوع من التيقظ افتقدته في السنة الماضية ورغبة في تخطي الامتحانات هذه المرة، كأنني استعدت كبريائي العلمي مرة أخرى. بدأت الامتحانات ودارت عجلتها، أعود من الامتحان سريعا لأستريح لسويعات قليلة أروح فيها في نوم عميق من أثر السهر المتوالي ثم أستيقظ متحفزا لامتحانات مواد اليوم التالي. طلبت هالة أن نراجع مادة الميكانيكا معا ليلة الامتحان، قبلت إحراجا منها على مضض، كنت أفضل التركيز بمفردي في البيت، عموما أنا أستوعب الميكانيكا جيدا ولن تحتاج منيِّ إلى مجهود كبير، ذهبت إليها يومها بعد راحة قصيرة بالبيت وقضينا السهرة في المراجعة حتى قرب الفجر، عدت بعدها إلى البيت مسرعا للاستعداد للذهاب للكلية لامتحانات اليوم دون نوم. أخذت حماما سريعا واستبدلت ملابسي للتوجه للامتحانات، جاء الامتحان معقولا وشعرت بالثقة في إجاباتي، اطمأننت سريعا على هالة ثم انطلقت للبيت وأنا أقاوم النوم بصعوبة، كان يوما مرهقا لكنه مر على خير.

اقتربنا من نهاية فترة الامتحانات العصيبة، اتفقنا أنا وهالة على

t.me/qurssan

الذهاب إلى السينما بعد انتهاء الامتحانات، اقترحت عليها الذهاب إلى سينما صيفية احتفالا بدخول فصل الصيف وبدء الإجازة، وقع اختيارنا على سينما حديقة النصر بشارع إبراهيم باشا الذي تغير اسمه إلى شارع الجمهورية بعد الثورة، أحببنا أن نعاود مشاهدة فيلم سيدتي الجميلة الذي تعرضه مع فيلم لبتي ديفيز. لم يكن السهر مشكلة بالنسبة لهالة، فأمها أيضًا معتادة على السهر خارج البيت مع صديقاتها للعب الكوتشينة، التقينا ليلتها أمام السينما وقضينا سهرة ممتعة مع الفيلمين، تمثيل بتي ديفيز العظيم وبهجة فيلم «سيدتي الجميلة» الذي سعدنا بمشاهدته للمرة الثانية، واستمتعنا بأغانيه الجميلة مع خفة ظل أودري هيبورن الآسرة.

أصرت هالة على توصيلي للبيت، كان السائق ينتظرها خارج السينما بعد أن أوصلها، عرفت منها أنها ستسافر إلى أبيها في ليبيا بعد أيام، دعتني إلى حفلة صغيرة عندها بالبيت، قالت إن صديقاتها سيحضرن لتوديعها وإنها ستنتظرني.

ودعتها وصعدت إلى البيت وقد حل عليَّ تعب العام الدراسي كله وفترة الامتحانات، بذلت مجهودا كبيرا لكي أستطيع متابعة الدراسة مع انشغالي ببروفات المسرحية والاستعدادات لعرضها، كان الجميع نياما عندما دخلت إلى البيت، تسحبت إلى غرفتي واستبدلت ملابسي وأتممت استعدادي للنوم، دار شريط العام في ذهني سريعا وتتابعت التساؤلات... هل أنا أريد فعلا أن أتخرج في كلية الهندسة؟... وهل سأعمل بالهندسة ؟... والمسرح؟... أنا لا أعتبر المسرح هواية فقط... هذا هو المجال الذي أريد أن

أقضي عمري فيه... طَيِّب لماذا كل هذا التشتت والمجهود طالما لن أعمل بالهندسة، أنا مازلت في السنة الإعدادية وإذا نجحت سأنتقل إلى السنة الأولى، مازال أمامي حتى السنة الرابعة... هل سأستطيع احتمال كل هذه المدة في مجال لا أنوي العمل به؟... وهل سأستطيع التوفيق بين دراسة الهندسة الصعبة ونشاطي المسرحي؟... لم أصل إلى إجابات فأرجأت التفكير في المستقبل، لننتظر نتيجة الامتحانات وبعدها يحلها ربنا... لم أستطع النوم بسهولة ليلتها رغم إرهاقي الشديد، يبدو أن النوم يستعصي على الإجهاد الزائد... أتذكر تلك الليلة جيدا... فكرت في المستقبل... في هالة.. ما هي العلاقة التي بيننا؟... شعرت بدرجة من الانجذاب ناحيتها.. وقد بادلتني الشعور... تغير حالي منذ طلبت الاستعانة بي في دروس الميكانيكا... اهتممت بالدراسة.. وبها.. لكن هل هو شعور الحب؟... لست متأكدا... فأنا أفكر في غيرها... أشتاق إلى سميحة... تمتعني... تشبعني... المصيبة أنني... غريبة... أفكر في أمها أيضًا... جذابة وتثيرني بنت الإيه... لا يا راجل.. معقول؟.. البنت وأمها.... ما هذه اللخبطة؟... نام الله يخرب بيتك.. اتخمد... ظلت الأفكار تتقافز إلى ذهني وأنا أحاول النوم... لا أدري متى استسلمت للنعاس ليلتها، لكني صحوت في ظهيرة اليوم التالي وأنا أشعر بالإنهاك.

لم أكد أفيق من نومي حتى جاءني خبر سيئ حزنت له جدًّا، اتصل بي أحد الزملاء ليبلغني بوفاة صلاح أخي مصطفى، قال لي إن جنازته كانت اليوم بعد صلاة الظهر وإن العزاء مساء اليوم. يا ساتر

t.me/qurssan

يا رب، أهكذ تضيع الرجال؟.. لماذا؟.. ها هي نتيجة التعذيب والإهمال الطبي في المعتقلات.. ماذا كان سيخسر عبد الناصر من معاملة المعتقلين السياسيين معاملة آدمية؟.. ولماذا الاعتقال من الأساس؟.. إذا كانت هناك جريمة فليطبق القانون.. نظام ثوري يقف إلى جوار المناضلين السياسيين والثوريين في أنحاء آسيا وأفريقيا ويسحق سياسييه في بلده.. رجل له كل هذا التأييد الشعبي الكاسح ويخشى بضعة مئات أو آلاف من المعارضين السياسيين، وليته يخشاهم فقط، بل يعتقلهم وينكل بهم حد التعذيب والإهمال الطبي المريب... يموت بعضهم في المعتقلات ويلحق بهم البعض الآخر بعد الإفراج عنهم منهكين ومرضى.

أمضيت النهار واجما حتى حل المساء فنهضت لأداء واجب العزاء، جلست مع مصطفى بسرادق العزاء المقام بشارعهم حتى غادر المعزون وبدأ العمال في إزالة السرادق، لم أشأ أن أتركه ولم أدرِ ماذا أفعل لأنتشله من حالة الحزن التي كان فيها، كان أيضًا شديد الخشية على أمه من وفاة ابنها البكر، تركته منهكا بعد العزاء وسرت في شارع شبرا عائدا إلى البيت وأنا تائه عما حولي.

يوم حفلة وداع هالة، تأنقتُ وتجملتُ قبل الذهاب، ليس من عادتي الاهتمام الزائد بمظهري، لكنه حدث يومها، رغم زياراتي المتكررة لها إلا أنني كنت على قدر من الارتباك والتوتر وأنا أنتظر بالباب. فتحت هالة الباب واستقبلتني بترحاب المحبين، كأنها تشعرني بمكانة خاصة لي بين المدعوين وهي تقدمني، كل الحضور بنات وأنا الولد الوحيد. زاد حرجي وجلست بسرعة

إلى أقرب مقعد شاغر لمحته. دخلت والدتها بعد برهة ورحبت بي بشكل حميم بين ضجيج الأحاديث وانطلاق الضحكات وحركة المدعوات في حماسة وابتهاج. جاءت خادمة بصينية عليها أكواب العصائر ودارت على الحضور، أخذت كوبا كيفما اتفق دون اهتمام لمحتواه وجلست أرقب الموقف بأعين زائغة من فرط الارتباك. جلست والدتها إلى جواري، عطر أخاذ ينبعث منها أدار رأسي، استرقت النظر إليها كلما توجهت إليها إحدى المدعوات بالحديث، طنط شويكار، طنط شوشو، أول مرة أدقق في تفاصيلها وأعرف اسمها، امرأة طاغية الأنوثة والجاذبية. تبادلنا بعض الأحاديث المتفرقة ثم نهضت بعد قليل ودعتنا إلى غرفة الطعام، طاولة عامرة بأصناف الحلوى والمخبوزات، انهمك الحضور في تناول الحلوى وشرب المشروبات الساخنة ثم عدنا جميعا إلى غرفة الاستقبال. بدأت المدعوات في الانصراف تباعا، نهضتُ للاستئذان بالانصراف أيضًا وأنا أتطلع للهروب من جو المجاملات الاجتماعية الذي لا أميل إليه عادة، رافقتني هالة ووالدتها لوداعي، أوصتني بأن أخبر والدتها بنتائج الامتحانات التفصيلية عند ظهور النتيجة حتى تبلغها لها تلفونيا، أكدت والدتها أنها ستنتظر زيارتي بعد ظهور النتيجة لأبلغها بها، قالت لي بعشم إنها ستنتظر مكالمة تلفونية مني لأبلغها بموعد حضوري للزيارة لإبلاغها بالنتيجة التفصيلية.

نزلت مسرعا بعد وداع هالة، كنت كمن يريد الهروب، لا أدري لِمَ، مشاعر متضاربة من الحرج والخجل والارتباك. جلست في

t.me/qurssan

المترو سارحا بأفكاري بين هالة وأمها، سأفتقد هالة لا شك، لكنني متشوق لظهور النتيجة وزيارة الأم، طنط شوشو، سحرتني أنوثتها في تلك الليلة وسيطرت على خيالي. حاولت طرد الفكرة من ذهني، لكنها ظلت تراودني رغما عني. كلما حاولت التفكير في هالة، تتراجع إلى مؤخرة المشهد وتحل أمها محلها، حلمت بها ليلتها حتى البلل.

مرت الأيام الأولى لإجازة الصيف بطيئة مملة حتى دهمها حدث مرض ميشيل المفاجئ، لم يكن قد مضت أيام على نهاية الامتحانات، ارتفعت درجة حرارته ارتفاعا شديدا واشتكى من صداع مؤلم، لم يستجب للمسكنات ومخفضات الحرارة المألوفة، تفاقمت الحالة وبدأ في الهذيان، أحضرنا له طبيبا بالبيت فأمر بنقله فورا لمستشفى الحميات، حاولنا مناقشة الطبيب ومراجعته في الأمر فنهرنا وقال إنه يشتبه في إصابته بالحمى الشوكية وهناك خطر على حياته. اضطررنا في النهاية للذهاب به إلى مستشفى حميات العباسية. أدخلوه على الفور وحجزوه بالمستشفى. أصيبت أمي باضطراب شديد ولم تتوقف عن البكاء، كذلك كانت حالة تيته مريم.

انقضى الأسبوع في قلق وتوجس وزيارات لمستشفى الحميات، لم تتحسن الحالة ودخل في غيبوبة فارق الحياة بعدها وسط ذهول البيت كله وصدمته. مصيبة مفاجئة ألمت بالأسرة دون سابق إنذار لتفقد في أعقابها ابنها البكر. منذ عودته مصابا من اليمن وهو ضعيف الصحة ودائم المرض. تأثرت حالته الصحية

بعد إصابته بحرب اليمن رغم علاجه بمستشفيات القوات المسلحة لفترة طويلة حتى استرد صحته نسبيا، لكن حالته الصحية تأثرت ومقاومته للمرض أصبحت ضعيفة.

دخل البيت في فترة حزن شديد، ليس سهلا فقدان شاب في مقتبل العمر، وهو الابن البكر وأول فرحة الأسرة. لم تتوقف ماما وتيته عن البكاء، أصيبت نادية بالرعب وكانت تستيقظ من نومها على نوبات صراخ وبكاء. زاد خروج أبي من المنزل وكان يقضي معظم أوقاته بالخارج ولا يعود إلا مع انتصاف الليل. يخرج شاردا ويعود منكسرا مهزوما. فقدان ميشيل والجو العام أدخلني في حالة من الاكتئاب أنستني الترقب والحماسة لنتيجة الامتحانات المنتظرة... أول حالة فقدان ومواجهة للموت بعد أن شببت وبدأت أستوعب الدنيا وأحداثها. صحيح أنني أتذكر بعض الذكريات المتفرقة البعيدة عن وفاة جدي إبراهيم، لكنني كنت صغيرا وقتها ولا أستوعب معنى الموت والفراق. لكن الأمر اختلف مع تقدم العمر. كنت بعيدا عن ميشيل ولي اهتماماتي وأصحابي، لكنه حقيقة في حياتي، أخي، معي في البيت، كنت أنظر إليه دائما كأخي الأكبر.... هو موجود وكفى... وأنا منغمس في حياتي الشخصية.. لكن.. أن يرحل فجأة... يموت... يختفي... أن أفقده... لن أتمكن من رؤيته مرة أخرى... معانٍ فاقت تصوري ولم أستطع استيعابها بسهولة. شعرت أن جزءا منيٍّ قد ضاع، إلى الأبد، شعور قاتم مُقبض اعتصر قلبي. كلما دخلت إلى الفراش كل ليلة أبدأ في بكاء صامت لوقت طويل.

قابلت نبيل زميلي بالكلية مصادفة وأنا واقف على المحطة أنتظر

t.me/qurssan

وصول الترام، أبلغني أن نتيجة الامتحانات ستعلن في اليوم التالي، مر على الكلية وعرف بالخبر. سمعته بلامبالاة. عرض أن نذهب معا لمعرفة النتيجة، لم أمانع، اتفقنا على اللقاء في اليوم التالي على مقهى المنظر الجميل بأول جزيرة بدران.

جلست على المقهى أرتشف الشاي وأفكر في طنط شوشو وأنا أنتظر نبيل للذهاب إلى الكلية لمعرفة النتيجة. عربد قلبي بصدري وأنا أتصورني اتصل بها تلفونيا لأبلغها بنتيجة هالة. أشعلت سيجارة وسحبت نفسا عميقا. نفثت الدخان وأنا أراه يتشكل على صورتها، جسد عارم وشعر مسترسل، أو هكذا تصورته، قطع خيالاتي صوت نبيل معتذرا عن تأخيره، راحت عليه نومة وأمه نسيت أن توقظه كما طلب منها، جلس يلتقط أنفاسه وهو يطلب واحد شاي سريعا، شربنا الشاي ودفعنا الحساب ثم توجهنا إلى محطة الأتوبيس أمام أوركو لنستقل أتوبيس ١٢٤ إلى الجامعة.

مشاعر متباينة اجتاحتني في الطريق إلى الكلية، هل سأنجح؟... مصيبة لو تكرر رسوبي... ماذا ستكون العواقب؟... هل سأتحمل؟... أنا الذي لم يعرف طيلة حياته الدراسية سوى التفوق، هل يمكن أن يتكرر رسوبي؟... تسارعت دقات قلبي مع الاقتراب من الكلية، جف حلقي وضاق نَفَسي، ماذا سأقول لهم في البيت وهم في هذه الظروف السيئة؟... راح عقلي يموج بالأفكار المتضاربة حتى وصلنا.. ارتفعت وتيرة التوتر وعربد قلبي كالمخبول ينبض بجنون كدت لا أحتمله. أسرعنا الخطى في اتجاه الكلية ودخلنا نبحث عن لوحة الإعلانات المعلقة عليها النتائج.

غامت الرؤية أمام عيني وأنا أمسح سطور النتيجة.. أين اسمي؟... لمحت اسم هالة أولا ولم أدقق في تفاصيل نتيجتها، أعدت المرور على الأسماء يائسا.. فجأة لمحت اسمى بين الناجحين.. انهدت قواي فجأة وكادت ساقاي ألا تحملاني... أخيرا انزاحت الغمة... نجحت... تهلل نبيل لنجاحه وسألني عن نتيجتي، أجبته بنجاحي وأنا ألهث.. تبادلنا القبلات والأحضان وابتعدنا عن اللوحة لنستوعب الحدث. استعرت ورقة من أحد الزملاء وسجلت نتيجتي ونتيجة هالة بالتفصيل. غادرنا الكلية وأنا أجر قدميَّ بعناء كأنهما كيسا رمل.

عدت إلى البيت لأبلغهم بالنتيجة. خبر طيب لعله يواسي قليلا حزنهم العميق، أعددت كوب شاي شربته سريعا في غرفتي ونمت حتى المساء.

فتحت عينيَّ وقد حل الظلام، انعكست أضواء الشارع على حائط الغرفة أمامي وأنا مستلقٍ على السرير، ياه... راحة غريبة أشعر بها... نمت نوما عميقا لم أتذوق حلاوته منذ زمن، تمطأت وتكاسلت في السرير.. كم الساعة الآن؟.. لا يهم.. يجب أن أنهض.. لِمَ؟.. ماذا ستلحق؟.. تذكرت والدة هالة والنتيجة.. يجب أن أتصل بها.. ياه... لا أملك الهمة للنهوض واستبدال ملابسي ثم النزول للاتصال بها.. الصباح رباح... قد تدعوني لزيارتها.. يا سلام.. امرأة جسيمة... نظرت إلى الساعة في يدي فلم أتبينها في الظلام، قمت متكاسلا وأضأت النور، الساعة الثامنة والنصف... سأرجئ الموضوع إلى الغد، أشعر بالكسل. لم آكل

t.me/qurssan

منذ الصباح، جوعان، خرجت إلى المطبخ أستطلع الموجود، حلة محشي باذنجان أبيض على البوتاجاز، التقطت واحدة وأكلتها بشهية، أتبعتها بعدة محشيات بلعتها بنهم شديد، فأنا أعشق محشي الباذنجان الأبيض، فتحت الثلاجة وشربت من الزجاجة المثلجة، أفرغت الزجاجة في جوفي من فرط العطش وتجشأت بأريحية ثم عدت إلى غرفتي لأواصل التكاسل حتى الصباح. لم أستغرق وقتا لمعاودة النوم. حلمت بطنط شوشو حلما عجبا.

استيقظت مبكرا في الصباح بعد جرعة الراحة الطويلة منذ عرفت النتيجة بالأمس، راحة كنت أحتاجها حقا، تحركت ببطء وروقان ظريف في الصباح، وبعد إفطار الفول المدمس فكرت في الاستعداد للنزول للاتصال بوالدة هالة لكني شعرت بالكسل فقررت إرجاء الاتصال للمساء، كأنني أقدّم رجلا وأؤخر أخرى، دخلت إلى غرفتي واستلقيت على الفراش أستمع إلى الراديو، في المساء استعددت للنزول، استجمعت طاقتي للاتصال بطنط شوشو وأنا أغادر البيت، عبرت الطريق إلى محل السجاير والحلويات حيث التلفون الذي يستعمله سكان الحي، اتصلت بالرقم، اضطربت أنفاسي وأنا أنتظر الرد، ردت الشغالة فطلبت الحديث إلى مدام شويكار وأبلغتها باسمي، سمعت صوتها بعد برهة وجيزة مُرَحِّبًا، خفق قلبي بعنف وأنا أبلغها بنجاح هالة. تهللت ثم سألتني على نتيجتي، قالت لي بحزم إنها ستنتظر حضوري مساء اليوم التالي لإبلاغها بالنتيجة تفصيليا في جميع العلوم لأنها ستسافر إلى الإسكندرية بعد يومين ولتبلغ هالة تلفونيا قبل سفرها، وأيضًا

للاحتفال بنجاحنا أنا وهالة. ودعتها وسرت في طريقي نحو منتصف المدينة بدون غاية محددة في ذهني، كنت سارحا بفكري في فراغ مشوش به الكثير من الموضوعات المختلطة بين طنط شوشو والزيارة والنجاح والمسرح ودراسة الهندسة.

عبرت نفق شبرا وأكملت عفويا، عند مقهى أم كلثوم قررت الدخول، صعدت إلى الدور الأول مبتعدا عن ضجيج الدور الأرضي ولاعبي الكوتشينة والطاولة المتحمسين. جلست أستمع إلى الست، كانت أغنية جددت حبك ليه، وافقت ذوقي فابتهجت. طلبت شايا وجلست منسجما مع لحن السنباطي وكلمات رامي، ها قد اجتزت عقبة الامتحان وانتقلت للسنة الأولى، أي تخصص سأختار؟.. وهل ستكمل دراسة الهندسة وتعمل مهندسا؟.. والمسرح؟.. لكن هل ستنجح في التمثيل كمحترف؟.. الهواية غير الاحتراف.. وكيف نجح من احترف التمثيل؟.. التمثيل هوايتي وحياتي.. وبعدين إيه حكاية طنط شوشو دي!.. الست جذابة جدًّا.. لكنها أم هالة.. وهالة تميل إليك.. أنا أشعر بذلك واضحا.. ولكن.. إنه مجرد إعجاب صامت منيٍّ.. هل تصورت أنك ستكون دون جوان معها؟.. بلا خيبة.. إعجاب بامرأة مغرية.. مثل الإعجاب بنجوم السينما.. ماذا يحدث لو أعجب الشاب بواحدة حلوة.. لكن المرأة تثيرني جدًّا.. يا نهار أسود لو تعرف هالة ما أفكر فيه!.. بلاش تخاريف وهلوسة.. هي حلوة وأنت معجب.. ماتحبكهاش.. يعني إعجاب سري مثل أي إعجاب بأي واحدة حلوة وجذابة.. أنهت الست جددت حبك ليه وبدأت في غناء عودت عيني.

t.me/qurssan

خرجت من مقهى أم كلثوم وعبرت الشارع إلى البار المقابل، دخلت وطلبت زجاجة بيرة شربتها على مهل واستمتعت بمزة الفول النابت قبل أن أعود إلى البيت بعد انتصاف الليل. صورتها داعبت خيالي في الفراش حتى أكرمني النعاس.

مر النهار التالي بطيئا حتى حل المساء، الانتظار ممل، أخذت دُشا أنعشني من عرق النهار الحار ثم ارتديت ملابس الخروج بعد تدقيق وتردد في الاختيار ليسا من طبائعي، تعطرت برشات من الكلونيا المتاحة وراجعت مظهري في المرآة عدة مرات قبل أن أغادر البيت في طريقي لزيارة بيت هالة تلبية للدعوة المنتظرة بفارغ الصبر.

استقللت مترو مصر الجديدة من ميدان رمسيس وجلست بجوار الشباك. تحرك المترو وطاشت ضربات قلبي في صدري متسارعة حتى أرهقتني وأصمت أذنيّ، كأنها طبول غابات أفريقيا، تدق مع الرغبة المتأججة في احتفالات القبائل العطشى للارتواء والإشباع. أي إشباع.

ترجلت من المترو بنشاط وتوجهت لبيت هالة، فتحت لي الشغالة، سيدة في نهاية الحلقة الخامسة من العمر ملامحها تشع بالطيبة، بدت ملاحظاتي أكثر حدة في تلك الليلة، دعتني للدخول وأجلستني في غرفة الاستقبال.. دقيقة واحدة أبلغ الهانم.. جلست أتأمل المكان وتفاصيله بانتباه أكثر من المرات السابقة. هلت طنط شوشو بصوتها المرحب وعبير عطرها الساحر، هنأتني بحرارة على النجاح وجلست إلى جواري... ها... أرني نتيجة هالة بالتفصيل.. لقد قلت لي بالتلفون إنها نجحت بتقدير جيد، أخرجت من جيبي

الورقة التي كتبت فيه النتائج وقرأتها لها، أحضرت ورقة وقلما ونقلت النتائج من ورقتي البائسة التي استعرتها من زميل أمام لوحة الإعلانات بالكلية لأسجل النتيجة عليها ولم أهتم بنقلها في ورقة أكثر نظافة.. كان من المفروض أن أنقلها في ورقة مرتبة، قلت لنفسي وهي تنسخ النتيجة.. جاءت الشغالة بصينية عليها كوبا عصير ليمون مثلج. جلسنا نتبادل أحاديث متفرقة سألتني ضمنها عن نشاطي المسرحي الذي أبلغتها إنه متوقف بسبب فترة المذاكرة والامتحانات. أبلغتني إنها ستسافر إلى الإسكندرية صباح الغد لقضاء الإجازة الصيفية، قالت لي فجأة.. ما رأيك تجيء معي لتقضي يومين استجماما من الامتحانات والمذاكرة.. بدا عليّ المفاجأة والتردد فأردفت.. عندنا بيت كبير في المعمورة وستكون لك غرفة خاصة.. سأكون بمفردي وستسليني.. هيا.. لا تتردد.. تلعثمت فحسمت الأمر بقولها إنها ستتحرك بالسيارة الساعة العاشرة صباحا ويمكن أن تمر لتأخذني من أي مكان قريب لبيتي في طريقها، سهلت كل الأمور بسرعة وأريحية، فكرت قليلا وأنا لا أصدق نفسي، لا أريد أن أضيّع الفرصة، قلت لها بعد أن حسمت الأمر.. ليكن، سأنتظر في ميدان المحطة في أول شارع رمسيس. عند مدخل الميدان. نهضت غير مصدق نفسي وأنا أستأذن في الانصراف، أوصلتني إلى باب الشقة وهي تؤكد أنها ستمر لتأخذني حوالي العاشرة والنصف، قلت لها إنني سأكون منتظرا قبل الموعد. أسرعت نازلا الدرج كمن يهرب قبل أن ترجع في كلامها.

مشيت مشتت الفكر حتى المحطة واستقللت المترو عائدا،

t.me/qurssan

دارت بي الأفكار تتصارع في رأسي.. بهذه السهولة تدعوني للسفر معها!.. إنها تعاملني كابنها.. ألستُ زميلا لابنتها في الكلية وصديقا لها؟ لم ألحظ منها أي اهتمام خاص بي كشاب.. لكنني لا يمكن أن أعاملها كأمي.. إنها تثيرني بشدة.. الست تتعامل معي ببراءة وطبيعية.. فأنا في النهاية في عمر ابنتها.. هل سأستطيع المقاومة؟.. يجب أن أحسن التصرف إلى أبعد حد.. إنها تراودني في الأحلام كأنثى.. وأنثى مغرية.. هل ستكون لك حكاية معها؟!.. وهالة؟.. يا نهار أسود!.. ربنا يستر.. لكني في الحقيقة أتطلع إلى افتراسها.. اتلمّ واحترم نفسك.. احترم صداقتك لهالة على الأقل.. أخذت الأفكار تأخذني بعيدا وتعيدني إلى نقطة الصفر.. الدعوة أربكت كياني ولعبت بعقلي. نزلت بميدان رمسيس وعبرت كوبري شبرا إلى البيت.

أبلغتهم في البيت بسفري إلى الإسكندرية مع أصحابي، كان بجيبي جنيه وبضعة قروش، طلبت من ماما نقودا للسفر فأعطتني ثلاثة جنيهات، قالت لي هذه هدية نجاحك، لا بأس، كل ما أحتاجه مصاريفي النثرية، الإقامة ببيت هالة ولن تكلفني شيئا. أعددت حقيبة السفر وركزت فكري على عدم نسيان المايوه حالما بأيام على شاطئ البحر في المعمورة مع شويكار هانم.. يا خرابي..

نمت بصعوبة ليلتها من فرط الانفعال والترقب، صورتها لم تفارق ذهني وخيالات لقصص وتفاصيل تنهمر على ذهني. طلبت أن يوقظوني في الثامنة صباحا، استيقظت قبلها بمفردي، استعددت

للنزول وودعتهم بالبيت قبل العاشرة، المشوار لا يستغرق عشر دقائق سيرا علي الأقدام من البيت عبورا بكوبري شبرا وحتى أول شارع رمسيس عند محطة كوبري الليمون. وصلت قبل العاشرة بدقائق، هي قالت إنها ستتحرك من البيت في مصر الجديدة الساعة العاشرة، لا بأس من الوصول مبكرا، وضعت الحقيبة على الرصيف ووقفت أنتظر بلهفة وصبر نافد.

وصلت السيارة بعد العاشرة والنصف بقليل، نزل السائق وأخذ الحقيبة ليضعها في شنطة السيارة، فتح لي الباب أولا إلى جوار مدام شويكار. رحبت بي وأنا أتخذ مكاني إلى جوارها ثم انطلقت السيارة في طريقها إلى الإسكندرية عبر الطريق الزراعي.

حرج بالغ شعرت به وأنا أجلس إلى جوارها في السيارة. بادَرَت قائلة، هالة اتصلت بالأمس وترسل لك السلام، أبلغتها النتيجة التفصيلية.. ابتسمتُ ابتسامة بلهاء وتساءلتُ وأنا أبلع ريقي بالعافية.. حضرتك قلتِ لها أنك دعوتِني إلى الإسكندرية؟ لم أدرِ كيف أوجه إليها الحديث، لا أستسيغ أن أخاطبها بطنط.. أو مدام.. ارتسمت ابتسامة خافتة على ثغرها وقالت بشكل عفوي.. لم تجئ مناسبة.. ثم استطردت.. الخط كان غير واضح وكنا نسمع بعضنا البعض بصعوبة.. ران صمت بيننا بعدها قطعته بتقديم ساندوتش لي.. حَضّرتُ ساندوتشات للرحلة.. تفضل.. ساندوتش بيض.. تناولت الساندوتش منها شاكرا.. أعطت واحدًا للسائق وأخذت هي واحدا.. انهمكنا في الأكل لبرهة حتى غادرنا المدينة ودخلنا إلى الطريق الزراعي..

t.me/qurssan

أخرجت علبة سجائر دَنهيل من حقيبتها وسألتني، هل تدخن؟.. قليلا.. قدمت لي سيجارة وأخرجت ولاعة فاخرة ذهبية اللون عرفت بعدها أنها ماركة ديبون، أشعلت لي السيجارة ثم أشعلت سيجارتها. أخذتُ نفسا عميقا باستمتاع، فالدخان له رائحة ساحرة، قلت لها.. حضرتك ذوقك رائع في التدخين.. انتفضت فجأت قائلة.. إيه يا نبيل حكاية حضرتك دي.. آخر مرة تقولها.. أنا هالة بتقولى يا شوشو أو يا شويكار.. بتحسسني إني أبلة الناظرة.. هززت رأسي مبتسما ولم أعرف كيف أعلق..

انتصف النهار وقد عبرنا كوبري بنها وتوغلنا بدلتا النيل وغيطانها الوافرة بخير الأرض، سرحت مع شريط المناظر العامر بالفلاحين السائرين في دعة يسحبون الجواميس والأبقار خلفهم، يقصدون وجه الكريم بالرجاء في الستر والسلامة... إيقاع الريف المضبوط منذ فجر الإنسانية. بدأت في الاسترخاء بفعل الطبيعة الساحرة من حولي، تشممت رائحة عطرها الساحر فشعرت بإثارة مؤرقة، انتصبت فاعتراني الخجل خشية أن تلحظ. تململت في مكاني مبتعدا عنها قليلا وملتفتا إلى النافذة في محاولة للستر والتمويه، قالت بسعادة.. سنصل في منتصف اليوم وسننزل إلى البحر فورا.. نفتتح المصيف ونغسل حر الطريق.. نظرت إليها مبتسما ووافقتها على اقتراحها بترحيب.. الحقيقة هي تبدو شديدة الحيوية والإقبال على الحياة، حاولت أن أقدر عمرها.. أتصور أنها في الأربعين.. أو تزيد قليلا.. لو كانت هالة في عمري أو أصغر قليلا فهذا تقدير معقول.. إلا أنها تبدو أصغر من سنها.. كيف طلقها زوجها؟!... من يدري؟...

بدأت روائح الإسكندرية تهل مع اقترابنا.. رائحة البحر.. نعم للبحر رائحة لا تخطئها الأنف من على البعد.. لكم تمنيت أن أعيش في الإسكندرية.. اعتدنا أنا والأسرة على قضاء جزء من شهر سبتمبر من كل عام في المندرة.. فترة قصيرة تنسيك العام كله بحلاوتها وانطلاقها.. شقاوة الشاطئ والبحر وقصص الحب الصيفية العابرة.. مداعبات الماء أثناء الاستحمام بالبحر.. لعب عروستي في الأمسيات على الشواطئ بعد مغادرة ازدحام المصيفين.. وصلنا أخيرا، توقفت السيارة أمام شاليه على البحر مباشرة، أنزل السائق الحقائب ودخلنا نحن إلى الشاليه الذي تم تنظيفه قبل حضورنا، زوجة الحارس تقوم بأعمال التنظيف قبل وصول أصحاب الشاليهات.

أدخل السائق الحقائب وانصرف بعدها. عرفت أنه يترك السيارة أمام الشاليه ويذهب للإقامة عند أقاربه في محرم بك انتظارا لأوامر المدام. قالت لي بعد التقاط أنفاسنا من تعب الطريق وهي ترشدني إلى غرفتي.. هيا غيِّر هدومك وسأنتظرك في الفراندة لننطلق إلى البحر.

أغلقت باب الغرفة وأخرجت المايوه من الحقيبة، استبدلت ملابسي وخرجت إلى الشرفة، لم تكن قد جاءت بعد، طبعا.. الستات تحتاج وقتا أطول منا للاستعداد. هلت بعدها بمايوه أبيض في منتهى الأناقة على قوامها الممشوق، ارتبكت عندما شعرت بالإثارة وعاودت الانتصاب، سبقتها وأسرعت إلى الشاطئ حتى لا تلحظ شيئا.. يادي المصيبة!.. كيف سأتصرف

t.me/qurssan

أمام هذا الجمال وهذه الجاذبية المثيرة؟!.. جريت إلى الماء ونزلت بسرعة.. تبعتني وانطلقت سابحة بمهارة ورشاقة.. واضح أنها تجيد السباحة.. توقفت بعد مسافة واستدارت.. نادتني وهي تلوح.. هيا.. تعالَ.. وقفت مرتبكا فأنا لا أجيد العوم.. قلت لها خَجِلًا.. عادت سابحة حتى وصلت إلى حيث أقف في طولي.. قالت.. لازم تتعلم العوم.. سوف أعلمك.. المسألة بسيطة وسهلة.. وقفنا نتبادل الحديث منتعشَين ببرودة الماء.. بدأت أشعر ببعض الألفة مع مرور الوقت ونزول البحر.. زال قدر من الحرج الأوليّ الذي كنت أشعر به منذ الصباح.. التباسط أوجد قدرا من الألفة..

أمضينا بعض الوقت في الماء ثم خرجنا متجهَين إلى الشاليه، قالت سنأخذ حماما سريعا ثم نأكل لقمة، الشاليه به حمامان، دخلنا للاستحمام ثم خرجنا لتعد طعاما سريعا، كانت قد أحضرت وجبات جاهزة من القاهرة وضعها السائق في الثلاجة بعد وصولنا. جلسنا حول طاولة الطعام وأكلنا بشهية بعد عناء السفر ومجهود البحر. جلسنا بعدها في الشرفة في حالة استرخاء تداعبنا نسمات البحر المنعشة مع اقتراب الغروب.. قالت إنها ستذهب في المساء لزيارة بعض الصديقات في المعمورة.

قبل خروجها قالت لي إن الثلاجة ملأى بالمشروبات المثلجة والشاي والقهوة بالمطبخ. جلست بالشرفة بعد خروجها أتأمل المكان من حولي بجو المصيف المبهج. المستوى الاجتماعي للمصيّفين مرتفع عن مستوى مصيّفي المندرة. رحت أراقب الرائح

والجائي وقد بدأت أشعر بالنعاس مع حلول تعب النهار على جسمي المسترخي في نسمة المساء الساحرة. قمت إلى الثلاجة وأحضرت زجاجة بيبسي كولا أروي بها عطشي، لاحظت وجود زجاجات بيرة مثلجة اشتقت لزجاجة لكني خجلت واكتفيت بالبيبسي.

نعست على الكرسي فقمت وأغلقت الشرفة قبل أن أتوجه إلى غرفتي للنوم، كانت الساعة قد تعدت منتصف الليل. نمت نوما عميقا حتى الصباح لأستيقظ بعد التاسعة. غسلت وجهي ونزلت مترددا لشعوري ببعض الحرج، لكي أستطلع الأمر، كان الشاليه هادئا، استنتجت أنها مازالت نائمة. دخلتُ إلى المطبخ بهدوء لعمل الشاي، جاءت بعد قليل على صوت حركتي في المطبخ فيما يبدو، طلبت أن أعد لها كوب شاي معي، كانت ترتدي روبا خفيفا فوق ملابس النوم، خرجنا إلى الفراندة لتناول الشاي والبسكويت أمام البحر. نسمة الصباح المنعشة بعثت النشاط في جسدي، داعبت النسمة خصلات شعرها ليتطاير حول وجهها محيلا ملامحها البكر بلا ماكياج والمستيقظة لتوها إلى جمالٍ غجريٍّ أخّاذ. بعد قليل رن جرس الباب الخارجي معلنا قدوم زوجة الحارس التي تقوم بالتنظيف.

نهضت لإعطاء تعليماتها لزوجة الحارس وأعدت الإفطار. دعتني لتناول الإفطار، بعدها استعددنا للنزول إلى الشاطئ، قضينا الشطر الأول من النهار ما بين البحر ولعب الراكت، تجيد لعب الراكت كما تجيد السباحة، على العكس من إمكانياتي الرياضية

t.me/qurssan

المتواضعة. حاولت أن تعلمني مبادئ السباحة والوقوف في الماء في غير طولي بسلاسة وبدون تشنج. أمسكت بخصري بكفيها لتعطيني الأمان فتدغدت أعصابى وغطست فانتشلتني بخفة إلى طولي، استجمعت توازني واستردت أنفاسي. كدت احتضنها عندما تماسكت ولا أعرف كيف نجحت في كبح تلك الرغبة.

اقترحت أن نذهب إلى إبى قير لأكلة سمك في مطعم السمك الشهير هناك، الحقيقة أذهلني نشاطها الدائم وإقبالها الواضح على الحياة، عدنا إلى الشاليه للاستعداد، كانت زوجة الحارس قد أنهت عملها وبصدد الانصراف، بعد الاستحمام استبدلنا ملابسنا وتوجهنا إلى مطعم إبى قير بسيارتها، شعرت أنه قد مر وقت طويل منذ جئت إلى المعمورة بسبب ازدحام البرنامج نتيجة لنشاطها الشديد وحيويتها الفائقة. بمرور الوقت شعرت بالألفة معها نتيجة لبساطتها في التعامل، زال الحرج الذي كنت أشعر به في البداية وشعرت أنني أتعامل مع زميلة أو صديقة في مثل سني.

عدنا مع الغروب بعد أكلة سمك عظيمة، قضينا الأمسية في الشرفة في أحاديث متفرقة، سألتني بمكر حول علاقتي بهالة، أفهمتها أننا زميلان وصديقان منذ بدأنا في المذاكرة معا، أوحيت لها أنه لا توجد علاقة خاصة بيننا وأن العلاقة بدأت مصادفة عندما طلبت مني أن أشرح لها دروس الميكانيكا، سألتني عن نشاطي المسرحي ومدى تأثيره على دراستي وعن عائلتي، الفضول الأنثوي المعتاد.

في المساء جلسنا لمشاهدة التلفزيون بعد تناول عشاء خفيف،

تطرق الحديث إلى علاقتها بزوجها السابق والد هالة، فهمت أنها تزوجت في سن صغيرة قبل أن تكمل العشرين من عمرها وأن الخلافات بدأت تظهر بينهما مبكرا بعد ولادة هالة بفترة قصيرة. كان يكبرها بخمسة عشر عاما. جذبها رجولته ونجاحه المهني في البداية لكنها مع الوقت بدأت تشعر بعدم التوافق وأنها تسرعت في الزواج. أثنت على الرجل وذكرته بالخير. علقت أثناء الحديث على خطأ زواج البنت قبل أن تكمل العشرين من عمرها. قالت إنها شعرت بنوع من التغير أو النضج في مشاعرها بعد أن تعدت العشرين وخاضت تجربة الإنجاب. أشارت أيضًا إلى اختلاف الطبائع بينهما وأنهت حديثها بنبرة حزن، زفرت في أسى.. نصيب.. لمحتُ دمعة تتسرب من عينيها مسحتها سريعا بأناملها. شعرت برغبة عاتية في احتضانها، نهضت وأنا أقول.. سأشرب بيرة، هل تشاركينني؟.. نظرت إليَّ بمودة وأشارت بالإيجاب. كنت أريد أن أسرّي عنها لحظة الأسى التي استدعتها ذكريات عدم توفيقها في حياتها.

جلسنا نتابع مشاهدة برامج التلفزيون بدون اهتمام، لاحظت صمتها قبل أن تنهض لتنسحب للنوم.. قالت بغتة.. سأدخل للنوم.. تصبح على خير، دخلت إلى غرفتها فنهضت أنا أيضًا وأغلقت جهاز التلفزيون حتى لا أزعجها. توجهت إلى غرفتي ودخلت إلى السرير، كنت متيقظا ولم أشعر بالرغبة في النوم. مشهد دموعها التي تسللت من عينيها دون إرادتها ورغبتها في إخفائها سريعا هزني عاطفيا، شعرت بعاطفة قوية تجاهها، حتى الآن كان شعوري تجاهها هو الإعجاب بست ناضجة مثيرة.. الشهوة الغريزية لشاب

t.me/qurssan

أمام امرأة جذابة صعبة المنال بسبب الفارق الكبير بين وضعينا، شاب في نهايات سنى المراهقة وسيدة ناضجة.. والدة زميلة لي في الكلية.. أي في مقام أمي، وإن كانت أصغر منها كثيرا.. تدعوني إلى إجازة للمصيف إكراما لابنتها وامتنانا لمساعدتي لها في الدراسة.. لكن النفس أمارة بالسوء.. خاصة مع شاب يمور بالرغبة في أوج سنوات الحيوية والعنفوان.. لكني بعد رؤية دموعها شعرت بأنها مثل أختي الصغيرة.. أو محبوبتي الضعيفة.. إنسانة معذبة تبكي حظها العاثر.. لأول مرة أشعر بنوع من الثقة تجاهها.. حتى الآن كان شعوري تجاهها هو الحرج.. الخجل.. الاحترام.. وإن كان مشوبا بالإعجاب والرغبة.. لأول مرة أشعر تجاهها بنوع من الندية.. ربما التفوق.. أو درجة من الاستيعاب والاحتواء.. شعرت برغبة في التدخين فخرجت من الغرفة قاصدا الشرفة.. لاحظت ضوء الأباجورة الخافت في الصالة بمجرد خروجي من الغرفة.. توجهت للصالة بفضول فوجدتها تجلس على الكنبة بالصالة وهي تستر وجهها بكفيها وجسدها يرتجف.. اقتربت مضطربا فوجدتها تبكي بكاء حارا.. وقفت لبرهة إلى جوارها حائرا ثم ربتُّ على كتفها مواسيا دون أن تسعفني الكلمات.. زاد بكاؤها فجلست إلى جوارها واحتضنتها برفق بدون تفكير.. ارتمت في حضني وراحت في بكاء ملتاع.. ضممتها بقوة إلى صدري وأنا أربّت على كتفها محاولا تهدئتها.. استغرقت وقتا حتى خفت بكاؤها بعض الشيء.. مسحت دموعها بكفي.. نظرت إليّ نظرة امتنان واحتياج هزتني من الأعماق.. داعبت وجهها بكفي.. انتفضت.. اضطربت أنفاسها..

بدأت تتأوه تأوهات حارة سرعان ما ارتفعت إلى صرخات خافتة محمومة.. أثارتني صرخاتها بجنون فضممتها بقوة.. رفعت وجهها إليّ.. نظرت لي نظرة لم أرها من قبل هزتني من الأعماق.. نظرة فيها خليط من النداء والتوسل والاستغاثة.. رحنا بعدها في قبلة مشتعلة استسلمتْ بعدها تماما.. داعبتُ جسدها فانتفضت بالرغبة.. كانت ترتدي قميص النوم.. تحسست جسدها فازدادت انتفاضات الرغبة فيها.. نهضنا ونحن مشتبكان بالرغبة.. سرنا غائبين عن الوعي إلى غرفتها.. استلقينا على فراشها وفي لحظات كنا عاريين من كل ملابسنا ومشتبكَين في امتزاج كامل مفعم بالرغبة المتبادلة والارتواء العارم بين صرخاتها المكتومة وضحكاتها الهستيرية.. لم نشعر بالوقت ونحن نتماوج ما بين الرغبات المتتالية والإشباعات العبقرية.. دخلنا في عالم سحريّ ممتد حتى تقطعت أنفاسنا وهدنا الإنهاك.

مكثنا صامتَين بعدها تتردد أنفاسنا في هدوء الرضا والطمأنينة.. نهضت بقامتها ومدت يدها إلى الكومودينو لتسحب علبة سجائرها، أخذت سيجارة أشعلتها وسحبت نفسا عميقا، أخذتُ منها السيجارة وسحبتُ نَفَسًا تمعنت في الاستمتاع به، سألتني.. هل أشعل لك سيجارة؟.. قلت لها سندخن سيجارتها معا، ابتسمت.. نهضتُ واستندتُ إلى السرير ثم أخذتها في حضني.. استكانت.. استغرقنا في تدخين السيجارة بهدوء.. تمتمت هامسة.. تصور.. لم يمسسني رجل منذ ما يزيد على عشر سنوات.. ضممتها بقوة.. قبلتها في جبهتها.. سألتها.. لماذا لم تتزوجي؟.. أنت صغيرة.. قالت.. كنت

t.me/qurssan

أخشى أن أفقد هالة.. يأخذها مني.. ربّتُّ عليها.. أنهينا تدخين السيجارة واسترخينا في الفراش.. رحنا بعدها في نوم عميق.

كنت أكبر في كل لحظة.. وهي تصغر.. في العمر.. شعرت بنوع من الاكتمال.. الزهو.. عندما كنا نخرج إلى الشاطئ معا.. أصبحت أسير إلى جوارها بنوع من الزهو.. كأنني أتباهى بها ولسان حالي يردد.. تلك المرأة.. امرأتي.. امرأتي أنا.. كل يوم كنت أرى ملامحها تصغر في عينيّ.. وأشعر أنني أكبر.. حتى أدركتني درجة من التوافق النفسي بيني وبينها.. هل هي حيلة نفسية تواطأنا عليها.. لم يمر يومان على التقائنا الحميمي.. حتى شعرت أنني رَجُلُها.. لا أنكر أن لها فضلا في ذلك.. رأيت منها فنونا أسكرتني.. في الفراش وخارجه.. عاملتني كأمير.. دللتني بتفانٍ وصدق، كأنها تعبر عن امتنانها للزمن أنه روى ظمأ السنين فيها.. أنه أطفأ شبقها المُستَحَق.. أمضيت أياما من الخيال.. رحلة إلى ما يؤمن به الناس أنه الجنة، تفننت في الاغتراف من الحياة.. من الطبيعة.. من المتعة.. طافت بي معالم المدينة.. مطاعمها الفاخرة.. كأنها تعوض ما فاتها من كمال الحياة واكتمالها.. كأنها وافقت راضية أن تلغي عقلها.. تتواطأ مع نفسها.. وتلقي بنفسها إلى خضم الحياة قبل أن تمعن في مواصلة إهمالها وظلمها.. أن تقبل بالمُتاح.. أن تغلق جميع دفاتر حساباتها وتلقيها إلى غياهب النسيان والغفلة الاختيارية.. كانت كمن يسابق الزمن.

بعد ما يقرب من أسبوعين شعرت بالاكتفاء.. شبع إلى حد التخمة.. بدأت أفكر في الرجوع للقاهرة.. في العودة إلى

ممارسة حياتي الطبيعية.. البيت والعائلة والمسرح.. ماذا سأفعل في المرحلة القادمة من حياتي بعد أن اجتزت الامتحانات بنجاح ونقلت إلى السنة الأولى.. فاتحتها في عودتي.. اعترضَتْ.. رفَضَتْ.. تحججتُ.. ناورتُ.. قاومَتْ.. في النهاية اتفقنا على أن أعود للقاهرة أياما معدودات ثم أرجع إليها في المعمورة لنواصل معا فترة المصيف.. لا أنكر أنني شعرت بنوع من العبء.. أو القيد.. شعرت بالرغبة في الانطلاق.. في التحرر.. في أن أكون سيّد نفسي.. بلا شروط.. هل هذا هو ما يفرق طبيعة المرأة عن الرجل؟.. الرجل يلهث خلف شهوته حتى إذا ما أشبعها يتراجع ليستقل بفرادته، بينما المرأة لا تُقبِلُ بسهولة وتُسَلّم، لكنها إذا استسلمت تفانت والتصقت لتتحقق في امتزاجها بمن أسلمت له نفسها وروحها.. الرجل قناص للشهوة والمرأة راعية للحب والحياة.. الرجل قد يبذر البذرة ويفرغ من مهمته والمرأة ترعى البذور حتى الحصاد.

استقللت القطار من محطة سيدي جابر، جلست أتأمل مشاهد الطبيعة الريفية من حولي والأفكار تروح وتجيء بعقلي.. ما العمل؟.. ماذا سيكون التصرف عندما تعود هالة من ليبيا؟.. كيف سأقابلها وأتعامل معها؟.. لقد نشأت علاقة معها قبل السفر.. وهاهي علاقتي بأمها تتوغل في يوم وليلة إلى علاقة كاملة.. يا نهار أسود!..ماذا فعلت بنفسك؟.. وكيف كنت سأقاوم؟.. المرأة لا تُقاوم.. فظيعة.. طيب وهالة!.. دي أمها.. لا لا لا.. رحت في حيرة لا حد لها.. لن أستطيع الاستمرار مع كليهما.. كيف سأتهرب منهما.. هالة معي في الكلية كل يوم.. وهل ستتركني شوشو..

t.me/qurssan

إنها تتشبث بي بشكل رهيب.. كأنني ضالتها التي وجدتها أخيرا بعد طول حرمان.. لقد تركتني أعود إلى القاهرة بالعافية.. وتنتظر رجوعي.. يا دي الورطة..

وصلت إلى القاهرة وتوجهت مهموما إلى البيت. بعد الاستقبال والترحيب دخلت إلى غرفتي وجلست وحيدا أقلّبُ الأمر في رأسي والحيرة تكاد تعصف بي. شعرت بالإجهاد فهربت إلى النوم.

عدت بنية عدم الرجوع إلى الإسكندرية من فرط ارتباكي في تلك العلاقة المعقدة. لم تكن رؤيتي واضحة، مجرد الهروب من مأزق. هذا لا يعني عدم استمتاعي معها، شعور بالهم ثُقُل على صدري، العنصر الأساسي فيه هو هالة طبعا، لو لم تكن قد سافرت إلى أبيها في ليبيا لما حدث ما حدث.. ولو لم تكن هالة موجودة في الصورة لصرت الآن في غاية السعادة.

بمرور أيام قليلة، استعر الشوق إليها، شوشو، بدأت أستوعب بدرجة من الوضوح حلاوة ما كنت فيه معها. عشت أياما في الجنة. أنثى جسيمة الأنوثة، عاتية الاحتياج، بارعة الأداء.. بدأت التحفظات بالتراجع وحل محلها الاشتياق.. تصاعدت الرغبة تدريجيا حتى أصبحت عارمة مؤرّقة.. احتلت خيالي واستبدت به.. ما العمل؟.. أريدها بكل رغباتي.. أشتهيها ليل نهار.. سأعود.. حزمت أمري.. اندفعت كمن فقد عقله.. أبلغتهم في البيت ووسط دهشتهم غادرت غير مبالٍ بشيء سواها.. انطلقت بكل طاقتي وخيالي إليها.. وصلت لاهثا بالشوق والرغبة.. تلقتني في أحضانها.. تعلقت نظراتها بي وهي تحتضنني بحرارة.. رحنا في قبلة طويلة عارمة انتهت في

الفراش حتى صباح اليوم التالي.. مارسنا حياتنا كلها في الفراش.. المأكل والمشرب والاشتياق والارتواء.

بعد وصولي بأيام أبلغتني أن هالة ستعود بعدها بأسبوعين للمصيف بالمعمورة قبل بداية العام الدراسي.. أصابني الخبر بنوع من البلاهة.. ماذا أقول؟.. طيب.. قلبت الأمر في ذهني وسألتها في اليوم التالي.. هل ستبلغين هالة بدعوتك لي إلى المعمورة وقضائي هذه الفترة معك؟.. أطرقت قليلا ثم قالت.. يجب أن تعرف.. تعرف ماذا؟.. سألتها مذعورا.. قالت بهدوء.. بحضورك هنا طبعا.. ستعلم من هنا بحضورك ويجب أن تعرف منيِّ.. سأقول لها إني دعوتك لتقضي إجازة هنا كتعبير عن امتناني لمساعدتك لها في المذاكرة و.. يعني.. يكفي هذا.. تساءلت.. ألن يكون ذلك غريبا بعض الشيء؟.. لا طبعا.. أنت زميلها وصديقها وهذه مجاملة لها.. هذا ما حدث فعلا.. يا سلام.. قلتها في عقلي وأنا أضرب أخماسا في أسداس..

في اليوم التالي قلت لها إنني يجب ألا أطيل الإقامة أكثر من ذلك حتى لا يبدو الأمر مثيرا للريبة.. قاومتني في البداية ثم استسلمت.. قضيت يومين معها ثم غادرت عائدا وأنا في حالة من التوهان والارتباك..

عدت إلى القاهرة لتنقضي بقية أيام الصيف أمارس فيها الملل كثيرا والقراءة كلما امتلكت بعض التركيز الذهني، قرأت لكتاب المسرح الرئيسيين منذ المسرح الإغريقي، عدة مسرحيات ليوريبيديس وموليير وإبسن ودورينمات وجان أنوي حتى المسرح الأمريكي، ليوجين أونيل وتنيسي ويليمز وآرثر ميللر.

اقتربت بداية العام الدراسي وبدأ التوتر والقلق، ها أنا ذا على

وشك اللقاء مع هالة في الكلية. عزمت أمري على التخصص في قسم الهندسة الميكانيكية، تمنيت أن يكون اختيار هالة لقسم آخر حتى لا نلتقي كثيرا.

والتقينا في اليوم الأول للدراسة، امتلأ وجهها بالابتسام البليغ لملامحها التي اكتسبت سمرة البحر. جرفتني بمشاعرها الفياضة إلى محل سان سوسي بعد فرحة اللقاء.. وحشتني قوي.. تسارعت ضربات قلبي وأنا أتلقى دفقات عواطفها المتتابعة.. إيه أخبارك.. شوشو قالت لي إنها عزمتك على المعمورة.. انبسطت.. قالت لي إنك كنت خجلان ولم تبقَ كثيرا.. احكِ لي.. أخذت أستجمع شتاتي لأجاري إيقاعاتها المُربكة.. جف حلقي وسرت رِعشة في كياني.. من فرط انفعالها لم تلحظ ارتباكي.. أو ربما عزته إلى تبادل المشاعر.. اعتبرته بديهية للحال.. لا تتصور مدى ما أشعر به من الإحساس بالدنس.. مواجهة البراءة بالخسة.. منجذب للأم ومنجرف مع الابنة.. كأنني أتمرغ في الاحتراف وأستسلم للهواية بنزق.. أنظر إليها بعينيَّ وتتشكل أمها في خيالي.. أتصورني أقوم بدور الحبيب البريء وأنا في حقيقة الأمر العاشق الرقيع.. ياه.. أكاد أختنق.. أتمنى الهروب من الموقف السخيف.. لقد كنت معجبا بهالة.. مقبلا على العلاقة قبل سفرها.. قبل انجرافي إلى سعير الشبق وجنون المتعة.. سألتني.. هل اخترت التخصص.. عندما تأكدت من اختياري السابق معرفتها به منذ العام الدراسي الفائت قالت.. وسأتخصص أنا أيضًا في نفس التخصص.. حتى نكون معا دائما.. شعرت بشلّالٍ من الماء البارد ينهمر على رأسي.. ابتسمت

ببلاهة.. نهضنا للمغادرة.. ودعتها.. قالت لي ونحن نفترق.. على فكرة.. شوشو عازماك على العشا بكره.. سننتظرك على الساعة السابعة.. قالت لازم تيجي..

قفزت إلى الأتوبيس ذاهلا.. وقفت بين الركاب مهموما منقبض النفس. الأم تطاردني عن طريق البنت!.. والعمل؟..

لم أذهب إلى الكلية في اليوم التالي.. لأني لم أدرِ ماذا أفعل؟.. أو ماذا أقول؟.. هل سأقبل الدعوة؟.. وهل أستطيع التخلف؟.. لم أستطع النهوض من الفراش في الصباح فواصلت محاولا الاستغراق في النوم.. أغفو وأصحو.. جاءت ماما تسألني.. ألن تذهب إلى الكلية؟.. قلت لها ليس عندي محاضرات اليوم.. وقفت حائرة بباب الغرفة ثم انسحبت.. أمضيت النهار في الفراش.. قمت لمشاركتهم في الغداء ثم عدت مرة أخرى.. ثقل كالرحى يجثم على قلبي.. استجمعت الهمة ونهضت في الخامسة.. اغتسلت كالمُخدَّر واستبدلت ملابسي.. نزلت في السادسة بلا همة قاصدا مصر الجديدة.. توقف تفكيري وتحركت كالدمية.. وصلت في الموعد.. وقفت بالباب أحاول أن أستجمع شجاعتي وهمتي المتداعية.. طرقت الباب وأنا أحاول أن أكتم انفعالاتي المرتبكة حتى أستطيع المواجهة.. فتحت هي.. نظرت إليّ نظرة فيها الاشتياق العارم واللهفة والترحيب والعتاب.. جاءت هالة من ورائها متهللة.. يا سلام على المواعيد.. تفوهت بهمسات بلهاء غطى عليها ترحيبهما الصاخب.. قاداني إلى غرفة المعيشة.. قالا كلاما متدفقا كثيرا لم أعِ منه شيئا تقريبا..

t.me/qurssan

أخذت أحاول أن أستجمع نفسي.. دار الحديث من هنا ومن هناك.. معقول ألا تسأل كل هذه المدة؟.. قالت معاتبة.. قلت متلعثما.. ألم تكونا في الإسكندرية؟.. لم أعرف متى تعودان.. أجبت بما جادت به اللحظة محاولا التملص من الحصار.. نهضت الأم قائلة.. سألقي نظرة على العشاء.. خرجت وتركتنا هالة وأنا.. أمسكت هالة بيدي مرحبة.. سحبتها بلباقة.. جاءت شوشو بعد فترة وهي تقول.. العشاء جاهز عندما تطلبان.. جاءت الشغالة بعد قليل.. تلفون لك يا ست هالة.. نهضت هالة للرد على التلفون.. قفزت شوشو إلى جواري واحتضنتني باندفاع.. تجمدت.. قبلتني قبلة حارة لم أتجاوب معها.. حاسبي.. هالة تجيء.. قلتها وأنا أهب واقفا.. لا أستطيع المقاومة.. اشتقت إليك جدًا.. جلست بعيدا.. جاءت هالة.. ألن نأكل.. أنا جوعانة جدًا.. نهضنا.. جلسنا حول المائدة.. لا أدري كيف مر الوقت قبل أن أغادر كالهارب.. انتبهت وأنا أسرع الخطى في الشارع في طريقي إلى محطة المترو.

كادت تصدمني سيارة مسرعة وأنا أعبر الطريق.. إيه دا مش تفتّح يا حمار.. انتبهت على السباب وأنا أفيق من الصدمة، وقفت أنتظر قدوم المترو ذاهلا، وصلت إلى البيت مشتتا ومهموما.. ماذا سأفعل؟.. وكيف سأتصرف؟.. لم أنم ليلتها إلا مع بزوغ النهار، استيقظت متأخرا ولم أغادر الفراش إلا بعد الظهر، أجبت تساؤلات أمي باقتضاب. غادرت البيت وجلست على المقهى المقابل لبيتنا أستمع إلى أغنيات أم كلثوم التي اعتاد المقهى إذاعتها

في فترة المساء من محطة إذاعة أم كلثوم. عدت بعد انتصاف الليل. لم أذهب إلى الكلية لمدة أسبوع.. ولم أصل إلى شيء.. مجرد أيام تمر وأنفاس تتردد في الصدر.

توجهت إلى مكتب رعاية الشباب بالمدينة الجامعية لاستطلاع أخبار المسرح. قابلت بعض الزملاء وعلمت بترتيب اجتماع في الأسبوع المقبل للاتفاق على العمل. عزمت على حضور الاجتماع لعل المسرح ينتشلني من الحالة التي لا أستطيع التصرف فيها أو الخروج منها.

حضرت الاجتماع الأول مع الفرقة وشاركت في النقاشات التي خَلُصَت إلى اختيار مسرحية عيلة الدوغري لنعمان عاشور لبدء الموسم المسرحي بها. اختار المخرج طاقم العمل وكان من نصيبي دور حسن الدوغري، الشقيق الأصغر، الكابتن لاعب الكرة.

تم توزيع نسخ النص على أعضاء الفرقة المشاركين في المسرحية واتفقنا على قراءة النص والاجتماع الأول بعدها بأسبوع. عدت إلى البيت سعيدا بالاختيار لتقديرى لمسرح نعمان عاشور وعشقي لهذه المسرحية. شعرت أنني أخلق من جديد، انسحب تفكيري من مأزقي الشخصي وبدأت التفكير في المسرحية والدور وطريقة أدائه، كان عليَّ أن أحاول الابتعاد عن أداء عبد المنعم ابراهيم العبقري للدور، استغرقت في التفكير وأنا جالس في الأتوبيس المتجه إلى شبرا. من الضروري أن أفكر في أسلوب مختلف لأدء الدور، ليس من العقل أن أحاول تقليد عبد المنعم إبرهيم، فمن أين آتي بمثل أدائه وتفرده. عبد المنعم إبراهيم

t.me/qurssan

على المسرح يختلف كثيرا عنه في الأفلام السينمائية، لم تعطه السينما الفرصة التي تتناسب مع موهبته الفذة، فهو يستطيع تحمل مسئولية أي عمل كبطل منفرد، لكن السينما تبحث عن «الجان»، البطل الوسيم معشوق النساء، أخذت أفكر في تفاصيل المسرحية التي أعرفها جيدا حتى وصلت إلى البيت.

دخلت إلى الفراش مُرهَقا وأنا أمنّي نفسي بليلة أنام فيها نوما عميقا، كأنني استعدت نفسي بالمسرح، ياه... أيّ غمة استُدرجتُ إليها وانغمست فيها.. لكن المرأة كاسحة الأنوثة.. جاذبيتها لا تُقاوَم.. يا الله.. سخونتها لافحة في الفراش.. تمثلت لي مرة أخرى وأنا أستعد للنوم فأججت كياني.. شعرت بالانتصاب.. يا دي الليلة.. لقد تصورت للتو أنني برأت من تلك الصرعة التي دهمتني بلا هوادة.. استهدأ بالله ونم.. أخذت أحاول أن أطرد صورتها من دماغي.. الواضح أنني لا أفكر في هالة.. لكن في أمها فقط.. حاولت أن أستعيذ بالتفكير في المسرحية.. أنجح للحظات ثم سرعان ما تتمثل لي شوشو في هياجها العبقري وهي تتقلب في الفراش بعنفوان الرغبة والاحتياج.. وأنا وهي بمفردنا في شاليه المعمورة.. تتفنن في التيه بأنوثتها تارة والخضوع لشبقها تارة أخرى، وأنا ضائع في الحالين.

نهضت مبكرا عقب نوم متقطع غير عميق، كأني أسبح على سطح النوم، قفزت من السرير وشرعت في الاستعداد لمغادرة البيت، سوف أذهب إلى الكلية اليوم.. لم أعد أستطيع الابتعاد.. عن من؟.. ليس عن هالة في الحقيقة.. لكنها المدخل لمعاودة التواصل

مع شوشو.. وهل تنوي أن تستخدمها؟!.. لا أعرف.. ولا أريد أن أفكر.. لا أشك في أن شوشو سترحب بي جدًّا.. لكني لا أستطيع أن أذهب إليها الآن إلا عن طريق علاقتي بهالة.. يجب أن يكون ذهابي لبيتهم من خلال هالة.. وفقط.. أثناء وجودها بلبيبا كان من الممكن أن أذهب كما أشاء.. لكن الآن.. وفي وجودها.. ما هو المبرر؟.. يجب أن أذهب لرؤية شوشو من خلال ابنتها.. العجيب أن علاقتي بهما ابتدأت بنوع من الانجذاب للابنة.. كان لها بعض الفضل في إخراجي من حالة اليأس واللا مبالاة التي كدت أضيع في غمارها.. أنعشتني.. شغلت تفكيري.. التقينا.. تواصلنا جسديا وإن كان تواصلا غير مكتمل.. لقد تعلقت بي ولا تتوانى في إظهار ذلك لي.. وأنا الآن أتباعد.. وها أنا أسعى إليها.. لكن ليس لدافعٍ منزهٍ عن الغرض. بل من أجل أمها.. ما هذا الهذيان؟!.. يبدو أنني قد فقدت عقلي.

في الكلية قابلتني هالة بلهفة بادية.. أين أنت؟.. لماذا تغيبت كل هذه المدة؟.. أتمنى أن أتحجج بحجة مقنعة.. كأن أقول مثلا إنني كنت متوعكا.. مريضا.. أي حاجة.. لكني أتصارع مع نفسي.. توقفت الكلمات في حلقي.. لا أريد أن أكذب.. أريد أن أتطهر.. ولو لحظيا.. أريد أن أقول الحقيقة.. أخشى من احتقار النفس.. يكفيها ما فيها من عِبَر.. وهل أستطيع؟.. مالك لا تنطق؟.. خير؟.. خرجت الكلمات واهنة مرتجفة من بين شفتيّ المرتعشتين.. لا أعرف.. لم أكن على ما يرام.. يمكن.. فقدان الرغبة.. لم أعد.. نظرت إليَّ بقلق.. هزت رأسها بين الأسى والعتاب.. ألم أوحشك؟.. طيب

t.me/qurssan

تعالَ فضفض يا أخي.. بدلا من الانقطاع عن الكلية والوحدة.. لا لا لا.. كنت أتصور أني.. يعني.. طيب هيا بنا نحضر المحاضرة الأولى ثم نذهب إلى سان سوسي.. المحاضرة التالية بعد الظهر.. عندنا وقت.. بدا عليها الانتشاء.. برقت عيناها بالسعادة.. دخلنا إلى المحاضرة وجلسنا بين الطلبة.. دخل الدكتور.. تكلم.. ملأ السبورات بطلاسم.. مسح السبورات.. لا حَظَت أني لا أسجل المحاضرة.. ولا يهمك.. سأعطيك كشكولي لتنقل المحاضرة.. يعتصرني الشعور بالذنب.. بالوضاعة.. هي تحاول أن تسرّى عني.. بكل رقة ومودة.. وأنا؟.. كرهت نفسي.. قالت لي ونحن جالسان في سان سوسي.. ماما بتسألني عنك كل يوم.. متعجبة جدًّا لانقطاعك عن الكلية.. لدرجة أنها قالت لي إذا كنت تعرفين بيته فيجب أن تزوريه لتسألي عنه.. لعل المانع خير.. قلت لها إنني قد أوصلتك مرة بالسيارة إلى البيت.. والسائق يعرف البيت.. كانت قلقة جدًّا عليك.. ثم أردفت لائمة.. أنت جاحد والله.. الناس كلها تحبك وأنت لا تهتم.. جلسة مودة فائقة منها ومحاولات دائبة لإبهاجي.. وأنا.. أتمزق خجلا واضطرابا وأشعر بسخونة تلفح وجهي وجفافا بحلقي.. أتمنى أن تنتهي الجلسة بأسرع ما يمكن حتى أتنفس باسترخاء..

نظرت إلى ساعتي فقالت.. هل تريد الانصراف؟.. قلت لها إنني يجب أن أراجع دوري في المسرحية لأستعد قبل بدء البروفات.. سألتني ونحن نهم بمغادرة المكان.. متى ستمر عليّ بالبيت لتنقل المحاضرات التي فاتتك؟.. باغتتني بالسؤال.. فكرت سريعا

وقلت لها.. هذا الأسبوع أنا مشغول لبداية بروفات المسرحية.. خلاص.. توعدني بعدم الغياب مرة أخرى ونتفق على الموعد غدا.. تحاصرني بإصرار.. هززت رأسي موافقا، عدنا إلى الكلية وودعتها بحجة ارتباطي بموعد مع الفرقة.

يا راجل يا طواف.. راجل انت.. عم علي.. يا طواف.. يظهر إنه أطرش بصحيح.. واشمعنى يعني هو اللي مش حا أصدقه.. طواف.. عم علي.. دا انت أطرش بصحيح.. عم علي.. طواف.. سامعني..؟ هز راسك إذا كنت سامعني.. راجل.

هو أنا يا حسن خلاص!!..

مش انت بتقول على روحك أطرش وما بتسمعش.

انغمست في مراجعة دوري في الرواية مع جملة البداية.. أحاول إلقاءها عدة مرات متعمقا في فهمها من خلال تصوري لشخصية علي الطواف أساسا، تلك الشخصية الفريدة التي لا تنطق إلا بجمل معدودات في المسرحية، لكنها تنطبع عميقا في الذاكرة وتهز الوجدان بعنف رغم خفوت أدائها وندرة ظهورها على الخشبة. في مثل تلك الشخصيات تتجلى عظمة الكاتب المسرحي. شعرت بالإجهاد عند منتصف الليل فخلدت إلى النوم وأنا حائر.. هل سأذهب إلى الكلية في اليوم التالي؟.. لقد ألمحت إنها قد تزورني في البيت لتطمئن عليّ.. والسائق يعرف البيت.. شعرت بالحصار.

استقر رأيي على الذهاب إلى الكلية، من الأفضل ألا أتهرب منها، لابد من المواجهة، طوال الأسبوع وهي تحاصرني بالدعوة لزيارتها

t.me/qurssan

ونقل المحاضرات التي لم أحضرها، تحججت بانشغالي ببروفات المسرحية في المساء، فاجأتني ونحن ننهي محاضرات اليوم مبكرا بسؤالي.. هل وراءك شيء الآن؟.. كانت الساعة الواحدة ظهرا، تحرجت من كثرة اعتذاراتي وحججي بالانشغال وأجبت بالنفي.. خلاص.. أنا عزماك على سينما الآن، نأكل سريعا ونذهب إلى السينما من ثلاثة إلى ستة.. وافقت مرتبكا فتهللت وتعلقت بذراعي ونحن نتجه إلى محطة الأتوبيس المتجه إلى وسط المدينة، كنت أتحرك معها كالمُخدّر.. فقدت تركيزي واستسلمت.. في وسط المدينة أكلنا ساندوتشات سريعا ودخلنا إلى سينما راديو.. حجزت مقعدين في آخر البلكون على أحد الأجناب، لم تكن السينما مزدحمة، بدأ الفيلم فمدت كفها لتمسك بكفي.. كدت أسحب كفي لا إراديا لكني انتبهت.. استسلمت بدون تجاوب.. أسندت رأسها إلى كتفي واستكانت تماما.. ارتجفتُ.. لم أنتبه إلى الفيلم.. كل همي هو محاولة عدم تطور الأمور.. كذلك مقاومة ضعفي.. لهالة مكانة بنفسي.. لا أريد إيذاءها.. وأنا ضعيف المقاومة.. شوشو تشعل رغباتي كل ليلة وأنا أقاوم وأتباعد.. بدأت في مداعبة كفي بأناملها.. دفست رأسها في صدري.. نبيل.. ماذا حدث؟.. سألتني فجأة.. تلعثمت.. أبدا.. لم يحدث شيء.. أشعر أنك بعيد عني.. هل تتهرب مني؟.. لا طبعا.. ما هذا الكلام؟.. على قدر اشتياقي إليك أشعر أنك في وادٍ آخر.. هل حدث شيء أثناء سفري؟.. قل لي بصراحة.. شعرت بالنذالة.. بذنب فظيع.. مددت يدي الأخرى وربّتُّ عليها.. زفرت زفرة حارة.. تحسستُ صفحة خدها بمشاعر متداخلة.. اعتذار.. محبة.. احتواء..

خجل.. ذنب.. كل ذلك جميعا.. نظَرت إليّ بحزن مُشَبّع بالرغبة.. ارتجفتُ ولم أشعر إلا ونحن نروح في قبلة حارة.. احتضنتني بقوة.. همست.. نبيل.. لا تتركني.. افتح لي قلبك.. طمنّي عليك.. دمعت عيناها فشعرت باحتقار فظيع لنفسي.. لماذا حدث ما حدث؟.. تساءلت وأنا أترك نفسي لها تماما بلا أدني مقاومة.

خرجت من السينما منهكا، نفسيا وبدنيا، كأنني كنت في ماراثون طويل استنزف كل طاقاتي. استقلت هي سيارة تاكسي إلى مصر الجديدة وسرت أنا في طريقي إلى البيت سارحا بفكري المشتت، لم أنتبه إلا وأنا أعبر نفق شبرا دون أي إحساس بالمسافة التي قطعتها.

قضيت الليلة واجما في غرفتي حتى سقطت من الإعياء. قاومت نفسي مقاومة رهيبة لأذهب إلى الكلية. كنت أتمنى البقاء في فراشي طيلة النهار، خشيت أن أسبب لها المزيد من الجراح. التقينا. حاولت أن أكون لطيفا معها. يبدو أنني نجحت إلى حد ما. ودعتني مطمئنة في نهاية اليوم الدراسي. تركتها واتجهت إلى موعد الفرقة المسرحية.

بعد البروفات اقترب مني ناجي وصفي زميلي في الفرقة، ناجي طالب بكلية الآداب وممثل ممتاز، يقوم بدور سيد الدوغري، الترزي السابق والشقيق الأكبر في المسرحية.. مالك النهارده يا نبيل؟.. سألني باهتمام.. سرحان على طول.. فيه حاجة؟.. شوية مشاغل يا ناجي.. حالة حب جديدة؟.. سألني مبتسما.. الحقيقة حالة لخبطة.. عندك مانع نقعد على القهوة شوية؟.. لناجي منزلة

t.me/qurssan

خاصة في نفسي، شخص متوازن وجدع، قبلت على الفور، توجهنا إلى وسط المدينة.. جلسنا بمقهى بميدان التحرير.

لم أحتج لمجهود يُذكر لكي أفتح قلبي لناجي عندما عاود سؤالي، حكيت له كل شيء، استمع جيدا كما حدست تلقائيا، كأنني كنت في حاجة إلى أن أتكلم.. أن أشكو حالي.. أو أفضفض.. وكان هو خير مستمع.. نظرتي له لم تخطئ.. لم يَلُمني.. كل ما قاله لي.. قلبي معك.. ران صمت قصير بيننا قطعه باقتراح أن نذهب لمشاهدة مسرحية الفتى مهران في المسرح القومي.. قلت.. قد تخرجني من حالي المرتبكة.. هكذا يعمل الفن دائما.. يغسل أرواحنا.. دفعنا الحساب.. نهضنا.. توجهنا إلى المسرح القومي، كان العرض يؤدى ببطلين يقومان بدور الفتى مهران بالتناوب، عبد الله غيث وكرم مطاوع، كانت الليلة بأداء كرم مطاوع.. لا أنكر أنني أصبت ببعض الإحباط.. فقد كنت أتمنى أن أشاهد العمل بأداء عبد الله غيث.. لكن للمفاجأة الطيبة، كان أداء كرم مطاوع جيدا جدًّا.. تألق في أداء الدور.. قل له إن المناجل للسنابل ولأعياد الحصاد.. لا لهامات البشر.. قل له يا أيها السلطان اترك عزلتك.. اختلط بالشعب يصبح قلعتك.. قل له.. لقد كنت فتى ذات يوم.. ولهذا نحن لا نيأس منك.. وله منا السلام في الختام.. كنا جميعا نشعر أن عبد الرحمن الشرقاوي يوجه كلامه إلى جمال عبد الناصر على لسان الفتى مهران.

لقد حصلت على رخصة القيادة أمس، هتفت فَرِحَةً باشةً بمجرد أن قابلتني في الكلية، أخيرا سأستطيع قيادة السيارة،

سآخذك يوم الجمعة في نزهة بالسيارة، سنذهب إلى مكان بعيد وأنا أقوم بالقيادة، سنزور الأهرام مثلا، ما رأيك؟.. أنا سأطير من الفرحة. كانت تتكلم بسرعة وانفعال، ثم فاجأتني قائلة، سننتظرك اليوم في البيت للاحتفال بالمناسبة، ماما قالت لي أبلغك أن تجيء الساعة السادسة، تريد أن تتحدث إليك، تَلَقّى وعدك يا سيدي، يبدو أنها تريد أن تتكلم معك في موضوع انقطاعك عن الكلية وضرورة انتظامك، شويّة نصيحة يعني، لم أعرف بماذا أرد، دهمتني المفاجأة، سرت إلى جوارها واجمًا، دخلنا إلى المحاضرة التي لم أتابع منها شيئا على أثر الصدمة، دعوات الزيارة لمنزلهما تربكني جدًا، أخشى من النتائج ومن عجزي عن التصرف تجاه أي من تصرفاتهما التلقائية الهوجاء معي وافتضاح الأمر.. ألم تكن تريد الوصول إليها؟!.. ها هي تدعوك.. ماذا تريد بالضبط؟!.. لم أعد أدري ماذا أريد!.. ما هذا التخبط؟.. أكاد أختنق..

عدت إلى البيت في منتصف النهار مهموما، لا أستطيع الهروب من الدعوة.. يجب أن أذهب.. زفت.. ملعون أبوكم كلكم.. طيب.. وآخرتها.. هل سأظل أناور الاثنتين هكذا وأتحايل لتخطي العقبة تلو الأخرى؟.. حاولت أن أنام القيلولة فلم أستطع، غادرت البيت في الخامسة مغلوبا على أمري.. كنت كالمُصَيّر.. وإلى أين؟.. ربنا يستر.

لم أنتبه إلا وأنا أقرع جرس الباب، فتحت لي شوشو في أبهى زينتها، أنثى تتباهى بأنوثتها، رحبت بي وقادتني إلى الداخل.

t.me/qurssan

جاءت هالة مرحبة وهي تقول، سأضطر للاستئذان، لابد أن أذهب لإحضار التورتة من جروبي، ماما حجزت تورتة وأصرت أن أذهب أنا لإحضارها احتفالا بحصولي على رخصة القيادة، أعطت السائق إجازة اليوم حتى تضعني أمام الأمر الواقع.. إذن.. لقد رتبت الأمور.. غادرت هالة لتنهض شوشو بهمة وتسحبني من يدي إلى غرفة نومها، اكتشفت بعد ذلك أن الشغالة ليست بالبيت، قامت بكل الترتيبات، أغلقت باب الغرفة وارتمت في حضني، راحت تلثم وجهي بسيل من القبلات النهمة وهي تلهث بشوق.. قامت بنزع ملابسي بقوة كادت تمزقها وخلعت ملابسها بسرعة خاطفة، في لمح البصر كنا في بالفراش نتلوى بالنشوة والرغبة المجنونة الهائجة، تعالت صرخاتها منفلتة وهي تصل إلى الذروة وتهمد لتعاود الهياج، أنهكتُ تماما من فرط المتعة والمجهود. ارتمينا في النهاية ونحن نلهث لنلتقط أنفاسنا، لم ندر بالوقت، بدأت أنتبه، قفزت من الفراش مرعوبا، دخلت إلى الحمام لأغتسل سريعا وعدت لارتداء ملابسي، نبهتها للنهوض قبل عودة هالة، بدت لامبالية، كدت أجن، هززتها لتفيق، قامت بتكاسل، دخلت إلى الحمام بينما اندفعت خارجا من الغرفة أراجع هندامي، نظرت إلى نفسي في المرآة بريبة، هل يمكن أن تلحظ هالة شيئا، ملابسي مشعثة من أثر العنف، مررت عليها براحتيّ محاولا تدارك ما يمكن تداركه، ارتميت على المقعد وأنا من الإنهاك في غاية.

قبل الثامنة بقليل بدأت صديقات هالة المدعوات في الحضور، قابلتهم خَجِلا وأنا أشعر كأني عارٍ أمامهم، مفضوح، كانت شوشو

رابطة الجأش، كأن شيئا لم يكن، يا لجسارتها وثباتها، كيف تستطيع التحكم في أعصابها إلى تلك الدرجة المذهلة؟.. جاءت هالة بعد قليل وهي تثير الضجة منتشية بحصولها على الرخصة، انغمست في الضحك والقفشات مع صاحباتها، راقبتها متوجسا، هل لاحظت شيئا غير عادي، كان اهتمامها موزعا على الحضور، مرت اللحظات ثقيلة وأنا في توجس دائم، يبدو أنها لم تلحظ شيئا، قمنا إلى المائدة لنقتسم التورتة والمثلجات الموضوعة عليها بعد دعوة شوشو، كان كل شيء معدا سلفا بشكل مُبَسّط، دهاء لشوشو تُحسد عليه، رتبت الأمور لتتفرغ لي بعد أن تخلصت من هالة بإرسالها إلى وسط المدينة لإحضار التورتة، يا لبراعة الأنثى عندما تريد!..

عدت منهكا إلى البيت بعد أن انتصف الليل بقليل وأنا تائه لا أقوى على تركيز أفكاري في أي شيء.

كنت أذهب إلى الكلية دون رغبة. لم أكن أبذل أي مجهود في المذاكرة ومراجعة المواد، لاحظت هالة ذلك وبذلت مجهودا لإخراجي من حالة اللامبالاة والعدمية التي كنت فيها، كان الشيء الوحيد الذي أجد فيه نفسي هو بروفات المسرحية، انغمست في حفظ دوري والتدريب عليه، قارب العام على الانتهاء بعد أيام قلائل وأنا في هذه الحالة من انعدام الوزن. انتهى العام نهاية فاجعة بالنسبة لي شخصيا، مرضت تيته مريم مرضا شديدا انتهى بوفاتها، بكيت عليها بكاء مرا، بكيت طفولتي ومغامراتي معها، حكاياتها لي، أحاديثنا معنا وتقاسمنا سجائرنا القليلة، رشفات القهوة من طبق فنجانها التي مازلت أتذكر طعمها، رؤيتها الهلال على وجهي

t.me/qurssan

كل شهر وهي تغمض عينيها وتناديني لتمسك وجهي بين كفيها وهي تتمتم قبل أن تفتح عينيها على وجهي وهي تقول، رؤية الهلال على وجهك بشرة حلوة.. ربنا يسعد أيامك ويحبب فيك خلقه، ياه يا تيته مريم.. كيف سأتحمل فراقك.. كم كنت أحتاجك إلى جانبي، خاصة في هذه الأيام.. مجرد وجودك في غرفتك جالسة على سريرك كان يشعرني بالأمان.. وبأن الدنيا مازالت بخير.. لروحك الرحمة كما تستحق.

بدأ العام الجديد مغلفا بالحزن. حاولت هالة جاهدة أن تُسَرّي عني همومي. أصرت أن نذاكر معا حتى تشجعني على اللحاق بما فاتني من دروس، حاولت التملص منها، هددتني بأنها ستجيء إلى بيتنا لنذاكر معا، اضطررت للقبول على مضض، أن أذهب إلى بيتهم، اتفقنا على أن أذهب للمذاكرة معها يومين على الأقل أسبوعيا لنتمكن من اللحاق بما فاتني.. لم أكن أريد الذهاب ومواجهة مطاردة شوشو لي، رغم رغبتي العارمة فيها واشتياقي إليها، كنت أخشى من العواقب، كنت مرعوبا من المجهول، مشاعر متضاربة عصفت بي واستسلمت لها كما استسلمت للظروف من حولي كريشة في مهب الريح. أريد شوشو بجنون.. أخشى من الذهاب إلى بيتها.. لا توجد وسيلة أخرى لرؤيتها.. شديد الامتنان لهالة واهتمامها.. لا أستطيع التجاوب معها.. لا أنفر منها.. بل أحيانا أشعر بالرغبة تجاه أنوثتها البريئة الرومانسية.. سرعان ما أتذكر ولعي بأمها.. أهرب.. أكاد أجن.. أحن إلى شوشو.. دوامة عاتية مستبدة لا أستطيع الفكاك منها.

في أول زيارة لي للمذاكرة مع هالة حسب إلحاحها، انتهزت شوشو فرصة خروج هالة من الغرفة وجاءت لتقول لي مسرعة.. سأنتظرك غدا صباحا في موعد الكلية.. عرفت من هالة أن اليوم مشحون بالمحاضرات حتى المساء.. سننتهز فرصة انشغالها في الكلية ونلتقي هنا.. أريد أن أراك.. إياك أن تتخلف.. لا تقل لهالة إنك لن تذهب.. فاجئها بالغياب.. سأكون في انتظارك.. سأعطي الشغالة إجازة.. دخلت هالة فغيرت شوشو الموضوع.. كنت أستفسر من نبيل عن أخبار المذاكرة.. وعدني أنه سينتظم في الحضور.. هالة ستبلغني بأخبارك.. طَيِّب.. سأتركم للمذاكرة.

لم أستطع أن أستوعب كلمة مما قرأناه معا.. هالة جادة في العمل وأنا سارح في المصيدة التي وقعت فيها.. حقا إنني أحلم بلقاء شوشو.. لكن ليس هنا.. في بيتها هي وهالة.. ومن يضمن الظروف.. قد تعود هالة مبكرا لأي سبب من الأسباب.. قد يجيء أحد من معارفهم.. قد يلحظ أحد حضوري.. قد تعرف هالة.. ماذا أقول لها عندئذ؟.. لقد جنت شوشو.. توقفت عن الحساب.. تفعل ما تريد وعلى الدنيا السلام.. ما العمل؟..

كانت ليلة عصيبة لم أر فيها النوم تقريبا، نوم خفيف عند مطلع الفجر، أو هو شيء يشبه النوم، إغفاء على مشارف النوم، كدت أجن احتياجا لقدر من النوم العميق، خف الظلام وتهادى نور النهار مزيحا حلك الليل بتؤدة وثقة تمعن في إشعال توتري العصبي وأنا أشهد ضياع فرصة النوم العميق، تقلبت في الفراش مهموما لاقتراب الأحداث، كم تمنيت ألا أغادر الفراش.. أن أدير ظهري للدنيا جميعا.

كانت أول محاضرة في الثامنة، نهضت بصعوبة من الفراش.

t.me/qurssan

ودخلت إلى الحمام للاغتسال، أعددت كوبا من الشاي وأكلت قطعة من القراقيش وجدتها في علبة بالمطبخ، مجرد تغيير الريق لأدخن سيجارة، استبدلت ملابسي وجررت نفسي بالعافية لأغادر البيت في طريقي إلى مصر الجديدة. أتحرك في الطريق بلا إرادة، كأنني قطعة على رقعة شطرنج يقوم لاعب بتحريكها ولا تملك إلا أن تنصاع لمشيئته.

لماذا أذهـب؟.. لماذا أنصاع لمشيئتها؟.. هل لشهوتي المكبوته؟.. الرغبة فيها أنثى أشعلت الحريق بجسدي ونفسي جميعا.. خشية أن أغضبها؟.. خوفا من فقدها؟.. هل هو نوع من الجنون؟.. أتحرك بالقصور الذاتي رغما عما يدور في عقلي من تساؤلات ومخاوف.. نوع غريب من المشاعر المتعارضة المتعايشة معا والعابثة بكياني ونفسي.

وصلت بعد العاشرة بقليل، استقبلتني بلهفة وشوق عارم، سحبتني من الباب إلى غرفة نومها، أغلقت الباب بالمفتاح، خلعت الروب الذي كانت ترتديه فبدا جسدها العبقري عاريا.. دخلت إلى الفراش وهي تنظر لي بدعوة كلها دلال ورجاء.. هيا.. ماذا تنتظر.. خلعت ملابسي كالمغيب.. اشتعلت بالرغبة في لمح البصر.. انسحبت كل المخاوف والهواجس.. ما أراه من فنون العشق من هذه المرأة يصيبني بالجنون.. تجربتي المحدودة لم تعش مثل تلك العوالم المنفلتة من قبل.. وأنا أفضل ممن هو في مثل سني بتجربتي مع سميحة.. فمن سنحت له تجربة كاملة مثل تجربتي مع سميحة؟!.. سحبتها بقوة.. احتضنتها..

اعتصرتها بين ذراعيّ.. تأوهَتْ.. رحنا في عوالم لا تنتمي إلى هذا العالم الذي نعرفه.. تعالت تأوهات رغبتها وصرخات ارتوائها.. شعرت بعنفواني معها.. كلما ازددت عنفوانا ازدادت هي اشتعالا.. كأنني كنت أنتقم منها.. أو من ضعفي أمامها.. من احتياجي لها.. من انقيادي وقلة حيلتي.. كان شعرها يثيرني بغجريته.. شددته بعنف.. صرخت متلذذة.. أمعنت في إيلامها.. زاد جنونها فدفعتني بقوة.. اعتلتني ونظرت إليَّ باشتهاء مجنون.. كأن حرمان السنين قد تجسد في تلك اللحظة.. استمر المارثون اللاهث بيننا حتى سقطنا من الإعياء.. رحنا في نوم عميق انتبهنا منه وقد تجاوزت الساعة الرابعة بعد الظهر.. انتترتُ من السرير.. هالة قاربت على العودة من الكلية.. ارتديت ملابسي في عجالة دون أن أغتسل.. نظرت إليَّ برجاء.. ابق معي.. هل جننتِ؟.. هالة على وشك الحضور.. ودعتها وأنا شديد الارتباك.. اندفعت إلى الخارج وأغلقت الباب بهدوء، عدوت بكل سرعتي نازلا الدرج، لم أتخذ الطريق المعتاد إلى منزلهم، انحرفت إلى شارع خلفي لأقطع طريقا غير مألوف مبتعدا عن البيت بأقصى طاقتي، جلست في المترو أستعيد ما حدث وأنا في ذهول عظيم.

وصلت إلى البيت مع حلول الغروب، كنت أشعر بجوع عظيم، أكلت ما وجدته بالمطبخ من الحلة دون تفكير، كان البيت هادئا، دخلت إلى غرفتي وارتميت في الفراش حتى صباح اليوم التالي.

انغمست في بروفات المسرحية وتدريبات الدور، كأنني كنت أهرب من واقعي المُربِك إلى عالم الفن والتحليق.. كنت أحضر

t.me/qurssan

محاضرة أو سِكشن ثم أنصرف إلى بروفات المسرحية التي أوشكت على التمام.. عالمي المفضل.. ليتني كنت أعيش على خشبة المسرح ولا أغادرها..

مصطفى ما عدش راجع بعد المرة دي يا حسن!..

جَمّد قلبك يا أبو السيد! إنت محتاج له في حاجة!..

مش هاين عليّه!..

اشمعنى انت هاين عليه!..مصطفى خلاص ما يعرفش يحب إلا نفسه. أنا وحدي وانتهينا..

دا الكلام اللي بتقوله كريمة!..

هو دا الكلام المضبوط!.. وانت مالك بغيرك!.. بص لنفسك.

دي ما بقتش دنيا!.. ما بقتش دنيا!..

كادت الدمعة تفر من عيني وأنا أقف أمام ناجي وهو يقوم بدور سيد الدوغري ببراعة لا تقل عن توفيق الدقن في أدائه للدور.. كل يوم يمر يزداد حبي لناجي.. ممثلا وصديقا جديدا وإنسانا..

اعتدنا في الآونة الأخيرة أن ننهي البروفات ونبقى معا لبعض الوقت، نتوجه إلى أحدى المقاهي القريبة بمفردنا أو مع بعض زملاء الفرقة الذين يرغبون في مصاحبتنا. نلتقي أحيانا في نهاية الأسبوع للذهاب إلى السينما أو لمشاهدة إحدى المسرحيات المعروضة، كنا نحضر أحيانا حفلات أوركسترا القاهرة السيمفوني يوم السبت بمسرح الجمهورية أو بدار الأوبرا.

حاولت التملص من إلحاح هالة للمرور عليها بالمنزل للمذاكرة معا، لم تفلح محاولاتي فاضطررت إلى الذهاب على مضض ولكن

بدون انتظام، أتحجج بعض المرات لأسباب عدة لا تقتنع بها هالة لكنها تستسلم في النهاية حتى لا تضغط عليّ.

شددت عليّ في أحد الأيام بضرورة المرور عليها، قالت إنها ستكون بمفردها في البيت لانشغال شوشو مع صديقاتها في إحدى المناسبات. لا أنكر أنني تشجعت بعض الشيء لعدم وجود أمها بالبيت ورضخت لإلحاحها. شعرت أنني يجب أن أوافق أحيانا حتى لا تتشكك في رفضي الدائم المفاجئ. مررت عليها في المساء وجلسنا نستذكر الكثير من الدروس التي فاتتني حتى شعرنا بالإرهاق. عرفت أن شوشو ستعود متأخرة إلى المنزل فتنفست الصعداء.

في فترة استراحة من الدروس أمسكت هالة بيدي واقتربت مني متدللة، شعرت بالتوتر ولم أتجاوب. انكمشت في صدري وأخذت تداعبني بأناملها مدغدغة لي برقة.. تملكتني الحيرة فأنا لا أريد للأمور أن تتطور وتزداد تعقيدا. مدت يدها إلى وجهي واقتربت بهدوء وهي مغمضة العينين، قبلتني على خدي قبلات متتابعة خافتة أثارتني فجأة، رومانسيتها الحالمة مثلت لي متعة لم آلفها في خضم فوراتي الجسدية الخالصة مع شوشو وسميحة. للرومانسية رونق وسحر خاص بعث رعشة عذبة في جسدي وكياني جميعا، قاومتُ.. واصَلَتْ برقة وحنان آسر.. حاولتُ التشبث بالمقاومة.. بأقل تجاوب ممكن خجلا منها.. رغم الرغبة المتنامية داخلي.. كانت لحظة عذاب ممتزجة بمتعة من نوع فائق العذوبة.. انهرت فجأة فغمرتُها بوابل من القبلات الحارة.. سرعان ما تحولت إلى

t.me/qurssan

رغبة جسدية.. تحولت القبلات من العاطفة الدافئة إلى الشهوة الملتهبة.. فككتْ أزرار قميصي.. فاجأتني.. انتفضت رجولتي.. مددت كفي أسفل ملابسها.. داعبتها.. تأوهت بعذوبة لم أعهدها من قبل.. عذوبة البراءة الفطرية.. اصطبغ وجهها بلون وردي آسر.. فكّكَتْ لي سروالي وداعبتني بكفها.. رحنا في متعة ساحرة بلا محاذير.. صرخة مدوية رَجّتْ المكان.. لم تكن صرختها.. انتبهنا فجأة لتصعقنا المفاجأة.. شوشو وهي فوق رأسينا تصرخ كالمجنونة وقد اتسعت حدقتاها في غضب كاسح.. يا ابن الكلب.. بنتي يا ابن الكلب.. نزلت بكفيها كالمجنونة مصوبة ضرباتها لكلينا بدون وعي والكلمات تنهمر من فمها المزبد.. وانتِ يا شرموطة.. تخدعينني بالمذاكرة مع هذا الكلب.. جذبت هالة من شعرها.. شلل أصابنا لثوانٍ سرعان ما أفقتُ منه.. دفعت هالة أمها بعيدا دفاعا عن النفس وعني.. نهضتُ منتفضا.. لبست ملابسي سريعا بينما انغمستا هما في صراع محموم بالأيدي.. وسط شتائم شوشو التي لم تكن في وعيها وهي تسبني فاضحة إياي بأنني خدعت الأم والابنة.. معي ومع ابنتي يا حيوان يا واطي.. اندفعتُ خارجا تاركا شوشو وهالة مشتبكتين، هالة دفاعا عن نفسها وشوشو هجوما محموما عليها، اندفعتُ نازلا الدرج.. وقعت من فرط السرعة.. اصطدمت رأسي بالحائط، قمت مسرعا وخرجت من البيت عدوا.. ظللت أعدو دون وعي حتى أنهكت تماما.. تباطأت رغما عني.. وقفت لاهثا.. انهرت على الرصيف جالسا ألتقط أنفاسي.. بدأت أسترد الوعي.. هدأت أنفاسي أخيرا.. رحت في بكاء هستيريّ مرير، لم

أستطع أن أتبين مشاعري بوضوح، لكنها كانت مزيجا من الندم.. اليأس.. الشعور بالحقارة والخسة.. الخوف.. اختلطت الدموع بالدماء النازفة من رأسي والتي لم أنتبه إليها، اقترب مني كلب ضال من كلاب الطريق، وقف ينظر إليّ كالحائر.. اقترب مني بحذر.. تشممني ثم أخذ يلعقني ببساطة آثرة.

نهضت بصعوبة بعد أن استعدت قدرا من أعصابي المتداعية، نظر إليّ الكلب كأنه يتأكد أنني بخير، ابتسمت ممتنا لمودته البديعة وأنا أبتعد، ماذا سأفعل الآن والدماء تنزف من رأسي، فكرت للحظات ثم سرت أبحث عن صيدلية، دخلت إلى صيدلية صغيرة بشارع جانبي، انزعج الطبيب لمنظري المشعّث النازف، قلت له إنني تعثرت وأنا أنزل السلم مسرعا فارتطمت رأسي بالجدار، نظر إليَّ بقدر من الريبة، قال لي من الأفضل أن تذهب إلى أي مستشفى، قد تحتاج إلى غرز، طلبت منه أن يطهرها لي ويلفها بضمادة فهذا يكفي، خرجت من الصيدلية وقد بدأت أشعر ببعض الدوار، توجهت إلى محطة المترو متحاملا على نفسي، جلست بالمترو أستعرض شريط الأحداث الخاطفة المجنونة التي مرت في لمح البصر.. شعرت بالانقباض.. كيف حدث هذا؟.. هل أنا في كامل وعيي؟.. هل جننت لأضع نفسي في هذا الموقف؟.. إنها غلطتي.. يا.. لكم أشمئز من نفسي!.. ما هذه النذالة؟!.. هل تحولت إلى حيوان يتبع غريزته مهما كانت العواقب؟.. لقد حاولت أن أقاوم هالة.. لكنني ضعفت.. كانت مقبلة عليَّ.. لكنني المسئول.. لقد تماديت معها منذ البداية.. شجعتها.. كيف انجرفتُ مع شوشو؟!..

t.me/qurssan

ياه.. كم أشعر بالقرف من نفسي.. إنني حزين.. حزين على هالة وما سببته لها.

عدت إلى البيت مهموما، ماذا سأقول على البطحة التي في رأسي؟.. كان البيت هادئا، الجميع نيام، حمدت ربنا وتسللت إلى غرفتي، نظرت إلى رأسي المربوط في المرآة، فككت الرباط وتحسست الجرح، لا يبدو بالخطورة التي تصورتها، خرجت إلى الحوض وغسلت الجرح جيدا ثم عقمته بالكلونيا وأعدت رباطه. في الصباح شهقت ماما لمنظري، تحججت بأنني تعثرت في الطريق ووقعت، نظرت لي بريبة، أحضرت شاشة نظيفة وغيرت على الجرح بعد تنظيفه وتعقيمه. كنت مجهدا ورحت في نوم عميق إلى ما بعد العصر، لم أكن أنتوي الذهاب إلى الكلية، كيف سأقابل هالة؟.. سحبت الغطاء على رأسي وحاولت مواصلة النوم. استعصى النوم فجاءت إلى رأسي فكرة أراحتني، سأمر على ناجي. أريد أن أتحدث إلى أحد، أن أتخفف من حملي الثقيل ولا يوجد غيره من يمكن أن أحكي له ما حدث، نهضت من السرير واستبدلت ملابسي بعد اغتسال سريع. توجهت إليه بمنزله في غمرة.

طرقت الباب ففتحت لي سيدة في عمر أمي، هل ناجي موجود، من يريده؟.. أنا نبيل صاحبه، تفضل يا ابني.. قادتني إلى إحدى الغرف، جاء ناجي بعد قليل. انزعج لمنظر رأسي المربوط، خير!.. هذه حكاية طويلة.. اقعد.. انتظر.. سأعد كوبي شاي أولا.. هل معك سجاير؟.. أعطاني سيجارة وأشعلها لي ثم انسحب لإعداد الشاي.

كان يستمع إليَّ مشدوها، ران الصمت بيننا بعد أن أنهيت.

تساءل بعد قليل.. وكيف ستواجه هالة بعد تلك الواقعة؟.. المهم هو هالة الآن.. لابد أنها مصدومة مما اكتشفته.. صدمة مضاعفة.. في أمها وفيك.. مسكينة البنت.. قلت له إنني لن أستطيع الذهاب إلى الكلية بعد الآن.. وأنني شديد الخجل.. أشعر بالضآلة.. ربَّتَ عليَّ مواسيا.. ليس أمامك إلا أن ترجئ التفكير في الموضوع حتى تستعيد نفسك من هذه الصدمة.. غياب بعض الأيام عن الدراسة ليس مشكلة ويمكن تداركه.. شعرت ببعض الراحة بعد أن حكيت له بالتفصيل الممل كل ما حدث.. كنت في حاجة للبوح.. كدت أنفجر من الضيق والثورة على نفسي.. أذوب من خجلي.. ثقل كالرحى كان يجثم على صدري.. كيف انسقت واستسلمت للأحداث بهذا الشكل؟!.. كيف تفكر فيَّ هالة الآن؟.. جُل همي كان هالة.. شعوري بالضآلة والذنب كان تجاهها هي.. لم أفكر في شوشو وقتها.. يجوز أنني بدأت أفكر في شوشو مع ابتعاد الواقعة وتراجعها من الذاكرة.. مع الاعتياد الكاسح الذي يصاحب مرور الأيام الرتيب.. مع بداية صحوة الغريزة وخمود الضمير المصدوم.. مع نمو الاحتياج المستبد وانفلات الذكريات من كوابح العقل.

مضت الأيام تحملني معها كريشة في مهب الريح، كنت أخرج من بيتنا يوميا في مواعيد الكلية.. أنتقي أحد المقاهي كيفما اتفق وأنا أسير مهموما وأجلس عليه بقية النهار. أعود في مواعيد عودتي العادية حتى لا ألفت انتباه أحد في البيت، لم أكن قادرا على الكلام.. على الاستجوابات.. هربت لأنجو بنفسي ولو لحظيا.. مرت الأيام وأنا لا أفعل شيئا ذا بال سوى الانتظام في بروفات

t.me/qurssan

المسرحية في مواعيدها والاستئناس بمصاحبة ناجي والحديث إليه بعد انتهاء البروفات.

قابلت أحد الزملاء في السكشن وأنا في طريقي للمدينة الجامعية في أحد الأيام، بادرني متعجبا.. أين أنت يا رجل؟.. ما كل هذه الغيبة؟.. تلعثمت.. أبدا ظروف.. لقد قلنا إنك هربت مع هالة.. علق ضاحكا.. هالة؟!.. ماذا تقصد؟.. هالة انقطعت عن الكلية في نفس الوقت الذي غبت أنت فيه.. كان الزملاء يلاحظون صداقتي مع هالة وتواجدنا معا معظم الوقت.. انقطعت.. تمتمت مرعوبا.. ماذا تعني؟.. انقطعت عن الكلية مثلما فعلت.. لذلك تندرنا نحن وقلنا لقد هربتما معا.. زاد قلقي وأنا أستمع إليه مستخفا بالأمر.. ومن أين سيدرك مدى خطورته؟.. دارت بي الأفكار حتى الدوار.. أنهيت الحوار سريعا وأنا أعده بالانتظام في الحضور لأتخلص من إلحاحة ونصائحه.. سرت تائها عما حولي.. صدمة حقيقية.. انتحيت بناجي جانبا بمجرد وصولي وأبلغته بما عرفت.. وقف حائرا لا يدري ماذا يقول.. ترى ماذا حدث؟.. هل حدث لها مكروه؟.. لابد أنها أصيبت بصدمة.. كيف أطمئن عليها؟.. تساءلت ملتاعا.. شرد مني ذاهلا.. أنهينا البروفة وانسحبنا سريعا لنتدارس الأمر.. جلسنا إلى أحد المقاهي وأخذنا نقلب الأمر على كافة الأوجه.. لم نخلص إلى شيء.. سألني.. ألا توجد لها صديقة حميمة في الكلية يمكن أن نستفسر منها بطريقة غير مباشرة؟.. فكرت بتركيز.. معنا زميلة علاقتها بها طيبة وأراهما معا كثيرا.. خلاص.. اذهب غدا للكلية واستفسر منها عن هالة.. فكرة وجيهة.. لكن كيف أسألها وأنا معروف بعلاقتي

الحميمة بها.. ليس وقت الإمعان في التفاصيل الآن.. اسألها بأي طريقة وليحدث ما يحدث.. المهم أن أطمئن على هالة.

عدت إلى البيت مهموما.. دخلت إلى غرفتي وارتميت في الفراش. لم أستطع النوم ليلتها على الإطلاق.. كدت أجن من التفكير.. ترى ماذا حدث لهالة.. هل هي مصدومة؟.. انهيار عصبي؟.. لماذا تنقطع عن الكلية؟.. وما الغرابة؟.. لقد انقطعت أنت أيضًا هروبا.. هل هي تهرب كذلك؟.. كيف تطورت الأمور بينها وبين أمها؟.. لقد تركتهما وهربت وهما مشتبكتان بالأيدي.. ياه.. ياللنذالة!.. أتتسبب في كل هذا؟.. يا رب!.. هتفت مستغيثا.. رغم عدم إيمانك تستغيث بالله!.. هل هذا وقت التفلسف؟.. نعم.. أنا في أمس الحاجة إليه الآن.. أعترف.. نبدأ في التفلسف عندما نكون مستريحين.. لكن في لحظات الضعف نلجأ إلى الله.. يا رب.. ساعدني.. شعرت بالاختناق فانتفضت من الفراش وجلست أستعيد أنفاسي.. تسللت دمعة من عينيّ تبعها نشيج محموم وبكاء مرير.

انتظرت ليلتها بزوغ النهار بصبر نافد، نهضت وأعددت كوبا من الشاي ثم اغتسلت واستعددت للذهاب إلى الكلية وأنا أفكر في الطريقة التي سأتصرف بها مع صديقة هالة، اليوم عندنا المحاضرة الأولى بمدرج الساوي، غادرت البيت مبكرا جدًّا وتوجهت إلى الكلية. وصلت قبل موعد المحاضرة بأكثر من نصف ساعة، جلست بالمدرج أنتظر حضور زميلتنا صديقة هالة والقلق يعتصرني، حاولت تذكر اسمها لكني فشلت، قبل المحاضرة بدقائق قليلة دخلت،

t.me/qurssan

انتترتُ من مكاني وذهبت إليها.. نظرت إليَّ نظرة لم أفهمها.. هي مزيج من الدهشة والريبة.. كأن لسان حالها هي أيضًا يود أن يتساءل عن هالة؟!.. هل تعرف شيئا؟.. غير معقول.. هل ستفضح هالة نفسها.. حييتها وسألتها على الفور.. أين هالة؟.. سمعت أنها متغيبة منذ فترة.. قالت وأمارات الحيرة ترتسم على ملامحها، لقد عرفت منذ يومين فقط أنها سافرت لأبيها في ليبيا.. تلفون بيتهم لم يكن يرد مدة طويلة وأخيرا ردت عليَّ والدتها وقالت باقتضاب إنها سافرت لوالدها في ليبيا.. عندما استفسرت عن السبب قالت إن والدها مريض وإنها ذهبت لتطمئن عليه.. صمتت لبرهة ثم بادرتني بالسؤال.. ألا تعلم أنت شيئا؟.. متى رأيتها آخر مرة؟.. تلعثمت للمفاجأة وقلت عفو الخاطر.. لقد كنت مريضا وملازما الفراش ولم أرها منذ مدة طويلة.. سألتني ألم تحاول الاتصال بها؟.. تحججت بأنه ليس عندنا تلفون بالبيت وأنا كنت ملازما للفراش.. هزت رأسها تعجبا وبدا عليها التشكك الممتزج بالحيرة.. تركتها وغادرت المدرج قبل أن يدخل الدكتور.. سرت مهموما وأنا أغادر الكلية.. واصلت المسير بلا انتباه.. عبرت كوبري الجامعة واستمررت في مسيري بلا وجهة محددة.. وجدت نفسي في ميدان التحرير منهكا من التفكير والسير، جلست إلى أقرب مقهى أسترد نفسي وأنا في حال من الضياع والإحساس بالحزن والضيق الشديدين.

إحباط يائس اعتراني، فقدت الرغبة في الدراسة، تماما كحالي قبل التعرف على هالة، كأنها والإقبال على الدراسة صنوان،

أعادتني للاهتمام بحضورها وروحها وها هي بغيابها تسلبني الاهتمام. استولت على تفكيري معظم الوقت، السلوى الوحيدة لي كانت في بروفات المسرح. اقترب موعد العرض مع اقتراب نهاية العام الدراسي، كنت أتردد على الكلية لأستطلع أي أخبار عن هالة، أعلن في الكلية عن اختيار فوج من الطلبة لحضور معسكرات في حلوان لمنظمة الشباب، تنظيم جديد للشباب بدأت الدولة في إنشائه، تختار أفواجا من طلبة الجامعات لحضور معسكرات لمدة أسبوعين، عرفنا بعد عودة الطلبة أنه كان يوزع عليهم محاضرات كل صباح لمناقشتها مساء مع ممثلين للاتحاد الاشتراكي والتنظيم الطليعي، معلومات مشوشة بالنسبة لنا نحن الطلبة. كانت تلك البادرة هي أول خطوة للسماح بالنشاط السياسي بالجامعات، لكن تحت بصر الدولة، كان النشاط السياسي بالجامعات قد خفت تماما منذ قيام الثورة بسبب القمع الشديد والنظام البوليسي الذي رافق حملات اعتقال وتعذيب الإخوان المسلمين والشيوعيين وكل من له نشاط سياسي، حملات متتابعة من الاعتقال لكل القوى السياسية الناشطة تقريبا، كان الشباب المتفتح يتندر على ما يحدث، الدولة دفعت الشباب للاهتمام بشيئين فقط، الكرة وأم كلثوم، حتى أصبحت كتلة الشباب غامضة بالنسبة لها، خاصة الشباب الجامعي، فقامت بإنشاء منظمة الشباب كمجسٍّ لما يجري بين الشباب الناشط، أو لرسم نوع من الخريطة السياسية لشباب الجامعات، تأكد ذلك بعد حملة الاعتقالات التي جرت لشباب الجامعات الناشطين سياسيا وغيرهم من رجال المجتمع

t.me/qurssan

مع بداية العام الدراسي التالي في أكتوبر عام ١٩٦٦، اعتقل العشرات من شباب الجامعات ورجال الفكر لمدد مختلفة دون اتهامات محددة، كانت الدولة البوليسية تتصرف بحماقة منقطعة النظير للهيمنة على أي نشاط سياسي بالجامعات أو في أي جهة من جهات الدولة، كأنها إرهاصات لما حدث بعد ذلك في يونيو من العام التالي وما أعقبه من هزيمة مروّعة هزت وجدان ووجود الأمة جميعا.

أنهينا بروفات المسرحية وقدمنا العرض قبل نهاية العام، كان عرضا موفقا جدًّا ونال نجاحا ملموسا. انتهى النشاط الوحيد الخلاق في حياتي ورجعت للوحدة والشعور بالإحباط، ها هي الامتحانات تقترب ولم أستعد لها، فقدت كل رغبة في الدراسة، فكرت في ترك الكلية.. لكن ماذا سأفعل؟.. واجهني السؤال حادا كالسكين.. لا أجيد أي عمل.. والعمل ليس بالساهل.. كيف سأعيش؟.. وماذا سأفعل في الامتحانات وأنا لم أحضر معظم محاضرات النصف الأخير من العام؟.. ارتبكت أيما ارتباك.. قبل الامتحانات بأسابيع قليلة حاولت تحصيل قدر مما فاتني، تواصلت مع بعض الزملاء واستعرت منهم بعض كشاكيل المحاضرات.. كانت كالطلاسم أمامي.. حاولت الانضمام لبعض الزملاء لمراجعة بعض الدروس دون جدوى.. أظلمت الدنيا أمام عينيّ.. شعور قاتل بالضيق واليأس والضياع ألمَّ بي، دخلت الامتحانات وانتظمت فيها كالأطرش في الزفة، أحاول استيعاب أي شيء في ليالي الامتحانات وأذهب في اليوم التالي لأواجه بالمصيبة المتوقعة، لا أكاد أفقه شيئا في

ورقة الأسئلة، حاولت نقل بعض الإجابات من الزملاء بلجان الامتحانات، وضعت ما استطعت في أوراق الإجابة بلا فهم ولا معنى.. بلادة عجيبة أصابتني عبرت بها أيام الامتحانات لأدخل بعدها في حالة من الاكتئاب والعزوف عن الحياة.

وكانت النتيجة المتوقعة، رسوب في معظم المواد، حالة من التبلد استقبلت بها النتيجة، لم أتحدث فيها مع أحد، طور من اللا مبالاة ألمَّ بي، عندما سألوني في البيت عن النتيجة بعد أيام من معرفتي بها، أبلغتهم برسوبي ببرود منقطع النظير، كأنني أصبحت معتادا على الأمر، لم أبالِ بردود أفعالهم، كأننا في عالمين مختلفين.. وتوالت الاعتراضات.. والتساؤلات الاستنكارية.. وتكرر صمتي.. وإطراقي خلال أي مناقشة معي.

توالت أيام فاترة عليَّ.. طالت فترات نومي.. لا أنهض من فراشي قبل الظهيرة.. أذهب لدورة المياه وأعاود النوم.. أو فلنقل الهروب في الفراش. استمر الحال لأسابيع، مر عليَّ ناجي بالبيت بعد عودته من الإسكندرية حيث سافر إليها بعد الامتحانات، فاجأه منظري المُهمَل، دار حديث بيننا أصر في نهايته على أن أقوم لأحلق ذقني ونخرج معا إلى أي مكان للتريض وتغيير الجو.

سرنا في طريقنا لوسط المدينة، حاول كسر حجاب صمتي بهمة وحماسة، قادني إلى أحد بارات وسط المدينة، طلب زجاجتي بيرة وجلس يحاول جاهدا أن يُسَرّي عني ويحكي لي بعض الطرائف عن رحلته إلى الإسكندرية. بدأ الكحول يؤتي بهجته على الحوار تدريجيا، طلبنا مزيدا من البيرة خلال الأمسية حتى بدأت أشعر ببعض الراحة والتخفف من الحالة الكئيبة التي

t.me/qurssan

سيطرت عليَّ طيلة الفترة الماضية. غادرنا البار آخر الليل وأنا أشعر بالامتنان لناجي، كان يبذل مجهودا صادقا ليعاونني على مغالبة ذلك الشعور العدمي الذي غرقت فيه بدون قدرة على المقاومة.

مرت أيام الصيف ولياليه متشابهة بلا بريق، تكاسل في البيت صباحا مع قيظ النهار وخروج مسائي بلا وجهة معينة، غالبا ما ينتهي بالجلوس إلى أحد المقاهي. أتخير طاولة خارج المقهى على الرصيف وأمضي الليلة سارحا بفكري أو متابعا المارة من حولي بلا هدف. يمر ناجي عليّ أحيانا فيشاركني الليلة برفاقيته الطيبة. بدأت أفكر في هالة وشوشو بشكل مضطرب ومشاعر متباينة، المودة التي كانت بيني وبين هالة تلسعني بسوط الندم والشعور بالذنب، والاشتعال الذي اكتنف علاقتنا أنا وشوشو يثير اشتياقي ويوقظ احتياجاتي الجسدية العطشى بلا ارتواء. كأنني فصام متحرك يسعى بتناقضاته ولا يفعل شيئا إزاءها. أصبحت شوشو تقتحم أحلامي كثيرا. فكرت في الذهاب إلى سميحة لكنني لم أجد الحافز الكافي لتحل مكان شوشو في مخيلتي، فكرة نظرية بلا دوافع قوية سوى الرغبة المجردة التي لم تستطع التغلب على شيطنة خيالي بشوشو.

استيقظت من نومي في أحد أيام شهر سبتمبر وأنا محموم بالاندفاع، اغتسلت واستبدلت ملابسي في عجالة. غادرت البيت متوجها إلى ميدان باب الحديد، استقللت مترو مصر الجديدة المتجه إلى بيت شوشو، نزلت بمحطتهم وحثثت السير إلى البيت، وقفت بعيدا أرقبه، مر الوقت بطيئا واشتدت حرارة الجو

مع انتصاف النهار، تمنيت أن أرى شوشو، أو حتى هالة، قد تكون عادت من ليبيا، أريد أن أرى أيهما، نفحة من عطر الأحباب على رأي عمنا الأستاذ يحيى حقي، بدأ اليأس يتسرب إليَّ، استدرت عائدا بإحباطي وقفزت في أول مترو. جلست أفكر فيما فعلت، تساءلت، وبلا جدوى.

وبدأ العام الدراسي الجديد، ها أنا أحضر محاضرات السنة الأولى للمرة الثانية بعد إعادة السنة الإعدادية، الوجوه كلها جديدة عليَّ، أكاد لا أعرف أحدا، دفعتي الآن في السنة الثالثة، يبقى لها سنة واحدة على التخرج، أدخل إلى المدرجات وأخرج منها دون أن أتبادل حديثا مع أحد، أبدو أكبر منهم سنا، صقلتني التجارب والسنون، شعور مُرهِق بالوحدة، بالبرودة، أنكمش داخل نفسي كأنني أتحاشى من حولي، شعور بالملل، بالرفض، ببعض الغضب والثورة على نفسي، بدأت أحاول التحصيل جادا، لن أحتمل إخفاقا آخر، ما كان قد كان ويجب أن يتغير هذا الوضع الشاذ، روح مختلفة بدأت بها العام الدراسي الجديد، فوجئنا في نهاية الأسبوع الأول للدراسة باعتقال مجموعة من طلبة الكلية، يوم الخميس ٦ أكتوبر ١٩٦٦، من أقسام مختلفة، لم نعرف السبب، بعضهم كان في اتحاد الطلبة وبعضهم لاصلة لهم به، حالة من الوجوم سيطرت على الكثيرين من زملائهم، غموض أحاط بهم وبمصائرهم. أعرف بعضهم، طلبة جادون ومعظمهم مجتهدون في دراستهم، كانوا على قدر من النشاط في تنظيم بعض الندوات السياسية بالكلية ودعوة بعض الضيوف للحديث فيها، حضرت مرة ندوة بمدرج الساوي

t.me/qurssan

كان المتحدث فيها هو الأستاذ ميشيل كامل، الصحفي اليساري ومدير تحرير مجلة الطليعة.

حرصت على الانتظام في الحضور منذ مطلع العام والتركيز في الدراسة رغم ثقل الأحداث على الصدر واستهلال العام الدراسي باعتقالات أكتوبر، سمعنا بعدها أن الاعتقالات شملت كتابا ومثقفين آخرين من خارج الجامعة. بدأ المعتقلون في الخروج على دفعات متباعدة، تناثر الكلام عن اعتقالهم بالسجن الحربي بالقلعة واستجوابهم حول علاقاتهم بالشيوعيين وبالقوميين العرب. لم نفهم موضوع القوميين العرب في البداية إلا أنه اتضح بعد ذلك أن المباحث وجدت ببيوت بعض المعتقلين مجلة الحرية التي تصدر في بيروت عن حركة القوميين العرب وتباع عند مدبولي بميدان سليمان باشا. سمعنا أيضًا أنه تم سؤال المعتقلين عن رأيهم في الميثاق، وهل هو نظرية أم دليل عمل؟..

انتهى العام وبدأ عام جديد، كنا نجري البروفات على مسرحية مأساة الحلاج لصلاح عبد الصبور بمسرح الجامعة. أصابني الإحباط بإسناد دور صغير لي في المسرحية، دور السجين الثاني، لم أكن أتصور ما حدث، طبعا كان أملي أن أقوم بدور الحلاج، لكن تم إسناده لناجي، أنا أعترف بأن ناجي ممثل رائع ولا اعتراض لي طبعا على إسناد الدور له، لكنها كانت أمنيتي، لكن لم أتصور أن يسند لي المخرج دور السجين الثاني، كان من الممكن أن أقنع بدور الشبلي مثلا، أصابني الغم لأيام بعدها لكني استمررت في البروفات وأقنعت نفسي بالتركيز هذا العام في الدراسة حتى أجتازه

بنجاح وأنتقل إلى السنة الثانية، لا أنكر وجود غصة في حلقي من تقييمي في الفرقة على هذا المستوى، كنت أعتقد أنني ممثل له وزن في الفرقة ويستحق دورا أفضل، لكن ما باليد حيلة، التمثيل في حد ذاته إشباع لي، حياتي على خشبة المسرح تكمل ما أفتقده في حياتي الواقعية على مسرح الحياة من نجاح وتوفيق، لكن هل هذا الاختيار يشير بإصبع خفي إلى إخفاق آخر؟.. إلى مكانتي الحقيقية كممثل، في مسرحية تاجر البندقية أخذت دورا ثانويا، وها أنا يتم إعطائي دورا ثانويا آخر في مأساة الحلاج.. لكن دور حسن في عيلة الدوغري كان أحد الأدوار الرئيسية.. لا أنكر أنني تمنيت أن أقوم بدور سيد الأخ الأكبر، لكن دور حسن كان دورا محوريا بين الإخوة في المسرحية.. شغلتني هذه الهواجس فترة لا بأس بها، لكني لم أستسلم لها رغبة في عدم التأثير على حالتي النفسية وبالتالي على قدرتي على التحصيل الدراسي. كان لابد أن أجتاز مسلسل الفشل حتى أتماسك مرة أخرى.

انكببت على دراستي جادا في محاولة عبور أزمة رسوبي المتكرر. كانت حركتي تنحصر بين الانتظام في حضور المحاضرات والدروس بالكلية وبروفات المسرحية ثم العودة للبيت والسهر في المذاكرة حتى ساعة متأخرة من الليل. رغبة غاضبة في داخلي أججت إصراري على إثبات الذات من جديد، كأنني استعدت فجأة إنجازات التفوق الغابرة. كنت أيضًا كمن يتشبث بالانهماك الدراسي هربا من التفكير في شوشو وهالة وما سببته لهما من أزمات ومعاناة. لم أكن أريد التفكير في الموضوع برمته. كنت أهرب، نعم، بمزيج

t.me/qurssan

من الخجل والشعور بالذنب.. وأيضًا الاشتياق الغامض.. لمن؟.. لشوشو الأنثى التي أشعلت جسدي وكياني كله، وأيضًا لهالة، زميلة الدراسة البشوش، ثم الصديقة الودود، وأيضًا التي أشعرتني بقدر من الانجذاب العاطفي.. من الرومانسية الناعمة.. قبل أن أنغمس في لذات الجسد مع أمها.

نقرات خفيفة على باب غرفتي وأنا مستغرق في المذاكرة.. تفضل.. فتحت نادية أختي باب الغرفة وأطلت برأسها لتبلغني بالخبر الصاعق.. واحد على الباب بيقول مدام شوشو منتظراك تحت في السيارة.. رعدة سرت بجسدي واضطراب عظيم ألم بي.. قلت ببلاهة وأنا أبتلع ريقي.. من الذي بالباب؟.. واحد يقول إنه السائق.. من مدام شوشو هذه؟.. قلت متلعثما.. هذه أم واحدة زميلتي في الكلية.. كانت زميلتي العام الماضي وسافرت إلى والدها في ليبيا.. يبدو أنها أرسلت لي.. تطلب شيئا.. نظرت إليّ نادية باستغراب.. انتترت بعد أن استجمعت قواي وخرجت للسائق.. أهلا وسهلا.. خير.. مدام شوشو تنتظرك بالسيارة.. تريدك.. صمت لبرهة ثم قلت له منهيا الحديث المبتور.. سأستبدل ملابسي وأنزل لها حالا..

دخلت إلى غرفتي مرتبكا.. درت حول نفسي لا أدري ماذا أفعل؟.. ماذا تريد؟.. هل جُنت لتأتي لي إلى البيت؟.. وماذا بعد؟.. لا بد أن أنزل إليها.. استبدلت ملابسي في عجالة.. لبست الحذاء وقبل أن أغادر الغرفة.. عدت وسحبت زجاجة الكولونيا.. رششت رشتين على وجهي وملابسي وانطلقت مندفعا قافزا على الدرج وأنا ألهث من الاضطراب.. والخوف.

اقتربت من السيارة التي أعرفها جيدا، فتحت الباب وأنا أستجمع كل قواي لأتمالك نفسي، هززت رأسي متمتما دون أن يخرج لي صوت، نظرت لي نظرة صارمة وهي تومئ برأسها قائلة.. ادخل.. نظرت إليها ببلاهة فكررت بحزم.. ادخل بقولك.. دخلت إلى السيارة مسلوب الإرادة.. قالت للسائق باقتضاب.. على البيت.. سلمت أمري راضخا وأنا أشعر بضربات قلبي تكاد تفجره من العنفوان. تنفست بصعوبة وأنا جالس إلى جوارها لا أدري ماذا أفعل!.. إلى أين أنظر!.. أين أضع يديّ.. ارتباك ما بعده ارتباك.. أحاول أن أستشف ماذا تريد مني بالضبط.. تتسمر في مكانها صامتة إلى جواري ونظراتها متحجرة.. لم أشعر بالطريق.. دارت بي الدنيا واستسلمت مرغما لها وللأقدار.

وصلنا إلى البيت، قالت للسائق، اتفضل انت وتعالَ بكرة الساعة التاسعة، نزلت وراءها وصعدنا الدرج صامتين، فتحت باب الشقة بالمفتاح فاستنتجت أنه لا يوجد أحد بالشقة، دخلت وأفسحت الطريق لي فدخلت وراءها، أقفلت الباب واتجهت إلى غرفة المعيشة، أشارت إلى أحد المقاعد لأجلس، جلست هي إلى المقعد المجاور بزاوية تجعل الجالسَين متقابلين. ران الصمت بيننا لفترة طالت.. بدأت أشعر ببعض الخوف.. ماذا تدبر لي؟!.. نظراتها أخافتني.. نظرات صارمة يشوبها غضب مكتوم.. غِلٌّ متحفز.. جف حلقي واضطرب تنفسي.. قلت بصوت مخنوق.. تحت أمرك.. قالت بثبات بصوت خفيض حازم.. أنتظر تفسيرا.. ما هذا الذي حدث؟.. كانت تنظر إليَّ كالقط المتحفز لفأر قابعٍ أمامه أُغلِقَت عليه منافذ الهروب.. حاولت ابتلاع ريقي الجافّ

t.me/qurssan

وأنا أبحث عن الكلمات بعناءٍ عظيم.. تلعثمت الكلمات على شفتيَّ.. الحقيقة.. لا أدري ماذا أقول.. لكن.. طبعا.. في البداية.. أنا آسف.. أنا شديد الأسف.. لا أدري كيف حدث كل ذلك.. صمتٌ لأبحث عما أقوله.. تيه فظيع.. أنت تعرفين.. لقد تعارفنا أنا وهالة مصادفة.. كانت تريدني أن أساعدها في الميكانيكا.. طَلَبت أن نذاكر معا.. ودعتني إلى البيت عندكم في البداية.. مع الوقت شعرت بأنها.. يعني.. شعرت ببعض الميل.. أو الإعجاب منها.. لم يكن الأمر أكثر من ذلك.. وانتهى العام بنجاحنا.. ثم سفرها.. و.. ما بعد ذلك من أحداث في المعمورة.. شوشو.. لقد كنت صادقا جدًّا معك.. وكنت منجذبا لك بكل قواي.. لم أكن أمثل عليكِ.. ولم يكن هناك أي شيء بيني وبين هالة حتى ذلك الوقت.. بعد عودة هالة.. يمكن.. تتذكرين أني كنت أتحاشى القدوم إلى البيت عندكم.. كنت في صراع فظيع.. بين علاقتنا.. وشعوري بميل هالة نحوي.. صمت قليلا أستجمع بعض الجرأة أستعين بها على كذبي.. فما أقوله ليس الحقيقة الكاملة طبعا.. لكني في موقف لا أحسد عليه.. وألمح الشر في عينيها.. كنت أتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني لأتخلص من تلك الورطة.. طال صمتي فسمعتها تقول باقتضاب.. ثم ماذا؟.. إني أنتظر.. لا شيء.. اضطررت للرضوخ لإلحاح هالة بالحضور للمذاكرة معها.. وفي لحظة ضعف.. يعني.. لا أنكر أني ضعفت.. لكنها.. هالة.. كانت متدفقة المشاعر.. شعرَت أنني أصدها كثيرا.. كان الحزن باديا عليها.. ارتمت في حضني حزينة.. حاولت أن أوضح لها.. لكني ضعفت

أمام انفعالها.. أمام تأثرها وإحساسها بنوع من.. الألم.. المهانة.. أو عدم احترامي لمشاعرها.. ضعفت لحظيا.. ثم.. ثم كان ما كان.. وعدتِ أنتِ في تلك اللحظة.. يا سلام.. صفقت بيديها ساخرة وهي تنظر لي بابتسامة صفراء.. حكاية مؤثرة جدًّا.. وتريدني أن أصدق.. وانقلبت فجأة إلى عاصفة من الشتائم الغاضبة.. ياحيوان يا قذر.. ألم تتردد أو تستحِ وأنت على علاقة بأمها.. أنت حقير وتافه.. نظرت إليها متوجساً.. بدأت أشعر بالرفض للموقف الذي تضعني فيه مستمتعة بإذلالي وإهانتي.. لا بد من وضع حد لهذه الإهانات.. سمعتها تصرخ قائلة.. لقد حرمتني من ابنتي إلى الأبد يا وسخ.. لقد سافرت إلى أمريكا وانقطعت علاقتها بي يا حثالة البشر.. في لحظة خاطفة تناولت منفضدة سجائر زجاجية من الطاولة المجاورة وقذفتني بها.. حاولت تحاشيها بيديّ لكنها أفلتت وشجت جبهتي.. سالت الدماء على وجهي ولوثت كفي.. في لمح البصر نَهَضَت وانهالت عليَّ ضربا بحذائها.. جن جنوني لحماقتها المتنامية ولمنظر الدماء تلطخ كفيّ.. أمسكت بيديها بقوة وهي تصرخ لأتركها.. نظرت إليها بغِلّ وثورة.. كبلت حركتها بسهولة.. توالت صرخاتها.. شعرت برغبة عارمة في الانتقام.. دفعتها على الأرض.. بدأت في نزع ملابسها.. صرخت.. مزقت ملابسها عنوة.. تعرى صدرها.. قاومتني بضراوة.. صرعتها أرضا وواصلت تعريتها.. قاومت.. شعرت بالزهو لتقييد حركتها.. للثأر من إهاناتها المتكررة.. شعرت بالانتصار.. فجأة بدأت أشعر بالرغبة فيها.. في هزيمتها.. في مضاجعتها وافتراسها.. أكملت نزع ملابسها.. كان

t.me/qurssan

الإنهاك قد هد قواها.. ضعفت مقاومتها.. نزعت ملابسها كاملة.. احتضنتها بقوة.. ضعفت مقامتها أكثر.. خلعتُ ملابسي عنوة وأنا مازلت أقيدها.. قبلتها.. أشاحت بوجها بعيدا.. واصلت تقبيلها في رقبتها وصدرها.. بدأت تسترخي.. أو تفقد قوتها.. لم أبالِ.. واصلت إثارتها بكل ما أعرف من مكامن مشاعرها.. انهارت.. ضاجعتها على الأرض.. كانت أنفاسها مضطربة.. لكنها لم تكن متجاوبة كعادتها.. كانت كمن اضطر من الإنهاك وفقدان القدرة على المقاومة.. كنت أشعر بالانتصار عليها.. بالثأر من إهاناتها المتكررة.. خمدنا في النهاية.. ارتميت إلى جانبها منهكا.. أشاحت بوجهها بعيدا عني.. سمعت بكاءها خفيضا في البداية.. بدأ بكاؤها يعلو حتى تحول إلى نحيب مؤلم.. شعرت بالرجفة.. بالخجل من نفسي.. ياه.. ما هذه النذالة؟!.. كيف تحولت إلى حيوان بهذا الشكل.. تأسفت لجرحها للمرة الثانية.. استدرت إليها مترددا.. ربتّ عليها.. زاد نحيبها.. همستُ بأسى.. أنا آسف.. حقيقي أنا آسف.. سامحيني.. لا أدري كيف حدث كل هذا.. لقد ضغطتِ عليّ كثيرا.. أهنتني أشد الإهانات.. آسف حقيقي.. قالت هامسة وهي تنتحب.. امشِ.. أرجوك.. امشِ دي الوقتِ.. أرجوك.. هززت رأسي.. استجمعت قواي.. نهضت ولملمت ملابسي المبعثرة.. ارتديتها على عجالة.. غادرت الغرفة وهي تشيح بوجهها بعيدا.. دخلت إلى الحمام.. غسلت الدماء الملطخة لوجهي.. كان النزيف قد توقف.. استدرت يائسا وحزينا.. غادرت الشقة وأسرعت في طريقي مبتعدا عن البيت وأنا أشعر أنني في حاجة إلى السير طويلا لأستجمع نفسي من هول ما حدث.

ماذا فعلت؟.. سرت أسأل نفسي مذهولا.. كيف تطورت

الأمور بهذا الشكل؟!.. هل جننت؟.. لقد تصرفت كعربجي.. لكنها أمعنت في إهانتي وإذلالـي.. أصابتني وأسالت دمائي.. أليست معذورة؟.. تكتشف فجأة أنك على علاقة بابنتها الوحيدة.. وفي بيتها.. وهي التي أسلمت نفسها لك ضعفا واحتياجا.. ماذا تنتظر؟.. هل تربت عليك وتقول عفى الله عما سلف؟!.. الست مصدومة ومكلومة.. وفقدت ابنتها.. ولماذا؟.. للصراع على طالب فاشل في سن ابنها؟.. أكاد أجن.. لكن كيف تضاجعها قسرا؟.. أي حيوان أنت؟.. هي ليست صبية مراهقة.. إنها ست.. كان من الممكن أن تكون أمك.. لا لا.. لا يمكن.. أمي لا تفعل هكذا.. يا سلام؟!.. لماذا؟..على راسها ريشة؟.. إنها امرأة محترمة أيضًا.. لكنها ضعفت واستسلمت في لحظة ضعف.. لحظة احتياج.. بلا حسابات.. ومن الذي يستطيع أن يحسب دائما؟.. فعلا أكاد أجن.. سرت بمحاذاة المترو حتى شعرت بالإعياء.. قفزت في أول مترو انتبهت لقدومه ولحسن حظي لم يكن مزدحما.. جلست منهكا بجوار الشباك وأخذت أتابع المشاهد تتراجع مع انطلاق المترو.. شعرت باختناق فظيع.. نزلت بميدان المحطة.. جلست بجوار النافورة أنظر للماء المندفع وخلفه تمثال رمسيس الثاني يقف شامخا.. كم شاهد من مهازل تمر من أمامه!..مر بائع كازوزة.. كنت أشعر بعطش شديد.. ناديته.. طلبت حاجة ساقعة.. أي حاجة تروي العطش.. فتح لي زجاجة أورانجو.. عببتها دفعة واحدة.. شعرت بالارتواء.. والإعياء.. استجمعت طاقتي لأنهض من مكاني.. جررت ساقيّ إلى كوبري شبرا.. عبرته.. انحرفت إلى شارعنا وأنا شبه تائه عما حولي.. وصلت أخيرا.. صعدت الدرج

t.me/qurssan

بصعوبة.. فتحت الباب بمفتاحي ودلفت في هدوء.. استبدلت ملابسي وارتميت على الفراش.

مضت أيام كنت فيها فاقد الاتزان، تمنيت أن أتماسك سريعا حتى لا تضيع مني السنة، كنت جادا في الرغبة في اجتيازها بالنجاح والانتقال إلى السنة الثانية. تأخرت سنتين دراسيتين وأتمنى أن أصلح بعض ما فات. مشاعري العاطفية كانت مرتبكة، تذكرت هالة كثيرا.. ترى أين هي الآن؟.. كيف تفكر فيَّ.. تذكرت شوشو أيضًا.. شعرت بالأسف لما تطورت إليه الأمور. وجود ناجي إلى جواري ساعدني كثيرا، كان على علم بتطورات الأحداث. بذل الكثير من وقته ليقف إلى جانبي حتى أجتاز محنتي، مدين أنا له فعلا بالكثير. أوشك العام الدراسي على الانتهاء واقترب موعد عرض المسرحية، تكثفت البروفات قبل العرض مما ساعد بشكل غير مباشر على عدم تركيزي على مشاكلي الشخصية، اندمجنا في البروفات النهائية تمهيدا للعرض الذي تحدد له أواخر شهر أبريل، سارت البروفات مع المذاكرة جنبا إلى جنب، لابد أن أجتاز امتحانات هذا العام بنجاح، روح الطالب المجتهد انتفضت بداخلي مرة أخرى وارتفعت كفاءة تحصيلي كثيرا، انتهى العرض المسرحي بنجاح وتم دعوة الكثيرين من رجال المسرح والصحافة والإعلام. كانت فرصة لجميع أعضاء الفرقة للظهور أمام الصحافة والإعلام خاصة مع نجاح العرض وإطراء الجميع على أداء الفرقة لمسرحية هامة مثل مسرحية مأساة الحلاج.

بعد انتهاء عرض المسرحية كان تركيزي الأساسي على

المراجعة النهائية للمواد المختلفة استعدادا للامتحانات الوشيكة. قمت بمراجعة بعض المواد بمفردي، فلم أكن بحاجة إلى مساعدة، بعض المواد التي لم أحضر محاضراتها بانتظام، كنت في حاجة لمساعدة من الزملاء الذين واظبوا على الحضور، انضممت إلى مجموعة من الزملاء اعتادت على المذاكرة الجماعية، كنت أحضر معهم تلك المواد التي احتجت إلى مساعدة فيها أو التي لم تكن محاضراتها كاملة عندي.

شهر مايو شهر الحر والامتحانات النهائية، شهر الاستعداد للإجازة الصيفية بعد عناء العام الدراسي، لكن مايو هذا العام جاء ومعه غيوم تلوح في الأفق، بدأت التوترات وتصاعدت وتيرتها بين إسرائيل والدول العربية المحيطة بها. بدأت إسرائيل في الشكوى من النشاط الفدائي الفلسطيني في الجليل وهددت بمهاجمة سوريا، أعلنت الحكومة المصرية في منتصف الشهر نقل حشود عسكرية وآليات إلى الجبهة الشرقية وانعقاد مجلس حرب كبير في القاهرة في مقر القيادة العامة للجيش بناء على اتفاقية الدفاع المشترك مع سوريا. تلى ذلك إعلان حالة الطوارئ في مصر كما طلبت مصر سحب قوات الطوارئ الدولية التابعة للأمم المتحدة في الشرق الأوسط؛ وذلك لأن هذه القوات تتواجد على الجانب المصري من الحدود دون الجانب الإسرائيلي.

أعلن الرئيس جمال عبد الناصر التعبئة العامة واستدعاء قوات الاحتياطى، ثم أغلقت مصر مضيق تيران أمام السفن التي تحمل العلم الإسرائيلي. اعتبرت الحكومة الإسرائيلية القرار المصري

فرض حصار بحري على إسرائيل وأعلنت أنه عمل حربي وعدائي يجب الرد عليه. تسارع رهيب للأحداث وتوجس مما يمكن أن تتطور إليه.

كانت الثقة في الجيش المصري في قمتها خاصة بعد حربه في اليمن وشعورنا أنها كانت تجربة للعمليات للجيش المصري، أو هكذا كان التصور لدى عامة الناس، وكان رد المشير عبد الحكيم عامر على الرئيس جمال عبد الناصر عندما سأله عن استعداد الجيش المصري للحرب في زيارته لقاعدة أنشاص الجوية، «رقابتي يا ريس»، مبعث اطمئنان لنا جميعا. كنا مطمئنين وأيضًا انتظرنا بسخرية دفينة أن تخطئ إسرائيل وتستفز أيا من الجيشين المصري أو السوري فتكون قد كتبت نهايتها بيديها، فكيف يمكن لهذا الكيان الهزيل أن يصمد لجيشين بقوة الجيشين المصري والسوري، يا لها من ثقة كنا مطمئنين لها في تلك الأيام.

زار الملك حسين مصر في أوائل يونيو ووقع على اتفاقية دفاع مشترك مع مصر فأصبحت إسرائيل محاطة بثلاث دول، مصر والأردن وسوريا، فكأنها سعت إلى حتفها بحماقاتها المتكررة وغرورها الزائد، وقد سمعنا أيامها أن الملك حسين أصر على الاستعانة بالفريق عبد المنعم رياض ليكون مسئولا عن قيادة الجبهة الأردنية، وتناثرت الأقوال إنه من أهم ضباط الجيش المصري وأقدرهم.

كان يوم الاثنين هو يوم امتحان الرياضيات، الامتحانات كانت

في فترة بعد الظهر، جلست أراجع المراجعة النهائية منذ الصباح الباكر، سمعت أصوات خبطات بعيدة، كأنها صوت تنفيض سجاجيد في البلكونة بالمنفضة الخشبية. زادت أصوات الخبطات فتعجبت، هل تقوم كل ستات الشارع بتنفيض السجاجيد، غير معقول، بدأت أتوتر فقمت إلى الشرفة لأكتشف هذا الهوس الذي أصاب ستات شارعنا، لم ألحظ سجاجيد ولا تنفيضا.. الله، ما الحكاية؟!.. زاد الصوت فبدأت في التوجس وأدرت جهاز الراديو.. يا خبر!.. إنها الحرب.. بيانات عسكرية متتالية من مصر بإسقاط طائرات إسرائيلية زيّ الرز.. الله الله.. يا خيبتك يا إسرائيل.. إن شاء الله على بعد الظهر نكون دخلنا تل أبيب.. كيف ستقاوم ثلاثة جيوش عربية تحيط بها كالكماشة، مصر والأردن وسوريا؟!.. شعرت بنوع من الزهو والبهجة لتخلصنا من هذا الكيان الطفيلي الذي تم زرعه بفلسطين الحبيبة، فرحت أيضًا باحتمال إلغاء الامتحانات وتبقى هيصة. تركت مراجعة الرياضيات وجلست إلى جوار جهاز الراديو أتابع البيانات العسكرية المصرية بقلب يكاد يقفز من الفرحة..

البلاغ رقم ١: قامت إسرائيل في الساعة التاسعة من صباح اليوم بغارات جوية على القاهرة وعلى جميع أنحاء الجمهورية العربية المتحدة، وقد تصدت لها طائراتنا وأسلحتنا المضادة للطائرات.

البلاغ رقم ٢: أُسقِطَت ٢٣ طائرة إسرائيلية حتى الآن في الغارات التي شنتها إسرائيل على الجمهورية العربية المتحدة صباح اليوم.

البلاغ رقم ٣: ارتفع عدد الطائرات التي أُسقطت حتى الآن إلى ٤٢ طائرة.

t.me/qurssan

إيه العظمة دي؟!.. كده إسرائيل راحت في داهية.. الموضوع محتاج كوباية شاي، انتفضت من مكاني مهرولا إلى المطبخ، عملت واحد شاي كشري سريعا وعدت،لم يكن معي سجاير فتسللت إلى غرفة ماما وسرقت سيجارة من علبة سجايرها.

عدت سريعا إلى الراديو فسمعت البيان الخامس، البيانات سريعة جدًّا، الطائرات الإسرائيلية تقع أسرع من إصدار البيانات.. الله عليكم..

البلاغ رقم ٥: في التاسعة من صباح اليوم بدأ العدو الإسرائيلي هجوما بريا وجويا واسع النطاق على الجمهورية العربية المتحدة. ففي الجو قامت الطائرات الإسرائيلية بغارات على عدد من المطارات المصرية في منطقة سيناء ومنطقة القناة وعلى إحدى القواعد الجوية بالقرب من القاهرة. وفي البر شنت القوات الإسرائيلية هجمات متعددة على كل الجبهات، وهناك الآن هجمات على طول جبهة الحدود المصرية كما أن هناك هجوما على شرم الشيخ.

البلاغ رقم ٦: حاولت سفينة أمريكية ناقلة للبترول متجهة إلى السويس أن تقف بالعرض في القناة عند الكيلو ٤٠٠ لتعطيل الملاحة، وقد أرسلت لها قاطرة ولكنها وقفت بالعرض مرة أخرى وصدرت تعليمات بقطرها. كما حاولت إسرائيل ضرب ناقلة بترول فرنسية عند منطقة كبريت.

البلاغ رقم ٧: تم استجواب أول أسير من طياري العدو الذين أسقطت طائراتهم خلال العمليات العدوانية التي قام بها العدو

الإسرائيلي صباح اليوم. واسم الطيار هو الكابتن لافو موردخاي وعمره ٣٥ سنة.. وقد أفاد في استجوابه أنه ووحدته تلقوا الأمر بالهجوم على الجمهورية العربية المتحدة في الساعة السادسة من صباح اليوم وكانت المهمة المحددة لوحدته هي الهجوم على مطار المرج بالجمهورية العربية المتحدة.. ويظهر تماما أن العدو الإسرائيلي هو الذي بدأ بالهجوم المسلح على الجبهة العربية، والقيادة العليا للجمهورية العربية المتحدة تبعث الآن بتسجيل تلفزيوني إلى مجلس الأمن بشهادة أول الطيارين الإسرائيليين لكي يعرف العالم كله من الذي بدأ بالعدوان.

البلاغ رقم ٨: تم أسر سبعة طيارين آخرين للعدو في منطقة القناة.

البلاغ رقم ٩: ماتزال عملية الإغـارة الجوية للعدو على المطارات مستمرة حتى الآن، وقد أصبح عدد الطائرات حتى هذه اللحظة سبعين طائرة.

كانت الساعة الواحدة وعشر دقائق ونحن أسقطنا سبعين طائرة لإسرائيل وأسرنا هذا العدد من الطيارين. على نفسها جنت براقش. يبدو أن نهاية إسرائيل باتت وشيكة، عرفت للتو أنه تم إلغاء الامتحانات وتأجيلها إلى موعد يعلن عنه فيما بعد.. ياه.. إفراج مؤقت.. النهاردا الأخبار كلها تفرح.

وانتهى اليوم نهاية مدهشة، فقد أذيع البلاغ السابع عشر الذي أعلن توغل قواتنا المدرعة في داخل الأراضي المحتلة من فلسطين. واضح أن الأمر قد انتهى بالنسبة لإسرائيل.

t.me/qurssan

كنت أريد أن أشارك في هذه الملحمة الوطنية، نهضت من نومي مبكرا في اليوم التالي وكلى تصميم على التطوع للمشاركة فيها.. كيف؟.. لا أدري.. أين؟.. لا أعرف.. تفتق ذهني عن قرار الذهاب إلى الكلية.. لابد من وجود معلومة توضح لنا كيف نشارك.. انطلقت إلى الكلية فوجدت عددا كبيرا من الطلاب تنتابهم نفس المشاعر.. تناثرت الأقوال عن وجود تدريبات للطلبة بالمدينة الجامعية للمشاركة في المجهود الحربي. انطلقنا إلى المدينة الجامعية وأعلنا رغبتنا في المشاركة، قالوا لنا إنهم بصدد إعطاء تدريبات عسكرية للطلبة عن طريق صف ضباط التربية العسكرية بالجامعة. كان الاضطراب واضحا في التنظيم. طُلِبَ منا القدوم في اليوم التالي. عدنا إلى بيوتنا وكلنا شوق إلى بداية التدريبات العسكرية.

جلست على أحد المقاهي في طريق عودتي إلى البيت لألتقط أنفاسي، طلبت كوبا من الشاي وجلست أستمع إلى تعليقات الفرحة من الناس وهي تتصفح عناوين جرائد اليوم، «الجيش العربي يزحف إلى تل أبيب».. «القوات العربية طوّقت منطقة النقب وتواصل زحفها».. «الجيش السوري يدمر مواقع العدوان داخل الأراضي المحتلة تمهيدا للقوات الزاحفة».. «أمريكا وبريطانيا تشتركان في العدوان».. «المعركة الفاصلة تدور الآن داخل إسرائيل».. «سلاح الجو الإسرائيلي يلقى أكبر هزيمة فوق الأرض العربية»، وكتبت جريدة الأخبار «قواتنا تتوغل داخل إسرائيل».. «القوات السعودية تدخل المعركة».. «الجزائر

والكويت والسودان تعلن الحرب على إسرائيل»، وأكدت جريدة الأهرام أن «معارك ضارية على كل الجبهات مع العدو»..توالت تعليقات الناس المتفائلة.. ماشاء الله.. بالذمة حتلاحق على مين ولّا على مين إسرائيل.. ياعم.. إسرائيل خلاص.. راحت عليها.. دي راحت في الوبا.. تناثرت التعليقات الواثقة من حولي وسط فخر الناس وبهجتها بنتائج الحرب المذهلة.

في اليوم التالي ذهبت منذ الصباح الباكر إلى المدينة الجامعية، تم تقسيمنا إلى مجموعات مع كل مجموعة أحد المدربين من صف ضباط التربية العسكرية، كان التدريب منصبا على دراسة البندقية اللي أنفيلد ٧,٦٢، تم فرش بطانية على الأرض لإعطاء دروس فك وتركيب البندقية، ألقى علينا بعدها المدرب الحركة الميكانيكية للبندقية وطلب منا حفظها:

عند الضغط على التتك يتحرر الطارق من منيمه طارقا مؤخرة إبرة ضرب النار التي تطرق الطلقة من الخلف فيحدث الانفجار داخل الطلقة محدثا كمية كبيرة من الغازات.. طلب منا المدرب تسميع الحركة الميكانيكية من الذاكرة وكان يصححها لكل واحد منا في دوره، استمررنا في هذا التدريب حتى بعد الظهر ثم طلب منا الانصراف والعودة في اليوم التالي.

عدت إلى البيت واجما وأنا أردد مذهولا.. الطائرات تسقط بالجملة.. الجرائد تقول إن المعركة الآن داخل إسرائيل ونحن أمضينا يومين لتنظيمنا وحفظ فك وتركيب البندقية اللي أنفيلد ٧,٦٢ والحركة الميكانيكية لها.. طيب متى سننتهي من البندقية

t.me/qurssan

لنرى بقية الأسلحة أو لنلحق بالمشاركة في المجهود الحربي؟.. شعرت بالعبث.. منتهى العبث.. كأنهم يريدون أن يلهونا بأي شيء وخلاص.. أو أن الجيش قد شعر بأنه لايحتاج دعما من الجبهة الداخلية بعد أن سحق إسرائيل بسهولة.. اتخذت قرارا بالتوقف عن الذهاب إلى التدريبات الهزلية في المدينة الجامعية فورا وأنا كلي حسرة على عدم استغلال حماسنا للمشاركة بأي شكل في هذه الملحمة الرائعة.

قابلت سمير على السلم أمام شقته بالدور الثاني، دعاني إلى الدخول وقضاء بعض الوقت، دخلت معه وانغمسنا في الحديث حول الحرب وأحداثها، شربنا الشاي معا وسألته عن أخبار امتحاناته، كان في السنة الثالثة بكلية الصيدلة، تعثر في السنة الأولى أيضًا لكنه انتظم بعدها في دراسته بدون انتكاسات. أصر على أن يقرأ لي قصة كتبها في اليوم السابق عن الحرب، قال لي إنه سهر طوال الليل يكتب فيها منفعلا بالأحداث، اضطررت لمجاملته على مضض وجاهدت للتركيز معه أثناء قراءته للقصة. سألني متشوقا عن رأيي بعد أن انتهى من القراءة فأثنيت عليها حتى لا أصيبه بالإحباط، في الحقيقة سرحت بفكري أثناء قراءته بسبب قلقي وانشغالي مع ما يمر بالبلد من أحداث، وهل هذا وقت لقراءة القصص والحكم عليها؟.. سقطت مني أجزاء منها أثناء قراءته لكني تظاهرت بالمتابعة والإعجاب. غادرته بعدها وصعدت إلى شقتنا وأنا أتعجب من إصراره على الكتابة وقراءة ما يكتبه وسط هذا القلق المحيط، أنا شخصيا لم أكن قادرا على التركيز في أي شيء سوى متابعة أخبار المعركة.

قابلتني نادية أختي فسألتني ملهوفة أين كنت منذ الصباح، أبلغتها أني ذهبت إلى الكلية للتطوع والمساهمة في المجهود الحربي. نادية أنهت دراسة دبلوم التجارة في العام الماضي ومازالت تبحث عن عمل مناسب. أبلغتني بقلق بابا وماما عليّ، دخلت لهما بغرفة النوم لطمأنتهما. أنهيت الحديث سريعا ودخلت إلى غرفتي لأخلو بنفسي وأتابع الأخبار على جهاز الراديو.

كنت أشعر بالإنهاك والجوع. قمت إلى المطبخ وأكلت سريعا من الموجود، جهزت كوب شاي وأخذته إلى الغرفة مع جريدة الأهرام، تمددت في الفراش أتابع جهاز الراديو وأتصفح الجريدة، عنوان المانشيت الرئيسي يقول إن الطيران الأمريكي والبريطاني يعمل ضدنا في المعركة.. الأدلة قاطعة على أن الطيران الأمريكي والبريطاني يساعد العدو مساعدة متواصلة في معركته ضد كل الجبهات العربية.. ما هذا الكلام المقلق؟.. بعد أن تبينت أدلة التواطؤ الأمريكي قررت القاهرة بعد مشاورات مع الدول العربية قطع العلاقات السياسية مع الولايات المتحدة الأمريكية.. سوريا والجزائر قررتا أمس قطع علاقاتهما السياسية مع حكومتي الولايات المتحدة وبريطانيا.. يا نهار أسود!.. الكلام لا يطمئن.. يبدو أن شيئا خطيرا قد جد في الأمور.. أن يصل الأمر إلى قطع العلاقات مع أمريكا!.. ربنا يستر.. ظللت أحرك المؤشر بين المحطات بحثا عن أخبار المعارك أو أي أخبار جديدة، تجمع تعب النهار مع الإرهاق العصبي فبدأت أشعر بالنعاس مع تقدم الليل، رحت بعدها في نوم عميق مليء بالأحلام المضطربة.

t.me/qurssan

بدأ بعض الجيران يقولون كلاما غريبا، ابن البواب يقول إنه رأى في ميدان باب الحديد عددا كبيرا من الجنود المصريين، يقول إن منظرهم فظيع، حفاة وملابسهم ممزقة وينزلون بالمئات من قطارات محطة كوبري الليمون، الناس تتناقل أنهم قادمون من خط القناة.. يا نهار أسود!.. يعني إيه؟.. البلاغات والصحف تقول إن المعارك تجري داخل إسرائيل.. أنت متأكد يا بني.. أيوه يا بيه.. عندما سمعت هذه الأخبار ذهبت بنفسي.. المنظر يحزّن.. نحن نسكن في أول شبرا بجوار محطة السكك الحديدية.. خطوة من ميدان رمسيس.. الأخبار وصلت لنا سريعا.. كآبة شديدة جثمت على صدري.. ماذا حدث؟.. أرسلت لشراء جريدة الأهرام.. جلست أقرأ بقلق متزايد.. «القتال مستمر بعنف على الجبهة المصرية».. «معارك متصلة بين قواتنا وبين قوات العدو طوال نهار وليل أمس».. أين هذه المعارك؟.. «قواتنا تتجمع على خط الدفاع الثاني وتلحق بهجمات العدو خسائر فادحة».. نعم؟!.. خط الدفاع الثاني!.. يعني إيه؟.. «شعوب الأمة العربية وكل الشعوب الحرة في العالم واثقة الآن من التواطؤ الأمريكي البريطاني مع إسرائيل».. «الاتحاد السوفيتي دعا إلى جلسة طارئة أخرى لمجلس الأمن للنظر في الموقف المشتعل بالنار على جبهات القتال».. «مجلس الأمن يقرر وقف الأعمال العسكرية ابتداء من الساعة ١١ مساء أمس»..

جلست واجما في مكاني لا أبرحه.. ما معنى هذه الأخبار؟.. وكيف تستقيم مع أخبار الأيام السابقة والبلاغات العسكرية؟.. هل وضعنا العسكري حرج؟.. لالالا.. غير معقول.. طيب ما

معنى الجنود العائدين في حالة يرثى لها؟.. وما معنى أن قواتنا تتجمع على خط الدفاع الثاني؟.. وأين خط الدفاع الثاني هذا؟.. وأين خط الدفاع الأول؟.. يانهار أسود!.. يوجد شيء خطأ.. شيء غامض..

بدأت الأخبار تتناثر عن انسحاب القوات المصرية غرب القناة.. عن ضرب سلاح الطيران المصري على الأرض.. عن المشير عبد الحكيم عامر وطائرته التي طارت فوق سيناء ولم تستطع النزول في مطار تمادة بسيناء بعد أن ضربت إسرائيل المطارات.. وأن الدفاع الجوي توقف بسبب طائرة المشير المحلقة في الجو فوق سيناء.. كلام عبيط من هذا القبيل لا يفهمه العامة طبعا لكنه يملأ القلوب بالتوجس.. لقد قال للرئيس جمال عبد الناصر عندما سأله عن استعدادات الجيش.. رقابتي يا ريس.. الظاهر إنه لم يكن متفرغا للجيش.. الإشاعات حول مغامراته النسائية المتعددة كانت تملأ الأسماع.. عن تعاطيه للمخدرات ومباذله.. كيف يتركه عبد الناصر قائدا للجيش في ظل كل ما يتردد عنه؟.. هل من أجل الصداقة بينهما؟.. وهل يجامله على حساب البلد؟.. ماهذا السفه؟.. البلد تضيع.. يارب استر.

يومان أسودان مرا على الناس وهم في متاهة لا أول لها ولا آخر، ماهو الموقف على الجبهات بالضبط؟.. هل انسحب الجيش المصري كله إلى غرب القناة؟.. وأين انتصارات الأيام الأولى التي أذاعتها البيانات العسكرية؟.. هل كانت أكاذيب؟.. صدرت الصحف يوم الجمعة تؤكد على أننا تعرضنا لمؤامرة.. ذكرت في

t.me/qurssan

عناوينها أن الأسطول السادس تدخل أمس في القتال في سيناء وقنال السويس.. نشرت جريدة الجمهورية في صفحتها الأولى أن حاملة الطائرات «شيراتوك» والسفينة «ليبرتي» تقتربان على مسافة ١٥ ميلا من الشاطئ المصري.

وأعلن عن بيان الرئيس جمال عبد الناصر إلى الأمة مساء الجمعة ٩ يونيو، تحلق الجميع حول أجهزة التلفزيون في انتظار ما سيقوله الرئيس، الكل متشوق وقلق ليعرف حقيقة مايحدث.

أطل الرئيس جمال عبد الناصر بوجه صارم تبدو عليه أمارات الجدية والخطورة، تكاد القلوب أن تكون قد توقفت في الصدور.

إنه يتكلم عن التصارح بالحقائق.. نكسة خطيرة.. العدو كنا نتوقعه من الشرق والشمال جاء من الغرب.. العدو غطى في وقت واحد جميع المطارات العسكرية والمدنية في الجمهورية العربية المتحدة.. لقد اضطرت قواتنا المسلحة في سيناء إلى إخلاء خط الدفاع الأول.. وحاربت معارك رهيبة بالدبابات والطائرات على خط الدفاع الثاني.. وأقول لكم بصدق، وبرغم أية عوامل قد أكون بنيت عليها موقفي في الأزمة، فإنني على استعداد لتحمل المسئولية كلها.. ولقد اتخذت قرارا أريدكم جميعا أن تساعدوني عليه.. زاد وجوم الجميع مع تكشف الحقائق المرة.. أي قرار!..

لقد قررت أن أتنحى.. صرخ الجميع في نفس واحد لا.. لا.. مستحيل.. تماما ونهائيا عن أي منصب رسمي وأي دور سياسي.. وأن أعود إلى صفوف الجماهير أؤدي واجبي معها كأي مواطن آخر..

وتطبيقا لنص المادة ١١٠ من الدستور المؤقت الصادر في شهر مارس سنة ١٩٦٤ فلقد كلفت زميلي وصديقي وأخي زكريا محيى الدين بأن يتولى منصب رئيس الجمهورية.. وأن يعمل بالنصوص الدستورية المقررة.

ودوت أصوات صرخات النساء وهدير الرجال قادمة من كل مكان.. خرجت مسرعا إلى الشرفة لأشاهد مئات الرجال والنساء تجري في شارع جزيرة بدران، النساء تولول في النوافذ والشرفات والشوارع والرجال تزعق مندفعة، الجميع يتجهون إلى شارع شبرا في هبة تلقائية رافضة لما سمعت، لاتريد أن تصدق ولاتقبل ماحدث.. لحظة حزن وفزع جماعي عمت الشوارع والطرقات جميعا، نزلت الناس من بيوتها وتركت أعمالها متجهة في سيل متدفق من البشر إلى بيت جمال عبد الناصر في منشية البكري رافضة الهزيمة والتنحي. صدرت الصحف في اليوم التالي تصف الكتل البشرية التي خرجت في أضخم مظاهرات عرفتها مصر تطالب عبد الناصر بالعدول عن قراره، بدأت المظاهرات قبل أن ينهي خطابه واستمرت طوال الليل وحتى مطلع نهار اليوم التالي. جاءت الأفواج تهدر من المدن والقرى إلى القاهرة دون تفكير وبإحساس أنها لابد أن توقف المصيبة التي حلت بالبلد، ليلة حزينة مرت على تلك الأرض الطيبة التي دونت تاريخ الحضارة الإنسانية وبزغ فيها فجر الضمير، بقيت رابضة حول نهرها العظيم رغم مامر بها من مصائب وأنواء، تعرضت لهجمات شتى واجتاحتها أفواج من الوافدين عليها، فتحت ذراعيها للجميع ورحبت بكل

t.me/qurssan

من لاذ بها، تحملت وصبرت وأخذت تهبط وتعلو مع أنواء الدهر وتصاريف الزمان، لكنها بقيت بقدرة عجيبة على الحياة والخلود.

جلست في غرفتي واجما.. لم أستطع أن أستوعب الحدث.. يتنحى!.. بعد ماحدث؟.. أين سيذهب؟.. ومن سيتصدر بعد أن تم تصفية كل نشاط سياسي بالبلد من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار.. لم يعد يوجد في المشهد إلا هو.. هل يترك السفينة تغرق ويتنحى؟.. لكنه يريد أن يتحمل المسئولية بمفرده.. وهذا موقف فروسيّ.. يافرحتي؟.. كسبنا صلاة النبي.. والبلد؟.. حزن وغضب عارم ألم بي، مثلما ألم بالكثيرين في تلك الليلة المظلمة من تاريخ مصر الممتد عبر آلاف السنين.

جاءت نادية لتخبرني أن مصطفى بالباب، نهضت للقائه، دعوته للدخول وجلسنا واجمَين لبرهة من الوقت، قال بسخرية مريرة، يتنحى ويريد أن يترك الأمور لزكريا محيى الدين، رجل أمريكا في مصر، لعله يراه الأصلح للتفاهم مع أمريكا لإنقاذ البلد مما فعله بها، أومأت برأسي وعلقت بصعوبة، لقد حرقه أيضًا، رفض الناس لتنحيه هو رفض ضمني لتولى زكريا محيى الدين، أصبح كارتا محروقا.. هل تعتقد أنه في حال يسمح بالتآمر؟.. لم أعد أدري شيئا.. المهم البلد تضيع بعد أن انفرد بالسلطة وضرب كل القوى والأحزاب.. ربنا يستر.. انتتر مصطفى فجأة لينصرف.. إلى أين؟.. ابقَ معي.. أشعر بالاختناق يجب أن أنزل الآن.. هل أتيتَ من البيت؟.. لا.. كنت في زيارة لخالي الذي يسكن بالقرب منكم.. ودعته وعدت إلى غرفتي في غاية الهم والشعور بالاختناق.

وأرسل جمال عبد الناصر خطابا بتأجيل قراره بالتنحي إلى مجلس الأمة في اليوم التالي، لم يستطع الذهاب إلى المجلس بسبب زحام الجماهير، صدرت جريدة الأهرام في اليوم التالي وعنوانها الرئيسي..

«أمام ضغط شعبي غلاب قرر عبد الناصر تأجيل قراره بالتنحي».

«خرجت الجحافل الشعبية في كل مدن مصر وفي العالم العربي كله هادرة تطلب إلى عبد الناصر أن يعدل عن قراره».

«تحرك شعبي عربي لم يسبق له مثيل في لحظة من لحظات التاريخ الحاسمة يطالب ببقاء عبد الناصر في موقع القيادة».

«اتصالات تلفونية ورسائل من بومدين وعارف والملك حسين وأمير الكويت والأزهري يناشدونه أن يبقى».

«بعد ليلة لم ينم فيها عبد الناصر وجموع الشعب تحيط بيته بنطاق شعبي مذهل بعث عبد الناصر خطابا بتأجيل قراره بالتنحي إلى مجلس الأمة».

«كان عبد الناصر يريد الذهاب إلى المجلس لإلقاء بيانه بنفسه ولكن زحام الجماهير كان عائقا ماديا يجعل ذلك مستحيلا».

«عبد الناصر يقول (سوف أبقى حتى تنتهي الفترة التي نتمكن فيها جميعا من أن نزيل آثار العدوان)».

وتوالت الأنباء اليومية بحركة هادرة متتابعة وتصدرت جريدة الأهرام في اليوم التالي:

«تغييرات كبيرة في قيادات القوات المسلحة».

«تعيين الفريق أول محمد فوزي قائدا عاما للقوات المسلحة وقد تسلم مسئوليته ابتداء من الساعة ٢ ظهر أمس».

t.me/qurssan

«تعيين الفريق طيار مدكور أبو العز قائدا للقوات الجوية وقد تسلم قيادته في ساعة متأخرة من المساء».

«قبول استقالة عدد كبير من القادة العسكريين بينهم ٦ برتبة فريق أول وفريق وإحالة ٤ برتبة لواء إلى المعاش».

«اتصالات تجري الآن لعقد مؤتمر قمة عربي طارئ».

بدأ شعور بالجدية يسري بين الناس بإعلان قرارات التغييرات الجذرية في قيادات الجيش، استبشرت الناس بتنحية عبد الحكيم عامر وتعيين الفريق أول محمد فوزي قائدا عاما للقوات المسلحة لما هو متداول عنه من الجدية والصرامة الشديدة في القيادة. كانت الناس تتوق إلى دم جديد في الجيش يمحو ما استشعرته من ترهل قبل الحرب وأثناء تطوراتها الصادمة. تعلق الناس بالأمل في القيادات الجديدة للجيش. اليأس كان ترفا لاتحتمله. وتوالت الأخبار عن تجديدات في الجيش وبداية تجنيد كل المؤهلات العالية لرفع الكفاءة التدريبة والاستيعابية لأفراد القوات المسلحة. روح جديدة بدأت تدب وسط الظلام الذي أتت به الأحداث الفاجعة المروّعة. الناس كانت تريد أن تشعر بالأمل، كانت تريد أن تصدق وتثق في القدرة على عودة الروح والحيوية إلى جسد الأمة المجروح.

استؤنفت الامتحانات مرة أخرى وبذلت أقصى الجهد لاجتيازها بنجاح هذا العام، كانت المهمة صعبة للظروف التي مرت بها البلد، لكني لم أكن أملك ترف الرسوب مرة أخرى، كنت قد بذلت مجهودا معقولا خلال العام رغم مامررت به من أعاصير

على المستوى الشخصي. انتهت الامتحانات وبدأت فترة انتظار النتيجة والقلق المصاحب لها.

وكانت معركة رأس العش بالقرب من بورفؤاد هي بادرة الأمل التي أنعشت روح المقاومة في الناس المترقبة للأحداث، كانت بورفؤاد هي النقطة الوحيدة على الضفة الشرقية للقناة التي لم تستولِ عليها إسرائيل في أثناء الحرب، حاولت القوات الإسرائيلية أن تهاجمها يوم أول يوليو للاستيلاء على سيناء بالكامل، كانت قوة صاعقة محدودة هي المسئولة عن حماية الموقع، تقدمت القوات الإسرائيلية بالدبابات والآليات المصفحة في محاولة للاستيلاء على موقع رأس العش، لكن قوة الصاعقة المحدودة تصدت لها وأحبطت محاولاتها بعد أن ألحقت بها خسائر كبيرة في العتاد والأرواح. انتهت محاولة القوات الإسرائيلية للاستيلاء على موقع رأس العش بالفشل فكانت بمثابة أول معركة في حرب الاستنزاف التي استمرت لسنوات بعدها واستطاعت القوات المسلحة الاحتفاظ ببورفؤاد. كان لوقع نجاح معركة رأس العش أثر كبير على الروح المعنوية للناس، شعرت أن قوات الجيش المصري مازالت تملك الإصرار والروح القتالية وتستطيع الانتصار على القوات الإسرائيلية.

ظهرت النتيجة أخيرا ونجحت في الانتقال إلى السنة الثانية رغم رسوبي في علمين، كنت أتمنى طبعا النجاح بدون مواد، لكن لابأس، لقد كانت سنة عصيبة والمهم أنني سأنتقل إلى السنة الثانية بالكلية، خرجت من الكلية متحسرا على حالي بعد معرفة

t.me/qurssan

النتيجة، لو سارت الأمور بشكل طبيعي لكنت الآن منتقلا إلى السنة النهائية وعلى وشك التخرج. شعرت بغصة في حلقي فسرت متجاوزا محطة الأتوبيس، كأنني أرجئ العودة إلى المنزل، لم يكن سهلا عليَّ أن أبلغهم في البيت بنجاحي وانتقالي إلى السنة التالية مع رسوبي في علمين. بعد كل هذا الإخفاق تكون النتيجة هذا النجاح المجروح. سرت في طريقي إلى وسط المدينة عابرا كوبري الجامعة. وصلت إلى ميدان التحرير وجلست بأحد المقاهي عندما شعرت بالإرهاق. استجمعت طاقتي بعد فترة ونهضت عائدا إلى المنزل وأنا أنعي هم المواجهة معهم بهذا النجاح غير المشرف.

اتخذت الأحداث بعد معركة رأس العش طابعا سياسيا في الأمم المتحدة حتى انعقاد مؤتمر القمة العربية في الخرطوم في نهاية شهر أغسطس الذي خرج بقراراته الشهيرة باللاءات الثلاثة، لاصلح ولااعتراف ولاتفاوض مع إسرائيل قبل أن يعود الحق لأصحابه، مع تقديم الدعم المالي للدول المتضررة من العدوان الإسرائيلي.

وجاءت الأخبار الصاعقة في منتصف شهر سبتمبر بانتحار المشير عبد الحكيم عامر في بيته بتناول السم، نشرت صحيفة الأهرام، أن الفريق أول محمد فوزي والفريق عبد المنعم رياض قد ذهبا إلى بيته يدعوانه لسماع أقواله في التحقيقات العسكرية التي جرت أخيرا فدخل إلى حجرة نومه وابتلع المادة السامة، القائد العام ورئيس أركان الحرب اكتشفا أعراض التسمم ظاهرة على المشير فصحباه فورا إلى مستشفى القوات المسلحة في المعادي حيث جرى إسعافه. حدث بعدها انهيار مفاجئ تسبب في الوفاة

والتحقيق الأولي يشير إلى احتمال تناوله مادة سامة أخرى. كان هذا مانشرته جريدة الأهرام في صدر صفحتها الأولى بعد الوفاة.

بوفاة المشير عبد الحكيم عامر أغلقت صفحة مليئة بالأسرار في تاريخ حرب يونيو ١٩٦٧ وتفاصيل الأسباب التي أدت إلى الهزيمة المروعة للجيش المصري تحت قيادته. مع ظهور حجم الهزيمة بدأت الإشاعات تتوالى حول ماحدث صباح الخامس من يونيو ومساء الرابع من يونيو، عرف الناس بضرب جميع المطارات والطائرات رابضة على الأرض وخسارة معظم سلاح الطيران المصري، وتواترت الأنباء عن الحفلة الترفيهية التي أقيمت للطيارين بقاعدة أنشاص الحربية ببلبيس، حفلة استمرت حتى الفجر أحيتها الفرقة الذهبية بقيادة الأستاذ صلاح عرام، حفلة منوعات غنائية ورقص شرقي للفنانة زينات علوي، بعدها بوقت قصير تمت الضربة الجوية الإسرائيلية، كادت الناس تجن من هذه التفاصيل ومن الإشاعات التي صاحبتها حول ملابسات هذه الحفلة وأسبابها في تلك الليلة بالذات وتأثيرها على الطيارين المصريين وقياداتهم، تشكلت لجنة تحقيق في أحداث الطيران في حرب يونيو ١٩٦٧ لتحديد المسئوليات عما حدث، هذا بالإضافة إلى طائرة المشير عامر التي طارت فوق سيناء وقت المعركة فشلّت قوات الدفاع الجوي، كل هذه الأخبار والإشاعات مزقت الناس التي أنهكها الحزن ودمرتها الهزيمة، والتي تم تجميلها بإطلاق لفظة نكسة عليها، اتجهت الأنظار إلى المستقبل وتعلقت بالأحداث الإيجابية التي بدأت بانتصار معركة رأس العش في أول يوليو ثم تبعها إغراق المدمرة الإسرائيلية إيلات أمام مدينة بورسعيد في نهاية شهر أكتوبر من نفس العام، كأن الناس كانت تتمسك بأهداب مستقبل مأمول تستعين به على قسوة ماضٍ حزين،

t.me/qurssan

تمثلًا وتجليًّا لغريزة البقاء لدى الشعب المصري وأملا في النهوض من كبوة الانكسار. تطلعت أنظار الناس إلى مجهودات بناء القوات المسلحة بأمل وانتظرت نتائج لجان التحقيق في الأحداث لتحديد مسئولية ماحدث وأدى إلى النكسة.

بدأت الدراسة في الكلية وانتقلت إلى السنة الثانية بقسم الهندسة الميكانيكية. حاولت الانتظام في الدراسة قدر الطاقة رغم شعور الحزن العميق الذي جثم على صدر الجميع. دارت الأيام وانتهى العام الحزين كما ينتهي كل شيء، لم تحزن مصر مثلما حزنت في ذلك العام، بدأ العام الجديد ومعه الأمل الحتمي، في الشهر الثاني من العام الجديد ظهرت أحكام الطيران التي انتظرها الشعب بصبر نافد، أحيل قادة سلاح الطيران المصري إلى محكمة عسكرية عليا برئاسة الفريق صلاح الحديدي بعد عزلهم يوم ١١ يونيو وتكليف قادة جدد بإعادة تدريب وتسليح القوات المسلحة لإزالة آثار العدوان، في يوم الثلاثاء ٢٠ فبراير ١٩٦٨ أصدرت المحكمة العسكرية العليا أحكامها، فحكمت بالسجن ١٥ عاما على الفريق أول طيار متقاعد محمد صدقي محمود قائد القوات الجوية الأسبق، وبالسجن ١٠ سنوات على اللواء طيار متقاعد إسماعيل لبيب الذي كان رئيسا لشعبة الدفاع الجوي، وحكمت ببراءة كل من: الفريق أول طيار متقاعد جمال عفيفي رئيس أركان القوات الجوية والدفاع الجوي سابقا واللواء طيار متقاعد عبد الحميد الدغيدي قائد الطيران السابق في المنطقة الشرقية.

أحكام هزيلة لاتتناسب مع هول الكارثة التي حلت بالبلاد من

جراء إهمال قيادات الجيش والطيران. لم يرضَ الشعب المصري عن هذه المهزلة وبدأت الاحتجاجات بعمال حلوان. خرجت المظاهرات التي تصدت لها الشرطة ونتجت عنها إصابات لعدد من المتظاهرين نقلوا إلى مستشفى حلوان.

انتقلت الاحتجاجات إلى طلبة الجامعات فخرجت المظاهرات المنددة بهذه الأحكام. تجمع طلبة كلية هندسة القاهرة وكنا في البداية داخل الكلية، خرجت المظاهرة إلى خارج سور الكلية عند الظهر فواجهتها قوات الشرطة بالقنابل المسيلة للدموع. ألقت كمية كبيرة من القنابل التي أثارت الطلبة فدفعتهم إلى إلقاء الحجارة على قوات الشرطة التي تحاصر الكلية، قام الطلبة بتكسير تكسيات الفخار التي تزين أسطح المباني وألقوها بكثافة على قوات الشرطة، قام الطلبة أيضًا بتكسير لوحات الرسم الهندسي الخشبية والقوا الأخشاب على الشرطة. ضغطت موجات الطلبة على جنود الشرطة وخرجت إلى خارج الكلية، أحضرت الشرطة سيارة مطافئ ورشت الطلبة بخراطيم المياه فزاد هياج الطلبة إلى الدرجة التي هاجموا فيها سيارة المطافئ واستولوا عليها، قام أحد الطلبة بقيادة السيارة وإدخالها إلى داخل سور الكلية. تحصن الطلبة داخل الكلية وصمموا على الاعتصام.

حل المساء والإنهاك على الطلبة المعتصمين فوزعوا أنفسم على المدرجات لقضاء الليل، ارتدى طلبة قسم الميكانيكا أوفرولات الورشة ليستدفئوا بها فالجو قارس البرودة أثناء الليل ونام بعض الطلبة في حدائق الكلية وفي سيارات الطلبة التي

t.me/qurssan

كانت داخل الكلية. بدأت مشكلة الطعام فقامت بعض الطالبات بإدخال المأكولات للطلبة المعتصمين عن طريق حديقة الحيوانات الملاصقة لكلية الهندسة، تسللوا من الحديقة إلى الكلية بالطعام هروبا من حصار الأمن للكلية. حاول بعض دكاترة الكلية الدخول بسياراتهم كأساتذة في الكلية لتهريب بعض الأطعمة للطلبة داخل السيارات لكن التفتيش الدقيق أحبط محاولاتهم.

استمر الاعتصام لمدة أربعة أيام والمفاوضات مستمرة لفض الاعتصام مع بعض الطلبة الذين تولوا مهمة التصدي للتفاوض مع الأمن والمسئولين. أسفرت المفاوضات في اليوم الرابع على دعوة الطلبة المعتصمين جميعا إلى مجلس الشعب للقاء رئيس مجلس الشعب أنور السادات للتفاوض حول طلبات المعتصمين. أحضر الأمن مجموعة من سيارات التاكسي لنقل الطلبة المعتصمين إلى مجلس الشعب. أدخلونا إلى قاعة المجلس وجلسنا في المدرجات ننتظر قدوم رئيس المجلس. دخل إلى القاعة بعد قليل كل من السادة، أنور السادات ولبيب شقير وشعراوي جمعة وزير الداخلية ومحمد فائق وأمين هويدي، أدخلو للطلبة قبل دخول المسئولين الساندوتشات والعصير وعلب السجاير، رفض بعض الطلبة قبول الأكل والمشروبات في البداية حتى دخل المسئولون وداعب أنور السادات الحضور بتساؤله لهم بطريقته الريفية التي يتقمصها لإبداء الألفة، لماذا لاتريدون أن تقبلوا أكلنا؟.. بدأت المفاوضات حول مطالب الطلبة المعتصمين وأتوا ببعض أعضاء مجلس الشعب. أجلسوا الأعضاء في مقاعد الزوار والصحافيين ليشهدوا وقائع

اللقاء، هاجم بعض أعضاء مجلس الشعب الطلبة المعتصمين فتصدى لهم أنور السادات وطلب تهدئة الموقف.

انتهى اللقاء بصرف الطلبة المعتصمين إلى منازلهم مع التعهد بعدم التعرض لهم. كانت مطالب الطلبة تنحصر في الإفراج عن عمال حلوان والطلبة المعتقلين وإبعاد الأمن عن الجامعات مع إيقاف تدخله في النشاط السياسي للطلاب وإعادة محاكمات الطيران لمعرفة أوجه التقصير في هزيمة الجيش في الحرب ومحاسبة المقصرين.

عدنا إلى بيوتنا منهكين بعد فض الاعتصام. حالة من التوهان كانت تسيطر علينا، تتابعت الأيام وصدر بيان ٣٠ مارس. كان البيان خطوة من عبد الناصر لتنفيس طاقات الغضب لدى الناس بإعلان خطة تعبئة عامة للنهوض بالبلد وإزالة آثار العدوان مع الدعوة لاختيار كل الكوادر بالانتخاب، تمت الدعوة للاستفتاء على بيان ٣٠ مارس وسرت التعليقات بين الطلبة والسياسيين إن جمال عبد الناصر إذا رأى الشعب يتقدمة بخطوة سارع هو إلى اللحاق به وتخطيه بخطوتين ليرفع الراية.

بدأت الاستعدادات لامتحانات آخر العام، وفاجأ طلاب وشباب فرنسا الجميع بانتفاضة مايو، كانت انتفاضة قوية في وجه اليمين السياسي وحملة تقييد الحريات على المفكرين والأدباء والسياسيين من قبل نظام الجنرال ديجول بحجة الأمن وحماية الجمهورية ومبادئها. أيدت الاتحادات والنقابات العمالية وأحزاب اليسار الانتفاضة الطلابية وكانت انتفاضة مايو بمثابة أكبر إضراب عام شهده تاريخ فرنسا على مستوى البلاد.

سرى بيننا، نحن الطلبة المصريين، شعور بنوع من الفخر أننا

t.me/qurssan

كنا السباقين في شهر فبراير بالانتفاض ضد أحكام الطيران وأننا كنا كطليعة لطلاب العالم الذين سرت بينهم حركات الاحتجاج بعد انتفاضة طلاب فرنسا في شهر مايو بعد انتفاضتنا بثلاثة أشهر.

بدأت امتحانات آخر العام. الدراسة بالسنة الثانية ليست هينة، واجهت صعوبات جمة في الامتحانات. كنت أيضًا قد رسبت في علمين من العام الماضي وعليّ اجتيازهما والنجاح فيهما بالإضافة إلى علوم السنة الثانية. شعرت باليأس من صعوبة الكثير من الامتحانات وعدم توفيقي فيها. كانت السنة الثانية تحتاج المزيد من الجهد ولكني لم أكن أمتلك التركيز الذهني الكافي مع توالي الأحداث العامة والسياسية بالبلد. انتهت الامتحانات وصدرت النتيجة برسوبي مرة أخرى. تقبلت الرسوب هذه المرة بنوع من التعود بعد تكراره. مسحة من حزن هادئ ممتزجة بالشعور بقلة الحيلة اعترت مشاعري، هاهو العام الخامس لي بالكلية ومازلت راسبا بالسنة الثانية، هذا العام هو عام التخرج لدفعتي التي دخلت معي إلى الكلية. كان من المفروض أن أحتفل بتخرجي وها أنا أتلقى خبر رسوبي للمرة الثالثة منذ التحاقي بالدراسة الجامعية.

لم أستطع العودة إلى البيت، خجلان وحزينا، قليل الحيلة أيضًا، ما العمل؟.. سرت بعد معرفة النتيجة من الكلية بلا وجهة، عبرت كوبري الجامعة وواصلت المسير، سيارات تمرق وأناس يسيرون جماعات وفرادى وأنا ذاهل، أشعر بالدنيا من حولي كسراب يتراقص مخاتلا وعيي التائه، وجدت نفسي في شارع القصر العيني فواصلت حتى ميدان التحرير.. ثم.. إلى أين؟..

دخلت إلى شارع سليمان باشا واجتزت الميدان مواصلا السير بلا غاية. شعرت بالإنهاك بعد أن اجتزت تقاطع شارع ٢٦ يوليو فجلست إلى أحد مقاهى التوفيقية ألتقط أنفاسي. طلبت كوب شاي ورحت في متاهتي التي لاملامح لها. ظللت في قعدتي على المقهى حتى اقترب الغروب. نهضت متثاقلا ثم اتجهت إلى سينما كايرو، قطعت تذكرة ودخلت دون أن أنتبه إلى الفيلم المعروض. ما أذكره أنه كان فيلما بوليسيا، انشغلت في متابعة أحداثه حتى نهاية العرض وغادرت السينما حوالي التاسعة مساءً. أخذت الأتوبيس إلى شبرا ونزلت بمحطتنا، وقفت على محطة الأتوبيس ثم غيرت وجهتي، لم أستطع العودة للبيت، سأنتظر حتى يناموا، دخلت إلى أحد البارات بجوار محطة الأتوبيس وطلبت بيرة، طال الوقت وشربت عددا من زجاجات البيرة. بدأت أشعر بقدر من الاسترخاء. طلبت كأسا من البراندي وأتبعته بأخرى، كانت رأسي قد ثقلت. شعرت بضياع وأسى فدمعت عيناي وتدفقت بعدها الدموع. مسحت دموعي سريعا.. لكم أشعر بالوحشة.. أتمنى أن أرتمي في حضن وأسترسل في البكاء.. ياه يا شوشو.. لكم أشتاق إليك.. ترى ماذا تفعلين الآن؟.. وهل تشتاقين إليَّ كما أشتاق إليك؟.. أشعر بالأسى لما آلت إليه العلاقة.. أريد أن أراكِ.. بأي ثمن.. وهل يمكن أن تصفحي عنى؟.. لقد كانت تحبني.. دفعت الحساب وغادرت البار، اتجهت إلى كوبري شبرا وعبرته إلى ميدان باب الحديد. استقللت المترو بدون تفكير.. جلست أفكر فيها.. سأذهب إليها.. سأعتذر عما بدر مني..

t.me/qurssan

سأرتمي في حضنها وأقبل يديها.. شوشو إنني أحبك.. لم أستطع مقاومة اشتياقي إليك.. أحتاج إليك.. نزلت بمحطة بيتها.. حثثت السير.. دلفت من الباب وصعدت الدرج قفزا.. وقفت أمام باب شقتها مترددا لثوانٍ ثم ضغطت الجرس واللهفة تعصف بي.. وقفت انتظر ودقات قلبي تتسارع وتكاد تصم آذاني.. أضيء نور الصالة.. هاهي ستفتح.. سأراها أمامي.. فُتح الباب فوجدت رجلا أمامي بملابس النوم.. نظر إليَّ متعجبا.. شلتني المفاجأة.. أفندم.. تلعثمت.. هل.. أليست هذه شقة.. آسف.. يبدو أنك أخطأت العنوان.. آسف جدًّا.. آسف جدًّا.. استدرت مسرعا واندفعت نازلا الدرج وقلبي يدق من هول المفاجأة.. من هذا؟.. هل تركت الشقة؟.. هل سافرت؟.. أيكون.. أيكون زوجها؟.. هل يمكن أن تكون قد تزوجت؟..سرت في طريقي إلى محطة المترو تائها.. استقللت المترو وأنا في غاية اليأس والحيرة.. معقول تزوجت؟.. ولِمَ لا.. صغيرة وجذابة.. لايوجد مايمنع.. ياللمصيبة.. لقد فقدتها إلى الأبـد.. آه.. ما للدنيا تظلم في وجهي.. لقد فشلت في كل شيء.. انهمرت الدموع من عينيّ وأنا جالس بمفردي تقريبا في عربة المترو في ذلك الوقت المتأخر من الليل.. لم أستطع أن أتحكم في اضطرابي وحزني والدموع تتدفق من عينيَّ رغما عني بعد أن فقدت القدرة على التماسك. نزلت بميدان باب الحديد وعبرت كوبري شبرا شبه الخالي من المارة.. دخلت إلى شارع جزيرة بدران. صعدت درجات السلم متثاقلا.. لا أريد أن أعود إلى البيت.. أين سأذهب؟.. لا مكان لي.. دلفت

من الباب نحو غرفتي وارتميت على السرير في الظلام وأنا عاجز عن التوقف عن البكاء.. يبدو أن بكائي كان مصحوبا بنشيج أيقظ أمي.. وجدتها فجأة إلى جواري وهي تتساءل في هلع.. خير.. مالك يا ابني.. حصل إيه؟.. تكلم.. ربتت على ظهري بلهفة.. تمتمت وسط نشيجي.. لقد رسبت.. رسبت مرة أخرى.. وماذا يمكن أن أقول لها غير ذلك؟..

تتابعت الأيام وأنا منزوٍ في غرفتي فاقدا للهمة. لا أكاد أغادر سريري، مكوَّمًا بلا رغبة في الفعل أو التفاعل. أتذكر أيامي مع شوشو وأتحسر. أتذكر فشلي الدراسي وأحزن. توجس البيت من حالتي خاصة بعد انتشار خبر رسوبي. تدخل أمي لتطمئن عليَّ من آن لآخر. فقدت شهيتي للطعام. أهرب من اللحظة بالنوم.

مر ناجي عليَّ فهاله منظري، استقبلته بصعوبة، استجمعت قواي للتواصل معه، عرفت منه أن المخرج المسرحي حسن عبد الحميد أرسل لاستدعائه للاشتراك في عرض مسرحي تجاري من إخراجه، هنأته على هذه الخطوة وتمنيت له التوفيق. عرف برسوبي وحاول أن يسرّي عني، ألح عليَّ أن أمر عليه بالمسرح في اليوم التالي لنسهر معا بعد انتهاء البروفات، حاولت التملص لكنه أصر وقال لي وهو يغادر إنه سيمر عليَّ قبل موعد البروفة ليأخذني معه.

وهاهو ناجي يتم استدعاؤه من أحد المخرجين المميزين للعمل معه في عرض مسرحي.. يبدو أنني على نفس الفشل في التمثيل والمسرح وأنا الذي أعطيت معظم جهدي لهما وقد يكون سبب فشلي الدراسي هو اهتمامي الكبير بالتمثيل. ناجي ممثل ممتاز

t.me/qurssan

ولاشك، لكن ماذا عني؟.. لماذا لم ألفت نظر المخرجين رغم العروض التي شاركت فيها منذ المرحلة الثانوية وحتى الآن؟.. هل أنا مخدوع في مستواي الفني؟.. لماذا لاتعترف بالحقيقة وتسلم بالأمر؟.. كما أنك فاشل في الدراسة وفي الحب، فأنت فاشل أيضًا في التمثيل ولا مستقبل لك.. لماذا ستنجح في هذا بالذات؟.. الفاشل فاشل في كل شيء.. ها أنت قد تجاوزت العشرين من عمرك وما هي المحصلة؟.. صفر كبير.. وماذا بعد؟.. هل ستتمكن من إكمال الدراسة؟.. هل ستفلح في المسرح؟.. هل تمتلك الهمة على عمل أي شيء؟.. ماذا بعد؟.. ياله من سؤال مدمر!.. لا أملك أي إجابة.. لا أملك إلا الضياع.. ومزيدا من الفشل..

لو لم يمر عليَّ ناجي لما ذهبت، في المسرح جلست بالصالة أتابع بروفات الحركة، الأستاذ حسن عبد الحميد يعطي تعليماته والممثلون يتحركون ويعيدون المشاهد، المساعدون يدونون ملاحظات المخرج وتعديلاته الدائمة على جمل الحوار وإضافاته إليها، تخيلت نفسي وسط مجموعة الممثلين أؤدي دوري، سرحت بعيدا مع دور الممثل الناجح الذي يتلقى تصفيق الجمهور الذي لاينتهي في نهاية العرض.. أنحني شاكرا وأتراجع للكواليس.. يستمر التصفيق مدوّيا كالرعد.. أخرج مرة أخرى ملبيا نداء الجمهور وتصفيقه الحاد.. أنحني.. أتراجع.. أعود.. تسللت الدموع من عينيّ في ظلام الصالة فانسحبت في هدوء دون أن يلحظ أحد.. خرجت إلى الشارع كالهارب.. مشيت.. انهمرت الدموع فياضة دون توقف.. دخلت إلى أحد الشوارع الجانبية

اتقاء لنظرات العيون.. أبطأت السير لكي أسترد أنفاسي وأتماسك، مسحت دموعي وانتظرت لأهدأ قليلا ثم استدرت عائدا إلى البيت ودخلت إلى الفراش هروبا مما أنا فيه.

فوجئت بناجي بعد ظهيرة اليوم التالي، أدخلوه إلى غرفتي ليوقظني من النوم فهم يعرفون قوة العلاقة بيننا، وكأنهم أيضًا يستغيثون به ليخرجني من حالتي التي سببت حزنا للبيت كله. دخل ناجي معاتبا مغادرتي المسرح في الليلة السابقة، وصفني بالهارب وهو يحاول أن يضفي مسحة من المرح على كلامه مقاومة لقتامتي. عاتبني لهروبي وقد كان يأمل أن نقضي سهرة معا. لم أستطع أن أعطي تفسيرا ولم يلح من ناحيته. فاجأني قائلا.. عندي أخبار حلوة.. انهض وبطّل كسل، ستشترك معنا في المسرحية، اعتذر أحد الممثلين وتكلمت مع المخرج بخصوصك، رشحتك بدلا منه وطلب أن تجيء اليوم للقائه، هيا.. انهض لتستعد.. نشرب الشاي ونذهب معا إلى المسرح.

إصرار ناجي على انتشالي من أزمتي يوضح معدنه الطيب وشخصيته الإيجابية. لم أكن أملك الهمة لأقاوم حماسته وتصميمه مثلما كنت لا أملك الهمة لأي فعل، قل ريشة في مهب الريح، قل مغيبا عن الوعي، قل ماتشاء، لكنني كنت كالتائه قليل الحيلة.

ذهبت كالمُخَدَر للقاء المخرج، قابلني الرجل بترحاب منحني قدرا من الشجاعة، تكلم معي عن الدور وأعطى أوامره لمساعده بإعطائي نسخة من نص المسرحية، شكرته وطلبت إعفائي حتى الغد لقراءة المسرحية والاستعداد نفسيا للدور.

t.me/qurssan

استأذنت ناجي في الانصراف فورا لقراءة المسرحية والاستعداد لبروفة الغد. بمجرد استلامي للنص والإمساك به في يدي تسربت قوة مجهولة إلى كياني وانتشرت تدريجيا لتوقظ فيَّ بعض الرغبة في الفعل وتمنحني بشائر لقبول التحدي وإثبات الذات.. ياه.. ماهذا الشعور الذي افتقدته وكاد يضيع مني إلى الأبد.. حثثت السير بهمة وقفزت إلى أول أتوبيس يقودني إلى البيت.. إلى العمل.. والحياة مرة أخرى.

دخلت إلى المطبخ وأعددت كوب شاي أخذته ودخلت إلى غرفتي متحفزا للعمل، بدأت في قراءة نص المسرحية، نص تجاري يميل إلى الفكاهة لكاتب لا أعرفه، لايهم، الآن يجب أن أتعامل مع معايير جديدة، المسرح التجاري، مادمت سأعمل وأيضًا سأتقاضي أجرا لابأس به كما طمأنني ناجي.. هل سأبدأ في طريق الاحتراف.. يارب.. رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة.. الممثل المحترف يجب أن يقبل أي عمل في البداية.. المسرح ليس كله مسرحا جادا متجهما.. وطريق الاحتراف طريق تجاري في المقام الأول.. لقد مضى عهد الهواية والمسرح الجاد العميق.. الآن أنت تخضع لقانون السوق.. العمل المعروض والممكن.. لا أستطيع أن أصدق.. لأول مرة سأتكسب من عملي.. سأصبح ممثلا محترفا.. وهذا ما كنت أصبو إليه.. من الواضح أنني فاشل في دراسة الهندسة التي دخلت إليها قسرا عن طريق مكتب التنسيق.. لكن هاهي فرصة العمل بالمسرح تتحقق.. يجب أن أثبت ذاتي في المسرح الفعلي.. المسرح التجاري الموجود بالسوق.. وهو مدخل أيضًا للتمثيل

بالسينما.. والتلفزيون.. هل سيتغير الحظ أخيرا.. هيا إلى العمل.. لاوقت للفلسفة.. شرعت في قراءة المسرحية والتركيز على الدور الذي أسنده لي المخرج.. الحقيقة دور صغير بالنسبة إلى الأدوار الرئيسية.. وهل تظن نفسك بطلا؟!.. دور ناجي أيضًا صغير.. وهل نسيت أننا مبتدءون.. أول تجربة فعلية.. يعني على أول الطريق.. هيا لاتضيّع الوقت.. قضيت الليل بطوله في قراءة المسرحية.. بدأت في حفظ دوري على قدر المستطاع في حدود الوقت المتاح.. طلع عليَّ النهار وأنا منهمك في العمل، جاءت ماما مستطلعة لتطمئن عليَّ، وجدتني منهمكا في العمل فانسحبت في هدوء وعادت بعد قليل بكوب شاي بالحليب وقطعة بقسماط، كنت أشعر بالجوع فعلا، شكرتها وشرعت في أكل البقسماط المغموس في الشاي بالحليب، لأول مرة منذ مدة طويلة أستطعم الطعام وآكل بشهية.. سبحان مُغيّر الأحوال.. شعرت بالنعاس بعد الأكل فقررت أن أستريح قليلا، تمددت على السرير ونعست على الفور.

استيقظت بعد منتصف النهار. نهضت واغتسلت لأواصل حفظ دوري في المسرحية، جاء موعد الغداء فدعتني أمي لمشاركتهم. كنت قد انقطعت منذ فترة عن مشاركتهم في أي تجمع أسري. حالتي المزاجية ساعدت على قبولي المشاركة. جمعتنا مائدة الغداء نحن الأربعة، ماما وبابا ونادية وأنا. كنت أتحاشى أبي على وجه الخصوص منذ فترة طويلة تجنبا للمواجهة.. أهلا وسهلا.. منذ متى لاتشاركنا الغداء؟!.. علّق بلهجة تهكمية.. لم أعلّق.. كانت العلاقة بيننا متوترة منذ تكرر رسوبي في الكلية. لم أكن

t.me/qurssan

أتحمل منه أي لوم أو محاسبة. حقا هو الذي يقوم بالإنفاق عليّ وبالتالي فرسوبي يمثل عبئا عليه، لكني لم أكن أستطيع المواجهة ولا تحمل التأنيب أو الإشارة إلى سابق تفوقي الدراسي، وهو ما أعيه جيدا، لكني غير قادر على تغيير شيء. قد يكون الحق معه، لكني لا أمتلك القدرة على احتمال أي محاسبة. كنت أحاسب نفسي بما فيه الكفاية، أو هكذا أعتقد.

أرجو أن تكون قد استعدت نفسك بعد الفترة التي مررت بها.. توقفت عن تناول الطعام وأطرقت متوقعا درسا جديدا منه.. نظرت إليه ماما بقلق وعتاب كمن يرجو التغاضي عن مثل هذه المناقشات في ذلك الوقت.. على العموم أرجو أن تتدارك الأمور.. كفي ما فات.. وأرجو أن تصرف نظر عن موضوع المسرح هذا الذي تسبب في كل ما حدث وتلتفت للدراسة مرة أخرى.. شعرت باختناق فظيع فتركت الطعام ونهضت مغادرا وأنا ألحظ نظرات ماما الغاضبة له. دخلت إلى غرفتي وانفجرت في البكاء.

غادرت البيت في موعد البروفة بحالة نفسية سيئة عقب تعليقات أبي على الغداء.. هي ليس فيها جديد حقا، لكن فلنقل إن مواجهة الحقيقة مؤلمة.. لم أعد أمتلك القدرة على الاحتمال.. لا أريد أن أتذكر المصيبة التي أعيها جيدا وأتمنى أن أنساها بأي شكل من الأشكال. كان المسرح هو النقطة المضيئة الوحيدة التي يمكن أن تنسيني الهموم والأحزان.. كنت أتمنى أن أتحقق في المسرح.. أتفوق.. أتميز بين الأقران.. ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.. ها أنا أقوم بدور ثانوي في مسرحية تجارية.. كنت أتمنى دور

بطولة.. مسرحية ثقيلة لكاتب من كتاب المسرح الذين أحببناهم واحترمناهم.. دراما إغريقية مهيبة أو مسرحية لشيكسبير أو موليير.. إبسن أو جان أنوي أو ستراندبرج.. يونسكو.. ما باليد حيلة.. عصفور في اليد.. بمجرد دخولي إلى المسرح ينقلب حالي.. تُردّ فيَّ الروح.. أدخل إلى الكواليس فأشعر بكياني يتماسك.. هنا عالمي.. خلف خشبة المسرح وفوقها في مواجهة الجماهير.. أنظر إليها بعشق.. أعد اللحظات لأقف أمام الجمهور.. أصول وأجول.. كأني أطير في الهواء.. أعيش رهبة اللحظات الأولى للخروج إلى الجمهور ونشوة تصفيق الجمهور الذي يدوّي في آذاني كالرعد ويدير رأسي من فرط النشوة.

أنهيت البروفة وغادرت المسرح مسرعا. كنت أريد أن أخلو إلى نفسي.. مشيت بلا هدف.. اتجهت إلى اللسان.. تلك البقعة على النيل المجاورة لمبنى مجلس قيادة الثورة بالجزيرة والتي سيشغلها بعد ذلك فندق شيراتون الجزيرة.. جلست على السور وطلبت زجاجة بيرة من البائعة. سرحت بفكري وأنا أشرب زجاجة البيرة وأشعر ببداية الخدر اللذيذ وهو يسري بجسمي.. ما العمل؟.. ماكينة تفكيري كأنها أصابها العطب.. كما لو كنت قد فقدت القدرة على التفكير المرتب أو غير المرتب.. ها أنا أعيش اللحظة.. وماذا بعد؟.. هل سأستمر بالكلية؟.. وهل سأقدر على ذلك؟.. هل سأوفق في المسرح؟.. وما الحال إذا لم أوفق؟.. هل سأستمر في أداء الأدوار الثانوية.. وبالمسرح التجاري؟.. انتصف الليل وتجاوز.. خَفّت الحركة حولي وقل عدد الرواد..

t.me/qurssan

طلبت زجاجة بيرة أخرى.. لا أريد أن أعود إلى المنزل.. أين سأذهب.. بصقت بصقة قوية تعبر عن شيء لا أدري له توصيفا.. شعرت بالخدر اللذيذ يتزايد ويرتع في جسمي.. ظظ.. هذا هو ما يعبر عني بالضبط في هذه اللحظة.. ظظ في أي حاجة.. ظظ في الكلية.. ظظ في أبويا.. ظظ في شوشو.. ظظ في الدنيا كلها.. بدأ النعاس يدور برأسي.. أين سأنام؟.. لا أريد العودة للمنزل.. لو كان لي شقة صغيرة.. أو حتى حجرة تخصني.. وحدي.. أحتمي بها من كل الدنيا.. أعود إليها بلا وجل.. بدون أن أنعي الهم.. أمارس فيها خصوصيتي ووحدتي.. متى أستطيع توفير ذلك الحلم؟.. ها أنا قد بدأت أتكسب.. هل سأوفق في عمل دائم يوفر لي دخلا منتظما أستطيع به أن أستقل.. لابد أن أستقل.. سريعا.. سأسعى إلى ذلك في أول فرصة.. يجب أن أتحمل مسئولية نفسي.. لكي أكون صاحب قراري.. لا أريد أن أكون مدينا لأحد.. تابعا لأحد.. لتكن تلك خطتي في الفترة القادمة.. السعي بأسرع ما يمكن إلى الاستقلال والعيش بمفردي.. لا أريد أن يصرف عليَّ أحد.. أن أكون مطالبا بالانصياع.. بسماع التعليمات والتوبيخ.. ظظ يعني ظظ.. أريد أن أنام.. للأسف مضطر للعودة للمنزل.. لا أملك خيارا آخر الآن.. أشرت إلى البنت لتأتي وتأخذ الحساب.. دفعت وقمت بصعوبة.. هل سأجد مواصلات الآن.. الوقت تأخر.. سرت أجر قدميَّ على كوبري قصر النيل.. قرب الميدان مرت سيارة تاكسي فأشرت إليها وارتميت على المقعد الخلفي أقاوم النعاس.

استمرت بروفات المسرحية حتى قرب بداية العام الدراسي،

بدأ العرض بتوتر وقلق الأيام الأولى للعرض حتى يستقر الأداء. بدأ العام الدراسي ولم أذهب إلى الكلية في الأسبوع الأول. أعود من العرض بعد منتصف الليل وأنام في ساعة متأخرة. سألتني ماما بتوجس عن ذهابي للكلية، طمأنتها أنني أعيد السنة ولاحاجة ضرورية لذهابي في الأيام الأولى حيث لاتكون الدراسة منتظمة. كان القلق باديا على وجهها ولم يبدُ أنها اقتنعت بكلامي. حقيقة الأمر أنني لم يكن لديَّ أي رغبة في الذهاب إلى الكلية. استغرقتني حياتي المسرحية تماما. لملمت طاقاتي النفسية وذهبت في أحد أيام الأسبوع الثاني للدراسة. شعرت بثقل على صدري منذ لحظة دخولي الكلية. ذهبت إلى الكافيتريا رأسا وطلبت شايا. جلست أنتظر لقاء أحد أعرفه. غربة فظيعة شعرت بها. لاأنتمي لهذا المكان، ولا لهؤلاء الطلبة. دفعتي تخرجت. كل هؤلاء الطلبة أحدث مني. لم تتوطد علاقاتي بزملاء الدفعات اللاحقة لي والذين زاملوني في سنوات رسوبي وإعادتي لسنوات الدراسة. كأنني من أهل الكهف العائدين إلى الحياة بعد رحيل أجيالهم. من هؤلاء؟.. غادرت الكافيتريا وتوجهت لجدول الدراسة. دفعت نفسي دفعا لنقل الجدول. نظرت إلى ساعتي وحددت المدرج الذي به محاضرتي. مدرج الساوي. جررت ساقيّ إلى المدرج ونظرت من خارجه على الدكتور وهو يقوم بإلقاء المحاضرة. استدرت بعد لحظات وانسحبت خارجا من الكلية. زاد شعوري بالاختناق فأسرعت الخطى مبتعدا وقفزت في أول أتوبيس دون أن أدري ما وجهته.

تتابعت الأيام حتى نهاية العام وأنا قد انقطعت عن الذهاب إلى

t.me/qurssan

الكلية تماما. تحاشيت لقاء أبي وانعزلت في غرفتي. كنت متوجسا من أي حديث معه وشعرت أنني لن أحتمله. كان العرض المسرحي يسير على مايرام وإقبال الجمهور جيدا.

بدأ العام الجديد وقد اتضح لي أنني لن أستطيع مواصلة الدراسة في الكلية. حاولت الضغط على نفسي للعودة للدراسة والمحاولة مرة أخرى لكني فشلت تماما. سوف يستتبع هذا أنني يجب أن أفكر في مغادرة البيت. لن أستطيع مواجهتهم بهذا الخبر. كما أنني لن أستطيع احتمال أي تأنيب أو لوم أو اعتراض من أبي. بدأت في البحث عن سكن مناسب، شقة شركة مع أحد المعارف أو الزملاء أو غرفة فوق أحد أسطح العمارات. نشرت الخبر بين الزملاء في المسرح ليستعلموا لي عند أصدقائهم ومعارفهم. تفهم ناجي رغبتي في الاستقلال وقراري بعدم استكمال دراسة الهندسة. كان يتابع معاناتي لقربه مني ولقائنا اليومي بالمسرح. توالت أخبار حرب الاستنزاف وأصبحت ضمن الأخبار اليومية العادية إلى أن فجعنا جميعا في استشهاد الفريق أول عبد المنعم رياض رئيس أركان حرب القوات المسلحة. استشهد على الجبهة في إحدى زياراته التفقدية. حزن عميق خيم على الجميع لسمعة الرجل الطيبة وتفوقه العسكري المشهود له.

أعقب ذلك بعام تقريبا كارثة ضرب الطائرات الإسرائيلية لمدرسة بحر البقر بمحافظة الشرقية ومقتل ثلاثين طفلا بالمدرسة بالإضافة إلى إصابة العشرات من الأطفال. كان الجيش المصري في سباق مع الزمن للانتهاء من بناء حائط الصواريخ لصد هجمات سلاح الطيران الإسرائيلي.

قبل نهاية العام الدراسي وفقت في شقة بآخر مصر الجديدة، شقة صغيرة بشارع جانبي بمنطقة سانت فاتيما. كانت المنطقة مقفرة إلى حد كبير لكن إيجار الشقة كان مناسبا لدخلي الشهري من المسرح. انتهزت فرصة عدم وجود أبي في البيت وحزمت ملابسي في حقيبة قديمة وسط حزن أمي وتوسلها ألا أقدم على هذه الخطوة. طيّبت خاطرها وأفهمتها أنني أتكسب من عملي في المسرح وأنني أفضل الاستقلال. سألتني بحذر عن الدراسة فأبلغتها أنني تركت الكلية. كانت صدمة لها هربت منها ومن البيت كله في آن واحد.

بهذا بدأت صفحة جديدة في حياتي بعد أن أغلقت صفحة الدراسة بكلية الهندسة وحياتي مع الأسرة بشبرا واستقللت تماما مسئولا عن حياتي مسئولية تامة.

التقينا في ميدان باب الحديد، أنا وزميلي في الفرقة الذي توسط في إيجاد الشقة لي في العمارة التي يسكنها أحد أقربائه. استقللنا مترو النزهة في طريقنا إلى سانت فاتيما. استقبلنا الرجل بترحاب ودعانا إلى شرب الشاي قبل أن يأخذنا إلى صاحب العمارة لاستلام الشقة وكتابة العقد، شقة مفروشة فرشا بسيطا للغاية في الدور الرابع. أنهينا الإجراءات ودفعت الإيجار والتأمين ثم استلمت الشقة.

ها قد أصبحت مسئولا عن تدبير شئون حياتي. ودعت زميلي ونزلت للتعرف على المنطقة وخدماتها. التقيت بالبواب وناقشته في مشكلة تنظيف الشقة فطمأنني إلى أنه سيرسل لي شغالة أمينة تتردد على بعض سكان العمارة للتنظيف، ويمكن أن أتفق معها

t.me/qurssan

على الغسيل أيضًا، لم أكن قد انتبهت إلى هذه التفاصيل من قبل. اتفقت معه على إبلاغها الحضور في اليوم التالي للاتفاق على موعد للتنظيف.

تجولت في المنطقة، حي هادئ جدًّا بالمقارنة بشبرا، شعرت بالهدوء الممتزج بقدر من الوحشة. تبضعت بعض لوازم البقالة والبيت وعدت. الشقة تتكون من ثلاث غرف لن أحتاج منهن إلا إلى غرفة واحدة للنوم. سرير ودولاب فقط في غرفة النوم والغرفتان الأخريان بكل منهما سرير غير مفروش. الصالة بها طاولة مستديرة للطعام متوسطة الحجم وكنبة حولها كرسيان متهالكان. لم أهتم بهذه التفاصيل، أكلت لقمة بدون شهية ودخلت لأستريح قبل موعد العرض.

لم أستطع النوم. إحساس بالوحشة جثم على صدري. المفروض أن أسعد بتوفيقي في شقة مستقلة بعيدا عن العائلة وقلق مواجهة أبي وتعليقاته السخيفة. لماذا الوحشة إذن. أهو أمان الجو الأسري؟.. إحساسك بأن هناك من سيسأل عنك إذا توعكت أو احتجت لخدمة؟.. تقلبت في الفراش محاولا النوم دون جدوي. نهضت وأعددت كوب شاي شربته في الفراش محاولا الهدوء ومعاودة النوم دون جدوى.

قرب موعد العرض غادرت الشقة في طريقي إلى المسرح. بعد العرض رحبت بدعوة ناجي لي لنقضي بعض الوقت معا. توجهنا إلى أحد بارات وسط البلد وجلسنا نتسامر بعد أن طلبنا زجاجتي بيرة. كنت في داخلي سعيدا بالدعوة.. كمن يحتاج إلى الونس..

كأني لاأريد أن أعود إلى البيت. سألني عن الشقة وتطرق الحديث إلى العمل ونجاح المسرحية، فهمت منه أنه قد عُرض عليه عمل دور صغير بالسينما، هنأته على الفرصة الجديدة وأفضيت إليه بهواجسي بعد انتهاء عرض المسرحية واحتياجي الآن إلى عمل دائم بعد استقلالي عن الأسرة وتأجير الشقة. حاول طمأنتي إلى استمرار عرض المسرحية لفترة لابأس بها نظرا لنجاحها الجماهيري.

استقللت سيارة تاكسي عائدا للبيت. الوقت تأخر وفاتني آخر موعد لمترو مصر الجديدة. مشوار العودة أصبح طويلا جدًّا بعد أن كان فركة كعب إلى جزيرة بدران بشبرا، أحيانا كنت أعود ماشيا في حالات الفلس، ابتسمت لخاطرة أن أكون مفلسا في أحد الأيام ولا أستطيع المشي إلى آخر مصر الجديدة. تفاصيل مستجدة للحياة تتراءى لي لأول مرة. نعست في الطريق وأيقظني السائق قرب البيت لأدله على الشارع.

كنت مجهدا فنمت كالفسيخة. استيقظت مع انتصاف النهار. كان يوم الإجازة الأسبوعية للمسرح. تكاسلت في السرير طويلا قبل أن أستجمع طاقتي للنهوض وبداية النهار.. وماذا سأفعل؟.. لاشيء.. سأمارس الملل وأعاني من الوحشة بمفردي في البيت. اغتسلت وشربت الشاي في أول يوم لي بحياتي الجديدة في أطراف حي مصر الجديدة على مشارف الصحراء. ونس شبرا حلو.. عزمت أمري على النزول للإفطار، ساندوتشات فول وطعمية على أي مقهى مع كوب شاي وقدر من الونسة. الوحدة صعبة، رغم أنني كنت متوحدا بغرفتي معظم الوقت بالبيت بشبرا، لكن الأمر

t.me/qurssan

مختلف.. هل هي نوستالجيا؟.. معقول؟.. نوستالجيا في اليوم الثاني لمغادرتك شبرا!..

توجهت ناحية العمار بميدان تريومف. اشتريت ساندوتشي فول وطعمية واخترت مقهى مأهولا بعد الميدان جلست فيه وطلبت شايا. لاحظت بعض الناس من حولي يلعبون الشطرنج بتركيز وحولهم يتحلق هواة اللعبة من أصدقائهم يتابعون باهتمام ويعلقون من آن لآخر على نقلات اللاعبين. ينتشر في المقهى بالطبع لاعبو الطاولة بصخبهم المعتاد وطرقعات الحجارة على سطح الطاولة مع صوت الزهر ومناجاة الرامين المضحكة له. انهمكت في أكل الساندوتشات وشعور بالطمأنينة قد حل عليَّ. جنة من غير ناس ماتنداس.. الله يرحمك ياتيته مريم.. كان عندها مثل لكل موقف.. ارتسمت بسمة على وجهي لذكراها وذكر أمثالها. أكثر أمثالها ترديدا كان.. يا دارى يا ساترة عاري يا منيماني للضحى العالي.. ياه.. تسللت دمعة من عينيّ رغم الابتسامة على شفتيّ.. لكِ وحشة ياست أم حنا.. أكثر ما أفتقده في بيت الجزيرة هي ذكرياتي مع تيته مريم.. شرب القهوة معا وتخميس السجاير.. ابتسامتها العذبة وسماحة نفسها.. جاء الشاي وأنهيت الساندوتشات باستمتاع. جلست أتنصت على تعليقات اللاعبين من حولي وأنا أتمنى أن أشاركهم فيها.

بدأ الـرواد في الانصراف مع اقتراب موعد الغداء، خف الازدحام في المقهى وخَفُتَ الضجيج. الساعة جاوزت الرابعة بعد الظهر ولا أدري ماذا سأفعل ببقية النهار. أشعر بنهاري في مصر الجديدة أطول من نهاري في شبرا. لا أريد العودة للبيت والبقاء

بمفردي، ماذا سأفعل؟. لايوجد تلفزيون بالبيت ولا راديو. أحتاج لشراء راديو ترانزستور يملأ عليَّ فراغي ويسلي وحدتي. ذكريات يومي الأول بمصر الجديدة لم تبرح ذاكرتي لوقت طويل.

كانت الأمسية أفضل حالا، صعد الأستاذ صبحي ليدعوني لكوب شاي عنده. الأستاذ صبحي قريب زميلي في الفرقة رجل بشوش يسكن تحتي بالدور الثالث، يعيش بمفرده بعد وفاة زوجته وليس لديه أولاد. يقترب من السبعين وبصحة جيدة عموما. يجيد الطهي كما عرفت بعد ذلك، كان قد خبز كيكة قدمها لي مع الشاي. جلسنا في الشرفة نتبادل الحديث ونحن نشرب الشاي بعد أن استمتعت بالكيكة اللذيذة التي خبزها بمهارة. كيكة بيتي ذكرتني بالبيت في شبرا. عرفت منه أنه كان موظفا بوزارة المالية قبل خروجه إلى المعاش. ماتت زوجته منذ عامين بعد إصابتها بأزمة قلبية بعد فترة مرض طويلة.. قال إن صحتها كانت على قدها الله يرحمها. سألني بفضول عن عملي بالمسرح وتطرق الحديث إلى عائلتي ودراستي. حكيت له باختصار وسط دهشته لتركي كلية الهندسة والعمل بالتمثيل. عنده جهاز تسجيل كبير الحجم أدار عليه شريطا لأغاني عبد الوهاب القديمة التي يعشقها كما قال لي بانسجام ونحن نستمع إلى أغنية النيل نجاشي والكرنك. ليلة لطيفة قضيتها مع الرجل. أعطاني رقم تلفون بيته للظروف وهو يقول بأريحية ومحبة، التلفون تحت أمرك في أي وقت تحتاج الاتصال بأحد أو لتُطمئن العائلة. شعرت به كأب حنون وأنا أستأذن في الانصراف شاكرا بعد السهرة الحميمة التي قضيتها معه. قال وهو يودعني.. ابقى تعالَ نتسلَّى معا.

t.me/qurssan

بعد مرور فترة على إقامتي بمصر الجديدة فكرت في زيارة البيت في شبرا. أردت أن أطمئن عليهم وأطَمئن ماما عليَّ. نظرة عتاب حزينة ارتسمت على وجه ماما طوال الزيارة، لم يكن بابا في البيت فحمدت الله، يكفيني الاطمئنان عليه دون المواجهة، أخبرتني ماما أن عريسا تقدم لخطبة نادية، كان قد رآها في الكنيسة أعجب بها، سأل عنها وعرف أهلها عن طريق الكنيسة ثم تقدم لخطبتها. مهندس بإحدى شركات القطاع العام وقد سألوا عنه كالمعتاد في مثل هذه الزيجات واطمأنوا له ولعائلته وسوف يحددون موعد الخطوبة قريبا. أعطيت ماما رقم تلفون الأستاذ صبحي لتستطيع الوصول إليَّ إذا دعت الأمور.

مرت الحياة اعتياديا، استمر عرض المسرحية لحسن الحظ وبدأ العام الجديد ليقبل الرئيس جمال عبد الناصر مبادرة روجرز قبل أن يرحل في ٢٨ سبتمبر من نفس العام. صدمة عظيمة للناس في مصر أخرجتهم من بيوتهم ثلاث ليالٍ حزنا على جمال عبد الناصر لتشدو بأسى عميق في ليل القاهرة.. الوداع ياجمال يا حبيب الملايين.. انفطر قلب المصريين منذ خرج إليهم أنور السادات ببيانه.. لقد فقدت الجمهورية العربية المتحدة وفقدت الأمة العربية وفقدت الإنسانية كلها رجلا من أغلى الرجال.. وأشجع الرجال وأخلص الرجال هو الرئيس جمال عبد الناصر.. ياه.. مرحلة عاصفة من تاريخ مصر الحديث تصل إلى خط النهاية. كان حزنا حقيقيا عميقا لكل الناس تقريبا، المؤيد والمعارض، كأنه رمز لمرحلة عزيزة في حياة من عاشوها، رمز للعزة والكرامة والتحدي والبناء، حرب

السويس ووحدة مصر وسوريا، بناء السد العالي، أغاني الثورة وأحلامها، كذلك رمز لغياب المبدأ السادس من مبادئ ثورة ٢٣ يوليو، رمز للديكتاتورية ومراكز القوى وزوار الفجر والتعذيب في المعتقلات، رمز للهزيمة والانكسار في حرب يونيو ١٩٦٧. رمز مُرَكّب مربك مشمول بفيضان من المشاعر المتضاربة، لكن التي يشوبها الحزن في النهاية. ثلاث ليالٍ حالكة السواد منذ وفاته في ٢٨ سبتمبر وحتى يوم جنازته في الأول من أكتوبر ١٩٧٠. تلك الجنازة التي احتشد لها الملايين بالشوارع التي ستخترقها من مبنى مجلس قيادة الثورة بالجزيرة حتى ضريح جمال عبد الناصر بشارع الخليفة المأمون وكادت تخرج عن السيطرة من فرط التدافع الجماهيري حولها.

حزنت حزنا شديدا لوفاة عبد الناصر رغم رؤيتي لسلبياته وعيوب فترة حكمه. الحقيقة كان الحزن عاما. جو كئيب خيم على البلاد في انتظار المستقبل الغامض حتى تم انتخاب أنور السادات رئيسا للجمهورية خلفا لعبد الناصر في الاستفتاء الذي أجري يوم ١٥ أكتوبر، بعد أقل من شهر من وفاة عبد الناصر.

تولى الرئيس أنور السادات الحكم وأعلن بأكثر من وسيلة أنه سيسير على طريق عبد الناصر، والتي تم تحويرها بالحس الفكاهي للشعب المصري إلى أنه سار فعلا على طريق عبد الناصر، لكن بأستيكة. بدأت الصراعات بينه وبين ما أطلق عليه مراكز القوى، وفي الصدارة علي صبري وشعراوي جمعة وسامي شرف، هذا الصراع الذي انتهى بما أطلق علية السادات ثورة التصحيح في ١٥ مايو ١٩٧١ والتي انتهت بمحاكمتهم وإبعادهم عن السلطة.

t.me/qurssan

انتهى عرض المسرحية وبدأ القلق. ليس لديّ دخل سوى دخلي من المسرح. ماذا سأفعل في إيجار الشقة ومصروفاتي عموما؟.. كنت قد كونت قدرا محدودا من المدخرات للطوارئ.. هل ستكفيني حتى أجد عملا آخر؟.. توقف عقلي عن العمل فليس لديه معطيات للتفكير. على باب الكريم.. ياه!.. هل هذا هو المآل؟.. ممثل ثانوي في المسرح بلا عمل ولا دخل منتظم.. كل ما تأمله الآن أن توفق في دور في مسرحية مهما كانت، جادة أو سطحية تجارية. الأمل أصبح سبوبة أكل عيش وخلاص.

تم عقد قران نادية في مطلع الصيف على المهندس مجدي واتفقوا على أن يقيم العروسان مع ماما وبابا في شقة جزيرة بدران، الشقة واسعة وهما سيحتاجان إلى رعاية بعد أن تقدم بهما السن. احتفلوا بالفرح فوق السطوح في الهواء الطلق بعد إجراءات الزواج في الكنيسة. كانت الأفراح في ذلك الوقت تقام في البيوت أو فوق الأسطح بعدة دست كراسي من دكان الفراشة وتجمع الأهل والأصدقاء. هذا ما كانت تسمح به إمكانيات الأسر المتوسطة والعرائس في ذلك الوقت، بعدها يدفع الأهل والأصدقاء النقطة للعروسين، مبلغ في حدود المقدرة ليساعد في تأسيس الشقة وشراء النواقص. تكافل اجتماعى بسيط يرده الناس لبعضهم البعض في مناسباتهم. النقوط والجمعيات كانا من الوسائل التي تعين على مواجهة الظروف الطارئة في حياة الأسر البسيطة، والجمعية هي اشتراك مجموعة في دفع مبلغ شهري بسيط يجمعه أحد أفراد المجموعة المسئول عن تنظيمها ويقبضه أحد أعضاء المجموعة

أو الجمعية بالاتفاق حسب احتياجات الجميع. فرد كل شهر من شهور الجمعية يستلم مبلغا مجمعا شارك فيه كل أفراد الجمعية يعينه على مواجهة ظرفه الطارئ.

بانتهاء عرض المسرحية بدأت فترة من الملل في حياتي، ملل مشوب بالقلق المادي خشية نفاد المدخرات المتواضعة معي والتي لن تكفيني إلا لأشهر معدودات. أنزل من البيت في منتصف النهار وأتسكع في الشوارع إذا كان الجو معتدلا أو أهرع إلى أحد المقاهي القريبة إذا كان الجو حارا. أجلس ملولا لبعض الوقت ثم أغادر المقهى بلا وجهة. اعتدت في تلك الفترة تدخين الشيشة. وسيلة لقتل الوقت. أحيانا أمر على ناجي في البيت ونخرج معا إلى وسط المدينة وأحيانا أقضي بقية اليوم في البيت. علم الأستاذ صبحي بانتهاء عرض المسرحية فأصبح يهتم في كثير من الأحيان بدعوتي للسهر معه وتناول العشاء. لم يكن لديَّ خيارات سوى قبول دعواته. الرجل مضياف ومحب، بالإضافة إلى أنه يعاني من الوحدة أيضًا. كان أحيانا يدعوني إلى كأس براندي ونحن جالسان في البلكونة نستمع إلى عبد الوهاب. يبدأ في الفضفضة عن حياته وذكرياته بعد الكأس الأولى. يشرع في الحكايات حول أمجاده في العمل وإنجازاته المتميزة التي جعلت رؤساءه يعتزون به ويعتمدون عليه اعتمادا كليا. تنتهي الليلة بذكرياته مع زوجته الراحلة ومرضها الأخير وعيناه تدمعان تأثرا. أطيّب خاطره وأحاول مواساته قبل أن أستأذن في الانصراف.

حسن مرعي زميلي في الفرقة شخص مرح ويبعث البهجة

t.me/qurssan

حوله بمجرد ظهوره. اهتمامه الأساسي بعد المسرح هو النساء والحشيش. منذ عرف باستئجاري شقة بمصر الجديدة وهو يلح عليَّ ليحضر مع معارفه من البنات لقضاء السهرة معا. تحفظت في البداية بسبب عدم معرفتي لظروف العمارة، البواب والسكان وصاحب العمارة، أن تزور بنت شابا أعزب يسكن بمفرده موضوع محفوف بالمحاذير في سكنى العائلات ويحتاج إلى تروٍّ. إلحاحه المستمر جعلني أفكر في الأمر بقدر من الجرأة، ساعد على ذلك بالطبع عدم وجود أي علاقة نسائية في حياتي منذ فاجعة شوشو وفقدي لها. اتفقنا على أن يمر عليَّ بالبيت مع اثنتين من معارفه. أبلغني أنهما مضمونتان وتعملان في أضيق الحدود، وترضيان بالقليل. اتفقنا على أن يحضروا في موعد مبكر نظرا لعدم استطاعة البنتين التأخر ليلا.

حضروا قبل المغرب بقليل حتى تستطيع البنتان العودة لبيتهما في حي المطرية قبل العاشرة مساء. فتاتان في حوالي العشرين من العمر، مهندمتان في تواضع ومظهرهما لايدعو إلى الشك. جلسنا للتعارف المبدئي، قالتا إنهما مهجرتان من السويس مع أسرتيهما بعد الحرب وإنهما تعيشان مع عائلتيهما في حي المطرية انتظارا لعودتهما إلى بلدهما بعد انتهاء الحرب. لم يستطع حسن الصبر طويلا على مزيد من الحوارات ودعا إحداهما إلى الدخول معه إلى إحدى الغرف وتركنا بمفردنا، أنا وزميلتها.

قالت لي إنها تبحث عن عمل، معها دبلوم تجارة ولم توفق في عمل منذ تهجيرهم من السويس. شعرت أنها على قدر من الخجل،

بعد حوار تعارف قصير دخلنا معا إلى حجرتي. شعرت أنها تدفع نفسها للأداء الذي يبدو مقنعا لمن معها، خلعت ملابسها بسرعة دون أن تنظر لي ودخلت إلى السرير لتغطي نفسها بالملاية المفروشة عليه. كنت مثارا جدًّا لطول مدة الحرمان وقضينا معا وقتا طيبا ابتدأ بقدر من التحفظ منها سرعان ما تلاشى لتترك نفسها طبيعية مندمجة بشكل تلقائي محبب. قالت إنها تريد سيجارة فقمت وأشعلت سيجارتين أعطيتها واحدة. اتكأنا في الفراش ندخن وأنا أستفسر منها عن بعض تفاصيل حياتها. مضى الوقت طيبا وشعرت بأنها قد ألفتني في آخر اللقاء بعد أن تغلبت على خجلها المبدئي. سألتني هل أريدها أن تجيء لزيارتي مرة أخرى فرحبت بها واتفقنا على موعد آخر بعد يومين. دسست خمسة جنيهات في حقيبتها فشكرتني وقامت لترتدي ملابسها استعدادا للرحيل. تأكدت أنها عرفت طريق البيت جيدا قبل أن نخرج لنجد صديقتها وحسن في انتظارنا للانصراف.

أعددت كوبا من الشاي ودخلت إلى البلكونة. شعرت بالرغبة في بعض الهدوء والتقاط الأنفاس في كنف المساء بعد تفريغ طاقة الجسد المؤرقة، مساء الحي الهادئ في أطراف مصر الجديدة، هدوء الحي عميق مقارنة بالحياة المتلألئة في شبرا. هدوء عميق ومريح أحيانا، إذا كنت محتاجا إلى الراحة، لكنه موحش في الأعم الأغلب إذا أرقتك الوحدة وكنت تهفو إلى الونسة. نسمة ناعمة تروح وتجيء تحت سماء مرصعة بالنجوم دغدغت مني الحواس حتى كدت أنعس.

حقا، المرأة فرحة الحياة. هي الحياة جميعا، الحب والحنان

t.me/qurssan

والعنفوان والرغبة. الرفاقية والونسة، سويعات قليلة مع امرأة ناعمة ودود تعدل ميزان الحياة المختل. تدفع الحيوية في الجسد الهامد. تفجر الحماسة في ملل الأيام. ياه.. ترى ماذا تفعلين الآن يا شوشو!.. هل تزوجتِ؟.. ذلك الرجل الذي فتح لي الباب.. لكم أشتاق إليكِ.

انتهى فصل الصيف وأنا عاطل عن العمل. كادت مدخراتي البسيطة أن تنفد. زاد توتري العصبي فماذا سأفعل؟.. هل سأترك الشقة؟.. وأين سأذهب؟.. ضاقت بي الدنيا ولم يكن يهوّن عليَّ الأمور سوى ليلى في زياراتها التي أصبحت منتظمة. توطدت علاقتنا الإنسانية وتبادلنا الحكايا عن ظروفنا وحياتنا. عندما علمت بظروفي المادية الضيقة رفضت أن تتقاضى أي نقود مهما حاولت معها. قالت إنها تعتبرني كصديق لها وهي أيضًا لاتجد مكانا تستريح إليه إلا عندما تجيء لزيارتي. تعودنا على بعضنا البعض وقضينا أوقاتا طيبة. كانت أحيانا تجيء مبكرة وتقضي معظم اليوم معي. تقوم بالطهي بعد أن تكتب لي قائمة بما تريد من خضروات ومستلزمات للطهي. كانت ماهرة في عمل بعض أصناف الطعام. أصبحت تقوم بكثير من الأعمال المنزلية العاجلة لي كغسيل بعض الملابس وترتيب الشقة. كنت أرقبها وهي تتحرك في البيت بنشاط وأتأسى. تصلح ست بيت طيبة ماهرة. ماذا تفعل الحياة بنا؟.. تترك بلدها لظروف الحرب وتتغرب. لاتجد عملا. تضطر إلى الاسترزاق من جسدها وهي تصلح لأن تكون ست الناس. أنثى طيبة مقبلة على الحياة والحياة تدير ظهرها لها. تعودت عليها وأصبحت أشعر

بالوحشة إذا تأخرت في بعض الأيام نتيجة لظروفها. أقبل العام على نهايته ولم أوفق في عمل بعد. تأخر عليَّ إيجار الشقة شهرين. خجل شديد شعرت به وأنا أعتذر لصاحب البيت.. ما العمل؟.. الحقيقة لاأدري.. ماذا فعلت بنفسي؟.. ها أنا توقفت عن الدراسة وتركت الكلية.. ثم.. لاعمل.. ممثل عاطل عن العمل.. ممثل أدوار ثانوية.. هل هذا هو المآل في نهاية المطاف؟

مر عليّ ناجي بعد بداية العام الجديد بأيام. مديحة أرسلت تطلبك. مديحة.. تطلبني أنا؟.. نعم أرسلت أحمد زميلنا لي ليبلغني.. تعرف أننا أصدقاء.. ألم يقل لك ماذا تريد؟.. يبدو أنها تريدك في عمل جديد. تريدني أنا؟.. مدهوشا رحت أتساءل.. مديحة كانت بطلة المسرحية التي عملت بها أنا وناجي. ولماذا تطلبني أنا؟.. لم أكن أقوم بدور مهم في المسرحية. هل توسمت فيَّ العبقرية مثلا؟.. ضحك ناجي وهو يعلق على حيرتي.. يجوز معجبة بك.. بي أنا؟.. لست دون جوان الذي لامثيل له!.. خلاص.. اذهب لترى.. ترك لي تلفونها لأتصل بها.

اتصلت بها في اليوم التالي، عرفت منها أنهم سيبدءون بروفات مسرحية جديدة وأنها اقترحت اسمي على المخرج لأداء دور رأت أنني أصلح له، فهمت أن الدور لمهندس يعمل بالسد العالي وأنها تعرف أنني مهندس فتصورت أن الدور يناسبني. أعطتني تلفون المخرج للاتصال به. تبادلنا المعلومات بالتلفون ولم تطلب لقائي. هل لمجرد أنها تعرف أنني مهندس رشحتني للدور؟.. ولِمَ لاتكون قد رأت فيَّ ممثلا جيدا يصلح للدور؟.. لقد عملنا معا لفترة طويلة

t.me/qurssan

وكانت علاقتنا طيبة.. لماذا تفقد الثقة بنفسك هكذا؟.. أنت في الأصل تركت كل شيء من أجل التمثيل.. تتصور أنني مهندس.. يالليفضيحة.. لم أذكر لأحد في الوسط أنني تركت الكلية وأنا لم أتجاوز السنة الثانية.. حاجة تكسف.. ولماذا أخفيت الخبر؟.. هل تخجل منه؟.. لم أفكر في الأمر هكذا من قبل.. لكنني أميل إلى إخفائه.. لاتنكر.. هل كنت تتمنى أن تكمل دراسة الهندسة وتحصل على الشهادة؟.. سؤال أسأله لنفسي لأول مرة.. هل تندم؟.. كما لو كنت أهرب من التفكير في الأمر!.. كان الأمل أن أنطلق في التمثيل وأحقق شيئا أفضل.. وهل ترى أنك كمهندس محترم أفضل من ممثل درجة ثانية؟.. لا أنا لست ممثلا درجة ثانية.. أنا بدأت طريقي منذ فترة قصيرة ومازلت في أول الطريق.. طريق النجاح ليس دائما مفروشا بالورود.. كم من الممثلين الناجحين قد خاضوا طريقا صعبا طويلا حتى وصلوا إلى النجومية.. دخلت إلى أحد المقاهي بعد المكالمة التلفونية وأنا أفكر في الاتصال بالمخرج.. الرجل لايعرفني.. لم يسبق لي لقاؤه.. هل أتصل به على الفور؟.. أحتاج لأن أتمالك نفسي.. طلبت شيشة وشاي وجلست أتمالك نفسي للاتصال بالمخرج.

اتصلت بالمخرج بعد أن استجمعت نفسي. طلب مني لقاءه في اليوم التالي بالمسرح مساء. عدت إلى البيت وأنا أحلم بالدور الجديد وأتمنى أن يكون دورا محوريا بالمسرحية.

ذهبت في أول أيام بروفة الترابيزة وقد حفظت الدور تقريبا. الدور لابأس به، ليس دور البطولة طبعا لكنه دور محوري من ضمن

أدوار المسرحية. تمنيت أن يُظهر الدور أدائي في الوسط المسرحي لعله يدفع بي دفعة إلى الأمام.

ها قد جاءت فرصة للاستقرار المادي لبعض الوقت، انتظرت بفارغ الصبر الحصول على أول دخل لي من العمل لكي أدفع الإيجار المتأخر وأزيح عن كاهلي هذا العبء النفسي المزعج. كان المنتج متعجلا على بداية العرض فكثفنا البروفات وانتقلنا إلى بروفات الحركة. تقرر أن تبدأ المسرحية مع بداية الربيع.

كانت ليلى تتردد عليّ بانتظام. يوما أو يومين في الأسبوع. الألفة زادت بيننا، بل في الحقيقة بدأت أشعر بنوع من العاطفة تجاهها. كنت قد استدنت مبلغا لأدفع جزءا من الإيجار المتأخر ولأواجه مصروفاتي التي تقلصت إلى أقل الحدود. بمجرد بداية العرض سددت ديوني بعد أن دفعت الإيجار المتأخر لصاحب البيت.

قرب نهاية الصيف حدثت عملية فدائية فلسطينية من أهم العمليات الفدائية ووضعت القضية الفلسطينة مرة أخرى تحت الأضواء بشدة. فقد قامت منظمة أيلول الأسود الفلسطينية بعملية اقتحام لمقر البعثة الرياضية الإسرائيلية في القرية الأوليمبية بميونخ واحتجزت أفرادا من البعثة الرياضية الإسرائيلة كرهائن. طالبت بالإفراج عن عدد من المعتقلين الفلسطينيين والعرب في السجون الإسرائيلية لكن العملية انتهت بقتل الرهائن وبعض الفدائيين المشاركين في العملية والقبض على بقية الفدائيين.

وبدأت أحداث الفتنة الطائفية المؤسفة في مصر قبل نهاية العام بأحداث الخانكة بمحافظة القليوبية التي انتهت بحرق مبنى تقام فيه الصلوات تابع للكنيسة وبعض منازل المسيحيين تكونت بعدها

t.me/qurssan

لجنة برلمانية برئاسة الدكتور جمال العطيفي وضعت تقريرا وافيا حول المشكلة.

كانت تلك الفترة حافلة بالقلق الوطني، منذ أعلن الرئيس السادات عن عام الحسم ليهدئ الضغوط الطلابية المطالبة بإزالة آثار العدوان وشن الحرب على إسرائيل لاستعادة الشرف الوطني واسترداد الأرض التي استولت عليها في حرب يونيو ١٩٦٧، ثم إعلانه عن أنه عجز عن الحسم مع إسرائيل بسبب الحرب الهندية الباكستانية وأن العالم لايستطيع احتمال حربين كبيرتين في آن واحد وأيضًا لانشغال الحليف السوفيتي بالنزاع الهندي الباكستاني للحد الذي لن يستطيع فيه تقديم الدعم لمصر وأن هذه الحالة الضبابية جعلته عاما للضباب بدلا من أن يكون عاما للحسم. نفد صبر الطلاب من حجة عام الضباب التي ادعاها الرئيس السادات وتوالت المظاهرات والمؤتمرات والاعتصامات الغاضبة كما تزايد إصدار البيانات ومجلات الحائط في الجامعات بصورة كثيفة.

انتظم عرض المسرحية ولاقت نجاحا تجاريا طيبا. بذلت أقصى ما في طاقتي من مجهود في القيام بالدور وتجويد الأداء. كنت أسعى وأتمنى أن أضع بصمة مميزة على الدور، لعلها تجذب انتباه المسرحيين لتفسح لي مجالا لأدوار أكثر تميزا تصل بي إلى أدوار البطولة. كنت أتمنى أن أرتاد مجال التمثيل في السينما أوالتلفزيون مثل ناجي الذي بدأ العمل في بعض الأدوار السينمائية. كان الانتظار هو السمة المميزة لتلك الفترة من حياتي. انتظار وتأرجح بين موجات من اليأس والأمل. كنت على ثقة من

قدراتي التمثيلية، وأعجب من عدم التفات أحد في الوسط إليها. لم تكن آمالي هي مجرد القيام ببعض الأدوار في العروض المسرحية أو السعي إلى تأمين دخل يضمن لي حياة كريمة. لم أغير مسار حياتي وأترك دراستي في كلية الهندسة من أجل أن أصبح ممثلا للأدوار المساعدة.. مصيبة لو آل الأمر إلى ذلك فقط وقضيت حياتي مجرد ممثلٍ لأدوار ثانوية في بعض العروض المسرحية.. يعمل أحيانا ويتعطل أحيانا.. ثم يفرح بدور صغير يضمن له دخلا بسيطا يغطي مصروفات حياته الضرورية.. لا.. لايمكن أن يكون هذا هو المصير.. لا أرى نفسي إلا في أدوار البطولة.. أحد نجوم المسرح والسينما.. أمتلك كل الأدوات لذلك.. قمت بالتمثيل منذ مراحل الدراسة الأولى.. وتفوقت فيه.. أنشأت فرقة مسرحية بالكلية.. جسدي رياضي ولا أفتقر إلى الوسامة.. يعني أصلح لأدوار البطولة في السينما.. ترى كم يطول الانتظار.. لا أريد أن يدب اليأس إلى نفسي.. لا تفقد الثقة.. ستجيء الفرصة لامحالة.. لا يوجد ما يمنع.. يجوز أن ظروف البلد السياسة الآن هي السبب في محدودية الإنتاج السينمائي والمسرحي.. لن يطول الوضع.. المجتمع يغلي وإن استطاع السادات أن يتحجج عاما أو عامين فلن يستطيع أن يقف في وجه الضغط الشعبي. لابد أن ينهي هذا الوضع القلق. كل دفعات خريجي الجامعات في الجيش يقضون فترة تجنيدهم المفتوحة بلا نهاية.. بعضهم أمضى ما يزيد على خمس سنوات الآن ولا يعرف متى تنتهي فترة تجنيده.. أجيال كاملة تأجلت حياتها بسبب نكسة يونيو ٦٧. لا عمل ولا زواج..

t.me/qurssan

لاشيء سوى الخدمة على الجبهة. وضع خانق أضاع حياة أجيال بالكامل.. لايمكن أن يستمر طويلا.

استمر عرض المسرحية إلى ماقبل اندلاع الحرب في ٦ أكتوبر بشهور قليلة، فترة أخرى أمضيتها عاطلا عن العمل حتى فوجئنا بالبيان الأول للحرب..

هنا القاهرة

جاءنا الآن البيان التالي من القيادة العامة للقوات المسلحة.

قام العدو في الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر اليوم بمهاجمة قواتنا بمنطقتي الزعفرانة والسخنة في خليج السويس بواسطة عدة تشكيلات من قواته الجوية عندما كانت بعض من زوارقه البحرية تقترب من الساحل الغربي من الخليج، وتقوم قواتنا حاليا بالتصدي للقوات المغيرة.

هنا القاهرة.

وتتابعت البيانات وقلوبنا ترتجف بعنف بمشاعر شتى.. البيان الثاني عن قصف قواتنا لبعض قواعد العدو وأهدافه العسكرية بالأرض المحتلة.. الأرض المحتلة؟.. أي داخل إسرائيل؟.. أم في الأراضي التي احتلتها في ٦٧.. ثم البيان الثالث الذي يعلن عودة جميع طائراتنا إلى قواعدها سالمة عدا طائرة واحدة.. معقول!.. هل الكلام صادق هذه المرة؟.. أم تتكرر أكاذيب حرب ٦٧ ومصائبها؟.

في الساعة الرابعة بعد الظهر أذيع البيان الخامس برفع علم مصر على الضفة الشرقية للقناة.. معقول.. يارب تكون البيانات

صحيحة.. كيف تم عبور القناة وهي أصعب مانع مائي كما يقولون؟.. تأكدت الأخبار في الساعة السابعة والنصف مساء بإذاعة البيان السابع من القوات المسلحة.. نجحت قواتنا المسلحة في عبور قناة السويس على طول المواجهة وتم الاستيلاء على الشاطئ الشرقي للقناة.. بدأت الأخبار تنتشر بأن الأخبار المذاعة صحيحة بالمقارنة بما يذاع من إذاعات العالم، بل قيل إن بعض الإذاعات تأخذ أخبارها مما يذاع بالإذاعة المصرية. هل تعلمنا من درس حرب ٦٧ وبدأنا نقول الحقيقة للشعب والعالم؟.. يبدو أن الأخبار صحيحة.. الجيش المصري عبر القناة ودمر خط بارليف.. هل نحن في حلم؟.. تمنيت أن يحل الظلام سريعا لتلتقط قواتنا الأنفاس وتتمركز جيدا على الضفة الشرقية للقناة.. يارب.. لو مرت هذه الليلة فستتمكن قواتنا من تدعيم نفسها قبل حلول الصباح. وصل الأمر إلى أن البيان التاسع أصدر إحصاء بخسائر العدو وخسائرنا، تم إسقاط ٢٧ طائرة مقاتلة للعدو وتدمير ٦٠ دبابة له، وكانت خسائرنا ١٥ طائرة مقاتلة وبعض الطائرات الهليكوبتر. تبدو البيانات واقعية هذه المرة.

تتابعت أخبار الجبهة في الأيام التالية وتأكد عبور قواتنا لقناة السويس وتمركزها على الضفة الشرقية بعد استيلائها على النقط الحصينة لخط بارليف. كان الأمل أن تتقدم في سيناء وتعبر الممرات لتكمل تحريرها، لكن اتضح أن خطة الحرب كانت عبور القناة والتمركز على الضفة الشرقية لها فقط. أصيب الناس بإحباط لتلك الخطة، وتصاعدت بعض الأصوات المتحفظة بوجوب

t.me/qurssan

التعقل وعدم تعريض جيشنا للخطر مثلما حدث في حرب ٦٧، فالمهم عبورنا القناة واستيلائنا عليها مرة أخرى.

وبدأت الأخبار تصل عن ثغرة الدفرسوار التي بدأت يوم ١٤ أكتوبر باختراق قوات العدو لمنطقة الدفرسوار بين الجيشين الثاني والثالث، وتدفق قواته بعدها لمحاصرة قوات الجيش الثالث حتى الوصول إلى حصار مدينة السويس ومشارف طريق القاهرة السويس. انخلعت قلوبنا وسمعنا عن الجسر الجوي الأمريكي لمساعدة إسرائيل بنقل الأسلحة والمعدات سريعا لنجدتها. خرجت التحليلات السياسية والصحفية بسبب الثغرة وعدم أهميتها وخطأ السادات السياسي في الاستجابة لضغوط تطوير الهجوم بدون الاستعداد الكافي، لتخفيف الضغط على سوريا. سيل من الأخبار والفتاوى أربك الجميع وجعل الناس تتوجس مما تحمله الأيام.

وبدأت سلسلة المفاوضات بمحادثات فض الاشتباك في الكيلو ١٠١ بطريق مصر السويس بين مصر وإسرائيل برئاسة الفريق عبد الغني الجمسي رئيس هيئة العمليات للقوات المسلحة المصرية للجانب المصري، تلك المحادثات التي ستتواصل بجولات كيسنجر ومحادثاته مع السادات لتنتهي بخطاب السادات الشهير في مجلس الشعب المصري في ٩ نوفمبر ١٩٧٧ باستعداده للذهاب إلى الكنيست بقلب إسرائيل وذهابه فعلا لزيارة إسرائيل في حدث هز العالم بأسره في ١٩ نوفمبر ١٩٧٧، وكانت النهاية الحاسمة بتوقيع اتفاقية كامب ديفيد للسلام في ١٧ سبتمبر ١٩٧٨.

كانت فترة مليئة بالقلق والتوتر نتيجة لسرعة توالي الأحداث والتطورات الدرامية، منذ قيام الحرب إلى حدوث الثغرة، فالمحادثات مع إسرائيل لفض الاشتباك. لم نكن نتصور بسهولة أن انتصار حرب أكتوبر وعبور القناة سينتهي إلى تلك الأوضاع المقلقة، من حصار مدينة السويس إلى سحب عدد ضخم من قواتنا من الضفة الشرقية خلال مفاوضات فض الاشتباك، اعتصر الحزن القلوب المحبطة لدرجة بكاء الفريق الجمسي وهو يتلقى الأوامر من الرئيس السادات بسحب تلك القوات.

انقطعت ليلى فجأة عن المجيء. لم تكن من عادتها أن يمر أسبوع دون أن تمر عليَّ. مرت الأيام دون أن تظهر وبدأ قلقي يتنامى.. خير.. ماذا حدث؟.. ما الذي يدعوها إلى الانقطاع فجأة؟.. بعد مرور شهر تقريبا من اختفائها فكرت في ضرورة فعل شيء للاطمئنان عليها.. لكن ماذا يمكن أن أفعل وأنا لا أعرف لها عنوانا ولا معارف.. تذكرت حسن زميلي في الفرقة الذي كان واسطة التعارف.. هل يعرف عنها شيئا؟.. ليس أمامي غيره.. أكاد أجن.. ماذا حدث لها؟.. اشتياق مشوب بالقلق أرهقني أياما وليالي.. شعرت بمدى ارتباطي بها.. اكتشفت بغيابها أنها كانت شيئا أساسيا في حياتي. وجودها.. روحها.. طلتها عندما تدخل مبتسمة باشة.. لمساتها في البيت.. لم تكن تختلف عن الرفيقة.. الحبيبة.. أو حتى الزوجة.. سوى في عدم إقامتها الدائمة معي.. لكنها كانت موجودة.. روحها كانت معي دائما.. في وجودها وفي غيابها.. زادت توتراتي باطراد لغيابها وساءت حالتي المعنوية..

t.me/qurssan

أصبت بالأرق وعز نومي.. كنت أستدعي صورتها إلى جواري في الفراش.. أرتجف لافتقادها.. أحن إلى التلامس مع جسدها الدافئ.. اندماجنا في التواصل الجسدي.. لا.. ليس مجرد تواصل جسدي.. لقد كان.. لقد كان حبا.. نعم.. اتضح لي الآن بغيابها أنني كنت أحبها.. أحب ملامحها.. روحها.. اندماجها.. لحظات شبقها.. روعة ارتوائها.. ثم تعلقها بي بعد الارتواء.. لاتريدني أن أبعد عنها.. لكم أشتاق إليكِ ياليلى.. لم أكن أعرف مدى أهميتك لي.. كيف سهوت عنك طيلة هذه المدة؟.. لايشعر المرء بقيمة ما في يده حتى يفقده.. لا.. لا أتصور أن أفقدك.. أتقلب في فراشي منقبض القلب.. كأن رحى تجثم على قلبي.. يكاد تنفسي يتوقف.. لايمكن أن تمر الأمور هكذا.. لابد من فعل شيء.. أي شيء.. يجب أن أجدها.

بحثت عن عنوان حسن وذهبت إليه.. تعجب من سؤالي عليها.. نسي من كانت من الأساس.. بالنسبة إليه الفتاتان كانتا متعة عابرة ومرت.. مُسحتا من ذاكرته بمجرد انتهاء المتعة اللحظية.. سخر مني يومها.. انسَ يا جدع.. منظرك أحببتها.. أطلق ضحكة رقيعة وددت لو أدبته عليها وقتها.. تركته وانصرفت حزينا يائسا.

طالت مدة الركود وعدم العمل وتراكم إيجار الشقة مرة أخرى. لم أدرِ ماذا أفعل؟.. ذات صباح فوجئت بصاحب العمارة قادما في زيارة مفاجئة لي. دعوته للدخول وأنا أشعر بالتوجس. هممت بتركه لتحضير كوب شاي له فشكرني وقال إنه في عجلة من أمره. قال إنه قدم لموضوع مستعجل، فقد تقدم خطيب لابنته وإنهم في حاجة

للشقة لتجهيزها للزواج. ألجمني الخبر الذي نزل عليَّ كالصاعقة. لم أدرِ بمَ أجيب.. خاصة وأنني متأخر في الإيجار وأشعر بمنتهى الخجل لموقفي. تلجلجت لبرهة فأعفاني من الرد الفوري قائلا، طبعا من المفهوم أنك تحتاج مهلة لترتيب نفسك، لذلك فسنترك لك شهرا تسوّي فيه أمورك. لم أنطق بكلمة. هززت رأسي كالأبله، ثم تذكرت أنني لم أبارك له، تداركت الأمر بسرعة وأنا لا أجد الكلمات. قلت له بخجل، إنني سأوحاول أن أدبر الإيجار المتأخر أيضًا قبل رحيلي. نهض الرجل مستأذنا في الرحيل بعد أن صدمني بتلك الصدمة المفاجئة. السبب منطقي، ابنته ستتزوج ويريد الشقة. حتى لو كان السبب عدم انتظامي في دفع الإيجار فالحق معه. ماذا سأفعل الآن؟.. أظلمت الدنيا في وجهي. ليس أمامي سوى شهر المهلة.

استغرقني الأمر أياما لأتماسك، بدأت بعدها في توصية طوب الأرض على مكان يؤويني، لم يكن لي متطلبات خاصة. مجرد مكان نظيف. المشكلة الأخرى كانت مادية. كيف سأدفع للرجل الإيجار المتأخر قبل ترك الشقة؟.. بدأت مساعٍ عديدة للحصول على سلفة من المعارف والأصدقاء. لم يكن الأمر متيسرا. استطاع زميل لي إيجاد غرفة فوق سطح أحد البيوت في الظاهر. ذهبت لمعاينة الغرفة. بيت قديم بارتفاع أربعة أدوار وتوجد ثلاث غرف على سطحه، غرفتان للبواب وأسرته وغرفة شاغرة تركها ساكنها للتو لسفره. غرفة صغيرة لا تتسع للكثير. الغرفة غير مفروشة وعليَّ أن أدبر العفش، إذا جازت التسمية.

t.me/qurssan

اتفقت على استئجار الغرفة وعدت إلى البيت في مصر الجديدة مهموما. رأيت الأستاذ صبحي عائدا وأنا أقترب من باب العمارة. توقف ينتظرني ببشاشته المعهودة، قال لي متعجبا.. خير.. مالك شايل طاجن ستك؟.. قلت له مهموما.. صاحب البيت طلب مني إخلاء الشقة لزواج ابنته.. علق قائلا.. فعلا لقد قال لي إن ابنته مرفت تقدم لها خطيب. دعاني للغداء معه.. تعالَ نتغدى سويا.. طبخت اليوم بامية باللحم الضاني ستأكل يديك وراءها.. تعالَ ولا تنعي الهم.. عندي زجاجة نبيذ عمر الخيام سنشربها معا. الحقيقة شعرت إن الرجل يبذل مجهودا زائدا ليسرّي عني. استسلمت للدعوة، لم يكن عندي بديل، دخلت معه وجلسنا نتبادل الحديث.. سألني.. وماذا ستفعل؟.. أبلغته إنني نجحت في استئجار غرفة بحى الظاهر.. تساءل.. غرفة مع أحد؟.. أوضحت له أنها غرفة فوق سطح أحد البيوت.. بدت الدهشة على وجه الرجل.. معقول.. غرفة فوق السطح!.. هززت رأسي قائلا.. المتاح يا أستاذ صبحي.. قام إلى غرفته وعاد بزجاجة النبيذ، فتحها وصب لي كوبا.. اشرب حتى أسخن الغداء.. انسحب إلى المطبخ لتسخين الأكل وعاد لنواصل الحديث. سألني.. هل الغرفة مفروشة؟.. وعندما عرف بأنها غير مفروشة عرض أن يعطيني سريرا لديه لايحتاجه وبعض احتياجاتي الأخرى. شكرته وقمت معه لمساعدته في تحضير الغداء.. قال لي بأسى ونحن على طاولة الغداء.. سأفتقدك كثيرا.. لقد كنت أستأنس بوجودك.. ستوحشني سهراتنا معا في البلكونة وسماع عبد الوهاب. قلت له إنني سأجيء لزيارته. عندما علم

بمشكلة الإيجار المتأخر عليَّ تطوع مشكورا بضماني عند صاحب العمارة لحين تيسر أموري وأستطيع السداد.

أخبار سيئة عن مرض الست أم كلثوم بدأت تنشرها الصحف. انزعج الناس انزعاجا شديدا للخبر، لم يكن واضحا للناس طبيعة مرضها بدقة. ترددت الأخبار حول مرض الغدة الدرقية الذي تسبب في جحوظ عينيها في الفترة الأخيرة واضطرارها لاستعمال نظارة سوداء دائما. نشرت الصحف أخبار دخولها مستشفى القوات المسلحة في المعادي في حالة حرجة. تناقل الناس أخبارا عن التهاب شديد في الكلى وعن اختلال في صفائح الدم. فجأة أذيع نبأ وفاتها الذي كان صدمة عنيفة للجميع. الست أم كلثوم المغنية الفذة التي كانت جزءا لايتجزأ من الحياة الفنية والاجتماعية بمصر والعالم العربي. كان المستمعون يأتون من الدول العربية ليلة الخميس الأول من الشهر في موسم غنائها ليحضروا حفلها. هي التي انتفضت بعد هزيمة ٦٧ ولفت العالم كله للغناء وجمع التبرعات للمجهود الحربي. تنازلت أيضًا عن مجوهراتها القيمة وعرضتها للبيع في مزاد علني لنفس الغرض. باختصار كانت عصرا كاملا وتراثا فنيا وحضاريا لافتا في تاريخ مصر. كانت جنازتها يوما مشهودا في حياة المصريين. خرج الجميع لتشييعها واعتبرتها الصحافة العالمية واحدة من أكبر الجنازات.

حزني الشخصي كان عميقا. أغاني أم كلثوم جزء من صبايا وشبابي، من ذائقتي الفنية وتاريخي العائلي والشخصي. جلسنا

t.me/qurssan

الأستاذ صبحي وأنا في الشرفة نتبادل الذكريات حولها في أسى وهو يحكي لي ما لم أحضره من تاريخها.

وتركت مصر الجديدة آسفا، حزينا على الست، ومتوجسا من أن تأتي ليلى لتسأل عني فلا تجدني. أوصيت البواب وأنا أعطيه عنواني الجديد أن يعطيه لها إذا جاءت. تركت عنواني أيضًا للأستاذ صبحي. تأسفت شديد الأسف لصاحب البيت وأنا أعده بسرعة سداد الإيجار المتأخر. كان الرجل كريما فيسّر الأمر عليّ. ودعت الأستاذ صبحي وداعا حارا وشكرته على ضمانتي عند صاحب البيت. تحركت بسيارة نصف نقل أجرتها لنقل السرير الذي أعطانيه الأستاذ صبحي مع طاولة صغيرة وكرسيين. هذا هو كل متاعي الذي دخلت به إلى شقتي الجديدة، أقصد غرفتي، بحي الظاهر.

كان يومي الأول موحشا، فكيف سأعيش محبوسا في غرفة واحدة؟.. طبعا أمامي سطح البيت لكن الحركة فيه مشتركة مع جيراني، أسرة البواب، عم صالح، رجل مسن قارب السبعين من العمر وعليل الصحة. يعيش هو وزوجته الخالة فاطمة مع ابنهما مصطفى الذي يعمل ميكانيكيًّا للسيارات. استوعبت الغرفة السرير والطاولة والكرسيين بالكاد. كان في الخارج دورة المياه المشتركة. دورة مياه بلدية لقضاء الحاجة والمفروض أنني سأستحم بها. وجدت أنني سأحتاج إلى بوتاجاز مسطح صغير لطهو الطعام وتسخين الماء.

حل الغروب وأظلم المساء. فتحت باب الغرفة لتهويتها بنسمات الغروب المنعشة وعندما شعرت بالاختناق أخذت كرسيا

وخرجت إلى السطح. وضعته قريبا من باب الغرفة متحرجا من الانطلاق في السطح براحتي. ظهر القمر بعد قليل، أو ربما كان موجودا ولم ألحظه. كان القمر بين الهلال والبدر، منتصف الشهر تقريبا. أشعلت سيجارة وسرحت في وضعي الجديد.. ثقل كالرحى حطّ على صدري.. أهذا هو المآل؟.. الممثل المسرحي نبيل سامي عبد السيد لايجد عملا.. لايقدر على توفير سكن متواضع.. يعيش في غرفة فوق سطح عمارة بحي الظاهر.. والذي كان سيصبح باشمهندسا قد الدنيا.. طيب.. كيف ستسير الأمـور؟.. كيف ستستمر؟.. ليلتها شعرت بالاختناق.. تسللت الدموع من عينيّ.. لم أستطع التحكم فيها.. تحولت إلى مايقترب من النشيج.. خشيت من افتضاح أمري فدخلت مسرعا إلى الغرفة وأغلقت الباب.

أيام عصيبة مرت عليّ.لاعمل. لادخل. استدنت من طوب الأرض. زملاء وأصدقاء. الأستاذ صبحي. كان هو الواحة التي ألجأ إليها كلما جارت الأيام. أذهب لزيارته. أقضي معه الأمسية. آكل لقمة شهية عنده. أكل بيتي ببساطة. نستمع معا إلى عبد الوهاب. يدعوني إلى كأس براندي أو نبيذ. يسألني قبل الرحيل. هل تحتاج إلى أي شيء. قل لي فأنت مثل ابني. يقرضني ما فيه القسمة. وتتراكم ديوني.

الحياة في غرفة صغيرة حياة مقبضة خانقة لم أعتد عليها. قل طعامي وأصبح معظمه جافا، حتة جبنة. طعمية. فول. قطعة حلاوة طحينية. طبق عسل وطحينة. تكرمني الخالة فاطمة من آن لآخر بطبق طعام ساخن. أسمع نقراتها على الباب.أفتح لأجدها تمد يدها بطبق

t.me/qurssan

ساخن. خُد يا وَلَدي. عملنا ويكة النهاردا وافتكرتك. أو ملوخية. أي خضار ساخن. بعد الظهر تجيء إليّ بكوب شاي ذكي الرائحة. ماهذه الرائحة الطيبة ياخالة فاطمة؟.. دي حلفا البر يا وَلَدي.. بتجينا من كوم أمبو. عم صالح والخالة فاطمة من كوم أمبو. المشاعر الدافئة أصبح مصدرها الخالة فاطمة والأستاذ صبحي.

بعد طول انتظار جاءني دور صغير في مسرحية. أي مصدر دخل أسدد به قدرا من ديوني. لم أعد أفكر في المجد الفني. ترف لايحتمله المرء في الشدائد. أي أكل عيش. أو بلغة الكار أي سبوبة أو نحتاية. أيام تمر عليّ وجيبي ليس به إلا قروش قليلة.

بدأت في البروفات فانتظمت أيامي بعد أن كانت بلا قوام. المسرح روحي. خشبة المسرح عالمي. رائحة ترابها. قفشات الزملاء أثناء البروفات. ملاحظات المخرجين أصحاب الفطنة والرؤية. عامل البوفيه وأكواب الشاي. سهراتنا بعد البروفات أو بعد ليالي العرض. مرورنا على زملائنا بالمسارح الأخرى وزياراتهم. انتظارهم حتى تنتهي عروضهم ثم الذهاب إلى الحسين لشاي في الفيشاوي أو أكلة حمام محشي.

لم أستطع أن أنسى ليلى. كلما مرت الأيام كلما زاد اشتياقي ولهفتي عليها. كنت أحيانا أذهب لزيارة الأستاذ صبحي لسؤال البواب عنها. أصبح الرجل يرد على تساؤلاتي بابتسامة ساخرة. مرت سنوات الآن منذ آخر لقاء ولم أستطع نسيانها. ترى هل عادت إلى السويس بعد انتهاء الحرب وعودة الأمور إلى طبيعتها؟.. احتمال كبير.. لم لا؟.. لقد كانوا في وضع شاذ بعيدا عن بيوتهم وبلدهم.

لكنها اختفت قبل استقرار الأوضاع.. أتكون قد تزوجت؟.. هكذا فجأة؟.. أكاد أختنق.

بدأ العرض المسرحي بعد أن أنهينا البروفات. مع انتظام العرض والدخل بدأت أضع خطة لسداد جزء من ديوني بحيث أوزع السداد على أكبر عدد من الدائنين وأبدي حسن نيتي خاصة لصاحب بيت مصر الجديدة والأستاذ صبحي الذي ضمنني عنده. قال لي الأستاذ صبحي إنه ليس متعجلا على فلوسه وأن أضع أولوية للغرباء، وبدأت فعلا بصاحب البيت، واظبت على سداد دفعات شهرية إليه.

أعلن السادات في ذلك الوقت عن سياسة الانفتاح الاقتصادى. كان ذلك تتويجا عمليا لاتجاهاته السياسية في الابتعاد عن الاشتراكية التي تبناها عبد الناصر والاتجاه إلى النظام الاقتصادي الليبرالي، في تزامن مع ابتعاده عن الاتحاد السوفيتي واقترابه من الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن أعلن أن كل أوراق اللعبة في أيديها في الصراع العربي الإسرائيلي. سمحت سياسات الانفتاح الاقتصادي بدخول رءوس الأموال العالمية والعربية بدون ضوابط مما دفع الأستاذ أحمد بهاء الدين إلى كتابة مقاله «الانفتاح ليس سداح مداح». تبعت ذلك طبعا موجات من الغلاء المتتابعة الفاحشة ونمت طبقة أصحاب رءوس الأموال نموا سريعا مع اتجاه الاقتصاد إلى نشاطات الاستيراد والتصدير والتوكيلات التجارية والاستثمار قصير الأجل عموما وبالتبعية الابتعاد عن الاستثمار الصناعي أو طويل الأجل في العموم، كما أحجمت البنوك عن

t.me/qurssan

تمويل الاستثمارات طويلة الأجل وتفضيل قصيرة الأجل عليها، خاصة فروع البنوك الأجنبية التي سمح لها بالعمل في مصر.

وهاهي أيامنا ولياليا ترحل أمام أعيننا وينسدل الستار عن أحلى ذكرياتنا، يرحل عبد الحليم حافظ في لندن وهو يتلقى العلاج من مرضه الذي لازمه طوال حياته الفنية منذ عرفناه في بداية الخمسينيات. لقد حزنا طبعا على رحيل الست أم كلثوم، لكن عبد الحليم حافظ جزء أساسي في حياة جيلنا وتاريخه منذ وعينا.. صافيني مرة وجافيني مرة.. ولا تنسانيش كده بالمرة.. توبة ان كنت أحبك تاني توبة.. على قد الشوق اللي في عيوني يا جميل سلم.. أبو عيون جريئة.. أهواك واتمنى لو أنساك.. حبك نار.. وحياة قلبي وأفراحه مع ظهور نتائج امتحاناتنا.. على حزب وداد قلبي.. موعود معايا بالعذاب ياقلبي.. قارئة الفنجان.. ومرحلة المد القومي.. قلنا حانبنى وآدي احنا بنينا السد العالي.. يا أهلا بالمعارك.. بالأحضان يا مصانع.. يا مزارع.. تماثيل رخام ع الترعة وأوبرا في كل قرية عربية.. وكلنا كده عاوزين صورة.. ياه.. كأن الستار يُسدَل على أيامنا وأعمارنا.. قصص حبنا وعذاباتنا وأفراحنا.. بكينا بكاء مرا على أنفسنا هذه المرة.. وعلى ذكرياتنا.

نزلت من البيت بعد منتصف الليل إثر موجة بكاء حار، توجهت إلى موقف تاكسيات البيجو المتجهة إلى السويس. استقللت أحد التاكسيات بالنفر وجلست بين الركاب أفكر في الطريقة التي سأبحث بها عنها. لا أعرف غير اسم، لست متأكدا من صحته، لا أملك إلا يقينا بأني أريدها.. أحتاج إليها فعلا.. أريد أن أرتمي على صدرها وأبكي.. كل شيء.. نعم سأبكي كل شيء..

تعثراتي.. تعثراتنا.. تعثراتها هي.. بل ضياعي وضياعها.. انهيار الحلم.. سأبكي الهزيمة.. سأبكي موته.. موتهم جميعا.. سأبكي وحدتي القاتلة.. أريدها.. ترى كيف أجدك يا ليلى.. كيف فقدتك هكذا بدون إنذار؟.. يجب أن أجدك.. سأبذل أقصى جهد.. لقد كانت بين يديّ.. لماذا لم تنتبه؟.. هل اعتبرتها فتاة ليل؟.. هل حاكمتها وأصدرت حكمك؟.. هل ينقصها شيء عن أي فتاة في مثل عمرها؟.. من المسئول عن تشردها هي وأهلها من بلدهم وضياعهم شاردين هائمين لايعرفون لهم مكانا آمنا.. هل اعتبرتها ضمنيا مدانة لأنها اضطرت إلى الانجراف لما تعافه كل إنسانة ولا تلجأ إليه إلا مضطرة.. أنت ظالم.. لم تعاملها كندٍّ لك.. تمرغت في حنانها وإنسانيتها ورفضت آدميتها وحقها في الحياة البسيطة الطبيعية.

وصلت إلى السويس مع بزوغ فجر يوم جديد. نزلت من التاكسي ووقفت لبرهة أتأمل حولي. أين سأذهب؟.. إلى أين أتجه؟.. لمحت مقهى مقابلا فتوجهت إليه. طلبت كوب شاي وجلست أفكر فيما فعلته. فورة من العاطفة والاحتياج دفعت بي إلى السويس بحثا عنها. المهمة غير معقولة. لكنني هنا وسأحاول. انتظرت حتى دبت الحركة في الطرقات وبدأ الناس في التوجه إلى مقاصدهم وغادرت المقهى سائرا بعفوية.

قطعت الطرقات طولا وعرضا. أحياء هادئة وأحياء شعبية. جلست على المقاهي أتأمل السائرين في الطرقات وأنا ألتقط أنفاسي من الإرهاق. واصلت النهار بطوله حتى حل الغروب وتملك مني اليأس. أبحث عن إبرة في كوم خيط. حلّ عليَّ التعب

t.me/qurssan

وشعرت بأنني أصلب طولي بالعافية وقدماي تحملاني بالكاد. توجهت إلى موقف تاكسيات القاهرة وارتميت بداخل التاكسي أنتظر أن يكتمل العدد لتبدأ رحلة العودة.

ودارت الأيام، على رأي الست، رحمها الله.

صدرت القرارات الاقتصادية فجأة برفع الدعم عن السلع الأساسية وبالتالي زيادة أسعار عدد كبير من السلع، بينها السلع الأساسية للناس، الخبز والشاي والسكر والزيت والبنزين. انقلبت الدنيا ردا على تلك القرارات التي نزلت كالصاعقة على الناس المرهقة اقتصاديا في الأساس والتي كانت تنتظر الرخاء المنشود الذي وعدها به السادات من جراء سياسة الانفتاح الاقتصادي والاتجاه للاقتصاد الحر. وبدأت الانتفاضة الشعبية التي أطلق عليها السادات انتفاضة الحرامية يوم ١٨ يناير. تحركت التجمعات العمالية الكبرى في منطقة حلوان وفي كثير من المناطق إلى جانب عمال الترسانة البحرية بالإسكندرية. خرج العمال إلى الشوارع يعلنون رفضهم للقرارات الاقتصادية. انضم طلبة الجامعات وموظفو الحكومة إلى العمال في مظاهراتهم العارمة وارتفعت شعارات الألم.. ياساكنين القصور الفقرا عايشين في قبور.. ياحاكمنا في عابدين فين الحق وفين الدين.. سيد مرعي ياسيد بيه كيلو اللحمه بقى بجنيه.. عبد الناصر ياما قال خاللوا بالكوا م العمال.. هو بيلبس آخر موضة واحنا كل عشرة ف أوضة.. ثم قالوها مدوية صريحة.. لا إله إلا الله السادات عدو الله.

حدثت أحداث عنف وسط المظاهرات وتم حرق بعض أقسام

الشرطة والمباني العامة إلى جانب بعض استراحات الرئاسة، أعلن على الفور إلغاء القرارات الاقتصادية ونزل الجيش إلى الشوارع لحفظ النظام مع إعلان لحظر التجول من السادسة مساء إلى السادسة صباحا. قام الأمن في خلال الأحداث بالقبض على عدد كبير من الطلبة والعمال والنشطاء السياسيين وحولوا للقضاء الذي برأ ساحتهم.

أتبع السادات أزمة ١٨ و١٩ يناير بصدمة عنيفة أخرى أصابتنا جميعا، زيارته للقدس. لم نكن نصدقه عندما أعلن ذلك في مجلس الشعب في حضور ياسر عرفات وصفقوا له جميعا. كنا نتصورها مزحة أو طرفة من طرف السادات، لكنها تحققت بمنتهى الثبات منه. لم نصدق الأمر حتى بعد أن وصل إلى إسرائيل وخطب في الكنيست. حالة من الذهول انتابتنا جميعا مع تشتت في المشاعر مابين الإيجابي والسلبي. الحنق عليه والإعجاب بشجاعته وقلبه الميت كما يقول أولاد البلد. حقد السنين الذي تراكم في قلوبنا منذ حرب ٤٨ ومجازر دير ياسين واللد والرملة وحيفا والقدس. حروب ٤٨ و٥٦ و٦٧ و٧٣. النذالة الإسرائيلية في قتل أسرى الحروب وتعذيب الأهالي. كيف نشعر تجاه تلك الزيارة والكلام عن السلام والأرض مقابل السلام؟.. كانت مشاعرنا شديدة الارتباك مابين رافض أساسا ومؤيد بشكل أقل.

مرت الأيام ما بين العمل في أدوار ثانوية والتعطل. لم أتمكن أبدا من التخلص من الديون. ما إن أنجح في سداد الديون القديمة إلا وأجد نفسي قد تورطت في ديون مستجدة. حالة دائمة من

t.me/qurssan

الضيق واليأس خيمت على حياتي التي أصبحت أياما كئيبة تتوالى بلا معنى.

فوجئت في ظهر أحد الأيام ببواب مصر الجديدة يطرق بابي.. البقية في حياتك. والدك تعيش انت.. حالة من الذهول المشوب بالبلاهة انتابتني.. ماذا تقول؟.. البركة فيك.. شد حيلك.. الجماعة اتصلو بالأستاذ صبحي وأبلغوه الخبر. طلبوا منه أن يبلغك. الجنازة اليوم. قدم الرجل واجب العزاء واستأذن في الانصراف. جلست تائها فاقدا للطاقة لبعض الوقت. لم أعرف ماذا أفعل؟.. مات؟.. يجب أن أذهب على الفور.. خوف شديد ألم بي.. كيف سأذهب؟.. أقصد كيف سأقوى على رؤيته؟.. رؤية ماما؟.. يجب أن أتحرك.. يقول الجنازة اليوم.. الجنازة؟.. هل سيدفنوه؟.. استجمعت قواي ونظرت في الساعة.. يا خبر الساعة الواحدة ظهرا.. ستفوتني الجنازة.. قفزت لأستبدل ملابسي سريعا وانطلقت كالمخدر في طريقي إلى جزيرة بدران.

كانوا قد غادروا البيت.. قالوا لي الحق بهم في الكنيسة.. كنيسة العذراء بشارع عياد بك. انطلقت إلى الكنيسة لألحق الصلاة في أواخرها. انتهت الصلاة فجريت إلى ماما واحتضنتها لائذا بحضنها من كل شيء.. نظرت إليّ بعتاب وقالت بحزم.. الحق خد عزاء أبيك..جريت مذهولا إلى باب الكنيسة حيث يقف بعض الأقارب ليأخذوا العزاء من المعزين، أفسحوا لي مكانا في المقدمة ووقفت مادا يدي في ذهول للمعزين يهزونها بحميّة وملامح حزينة ويهمهمون بكلمات لا أتبينها.. لحظات مرت عليَّ كالمخدر..

وضعوا الجثمان في السيارة التي ستنقله للمقابر.. أي مقابر؟.. ليس لنا مقابر.. أو أنا لا أعرف.. قالوا مقابر مصر القديمة.. مقابر بعض الأقارب سيدفنونه فيها.. نظرت إلى الصندوق.. هل هو بداخله؟.. لم أستطع أن أصدق.. ركبت في أتوبيس تم تأجيرة للمعزين وأنا في ذهول من تتابع الأحداث.. وصلنا.. تحركنا.. سارت الأحداث بشكل روتيني آلي.. أنزلوا النعش إلى المقبرة.. أصوات صراخ أسمعها.. اصطففنا مرة أخرى بشكل آلي.. تقبُّل العزاء مرة أخرى.. ثم العودة في الأتوبيس.. جلست إلى جوار شخص لا أعرفه.. قال لي شد حيلك.. شكرا.. وصلنا إلى البيت.. بمجرد دخولي من الباب انفجرت في بكاء مؤلم بلا قدرة على التوقف.

شاركت في طقوس العزاء وترددت على البيت يوميا، حضرت معهم صلاة اليوم الثالث وحرصت على التواجد طيلة الأسبوع الأول للوفاة. وجودي بالبيت كان يشعرني بالأمان، الاطمئنان، كان الملاذ الآمن من فجيعة فقدان الأب. كنت أعود في ساعة متأخرة من الليل إلى وحدتي بالغرفة، أشعر بالاختناق فأندفع خارجا إلى السطح. أسحب كرسيّا وأجلس في صمت الليل المهيب.. مات.. يعني ذهب إلى الأبد.. لن نراه ولن يرانا مرة أخرى. أتذكر ذكريات الطفولة البعيدة.. ذكريات خروجي معه.. يسحبني في يده ونسير إلى محطة الترام.. نركب.. نعود في آخر المساء.. يوم أخذني معه إلى المسرح.. تلك الدعوة التي جاءته فأخذني معه.. مسرحية قنديل أم هاشم.. مازلت أتذكر تلك الليلة بكثير من الوضوح.. ثم تعلقي بالمسرح.. تصوري أنه عالمي بعد ذلك.. انشغالي به حتى تركت

t.me/qurssan

دراسة الهندسة.. ثم.. لاشيء.. ممثل أدوار ثانية أو حتى ثالثة.. أعيش في غرفة فوق السطح.. يسعى إلى قوت يومه بالكاد.. مكبل بالديون.. كنت تحلم بالمجد.. البطولة.. المسرح العظيم الذي قرأته وأحببته.. ثم.. أدوار هزيلة في مسرحيات سطحية تجارية.. شخصية مهزومة في وطن مهزوم.. هزيمة منكرة بعد أحلام عظيمة وردية.. القومية العربية.. الوحدة العربية.. من المحيط الأطلسي إلى الخليج الفارسي.. لبيك عبد الناصر تماثيل رخام ع الترعة وأوبرا.. في كل قرية عربية.. يا للحسرة.. مدد مدد شدي حيلك يا بلد.. إن كان في أرضك مات شهيد.. فيه ألف غيرة بيتولد.. مات الحلم.. مات عبد الناصر.. مات الأب.. حقا لم نكن على وفاق كثيرا بعدما كبرت.. لكن للأب معنى.. قد لاندركه في زحمة الأيام.. لكنه معنى.. جذر صلب متأصل.. شيء غير محسوس.. لكني أشعر به بعد رحيله المفاجئ.. صدمة.. نزلت فجأة.. كالهزيمة.. تماما.. ضياع لكل شيء.. تنتظر الوصول إلى تل أبيب فتكتشف أن إسرائيل على الضفة الشرقية للقناة.. بل عبرت إلى الضفة الغربية خلال الثغرة وحاصرت السويس.. السويس العزيزة.. بلد ليلى التي فقدتها هي الأخرى.. يابيوت السويس يا بيوت مدينتي.. استشهد تحتك وتعيشي أنتِ.. وتنهمر الدموع فتغشى الأبصار.. أرى الموجودات حولي غائمة.. دوار وتصدعات من خلال الدموع.. كل شيء يتهاوى.. ياه.. ثقيل هو الحزن.. حزن الليالي الجرداء.. حزن الفقد والهوان.. وبلدنا ع الترعة بتغسل شعرها.. جانا نهار مقدرش يدفع مهرها.. يا هل ترى الليل الحزين.. يقدر

ينسيها الصباح.. يا لحسرة جيلنا.. جيل ضاع بالكامل.. وهاهو لا يجد ما يعينه على قوت يومه.. ينتفض فيهينه السادات.. انتفاضة الحرامية.. من الحرامية يا سيادة الرئيس؟.. الناس الغلابة أم مليونيرات السلطة والأهل والمحاسيب؟.. مليونيرات المقاولات والسمسرة والأغذية الفاسدة؟.. يا لحسرة جيلنا.. حلم فصعد إلى السماوات العُلا مبتهجا يملؤه الفخر بالمستقبل والأمل.. ثم هوى إلى السفح بدون سابق إنذار..هوى إلى الحضيض.

أيام طويلة مرت عليّ بدون عمل، تراكمت ديوني مرة أخرى وأصبح الأمر مألوفا أن أكون مديونا للأصدقاء والزملاء. أصبحت أيامي ولياليّ بلا لون، طويلة وخانقة. أصحو من نومي في منتصف النهار. أمارس الملل. أستجمع طاقتي كي أغادر الغرفة لشراء طعامي المتواضع، وضعت بعض المعلبات في الغرفة للطوارئ. علب سردين وسالمون وبولوبيف أسد بها رمقي إذا تكاسلت عن النزول. انحصر طعامي في ساندوتشات الفول والطعمية وأحيانا ساندوتشات الجبن الرومي والبسطرمة أو المرتدلة من عم قلدس البقال. أمر عليه لشراء الساندوتشات وأحيانا لشرب ثُمْن براندي سايب. كان يبيع الخمر السايبة الرخيصة. أقضي الليالي الطوال جالسا أمام غرفتي على السطح لاأجد ما أفعله. بدأت أفقد الأمل تدريجيا في أن أتحقق كممثل للأدوار الأولى في المسرح، الأمال في أن أوفق في بعض الأدوار بالسينما أو التلفزيون. تضاءلت آمالي إلى الحد المتواضع الذي يتمنى دورا، أي دور، لكي يكسب قوت يومه ويسد بعضا من ديونه المتراكمة.

t.me/qurssan

مر ناجي عليّ في إحدى الأمسيات ليبلغني أنه توسط لدى بعض معارفه لتعييني في مسرح الدولة. تلقيت الخبر بفتور. موظف بمسرح الدولة، هل تلك هي غاية الممثل المسرحي المأمول؟!.. أنتظر الراتب آخر الشهر والترقية كل بضعة أعوام. وهل تملك الاختيار؟.. على الأقل ستضمن راتبا شهريا يعينك على تكاليف الحياة. طمأنني إلى أن هذا لن يعوق عملي في المسرح الخاص إذا جاءنى دور. زيادة الخير خيران. ابتسمت وشكرته على خدماته لي. اتفقنا على موعد في اليوم التالي لنقابل الشخص الذي توسط لي لاتخاذ الخطوات القانونية لإتمام إجراءات التعيين.

طلبت مني بعض الأوراق اللازمة لإتمام إجراءات التعيين. انشغلت لبعض الوقت في تحضيرها وقمت بتقديمها للمختصين وتوقيع أوراق تعييني في مسرح الدولة مع توقيع الرئيس السادات لمعاهدة كامب ديفيد مع إسرائيل. دارت الرءوس مع توقيع المعاهدة، فهي واقع جديد مغاير تماما لما عشناه منذ حرب سنة ١٩٤٨، سلام مع إسرائيل؟.. تساءل معظم الناس وراحوا في حيرة عميقة. لا يكره أحد السلام طبعا، لكن مع إسرائيل؟.. هل ستحترم معاهدة السلام؟.. هل ستعطي الفلسطينيين حقهم؟.. هل ستقبل بقرارات مجلس الأمن والأمم المتحدة؟.. هل ستوقع على معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية؟.. هل ستقبل بحل الدولتين؟.. هل ستسمح بالقدس الشرقية عاصمة لفلسطين؟.. هل ستحترم بعد سنوات اتفاق أوسلو؟.. هل ستتوقف عن بناء المستوطنات في الضفة الغربية وابتلاعها؟.. ستحمل لنا الأيام

والسنوات القادمة إجابات لهذه الأسئلة. ولننتظر الإجابات حتى لا نتسرع ونظلم المعاهدة الوليدة والدولة الإسرائيلية فالعاقل لا يتحفظ على سلام.

وظيفة الفنان في الدولة لا تتطلب انتظاما أو دواما في العمل. ليس من الضروري أن أذهب إلى أي مكان كل يوم أو أن أوقع في دفاتر حضور وانصراف. كانت أيامي ملكا لي، بلا فائدة، فماذا أنا فاعل بها؟.. الركود النفسي الذي وصلت إليه لا يسمح بفعل الكثير. كنت أقضي الساعات جالسا أمام غرفتي فوق سطح البيت أتشمس وأتأمل. يطير الحمام من حولي فأستئنس به. يحط الحمام على أرضية السطح. ينقر بعض الفضلات المتناثرة. أنهض بهدوء حتى لا أزعجه. أحضر رغيفا من الداخل. أقطع لقيمات صغيرة ألقيها له. يتجمع بنشاط ويتحلق حولها فرحا بالوليمة التي جادت بها الدنيا عليه. أصبح يعرفني من كثرة ما يراني. لا يخشاني. أنتظر قدومه. أفرح به وألوذ بصحبته.

عمل متباعد لأدوار نمطية كل بضعة أشهر. ثم فراغ. ينتهي عقد السبعينيات وتبدأ الثمانينيات بتغيرات على مستوى العالم. نجاح الثورة الإيرانية وعودة الخميني ثم اندلاع الحرب العراقية الإيرانية ومآسيها. نجاح ريجان في الولايات المتحدة الأمريكية، مارجريت تاتشر في بريطانيا وفرنسوا ميتران في فرنسا. وفي مصر يفقد السادات اتزانه ويعتقل أكثر من ألف وخمسمائة شخصية من سياسيي ورموز البلد في مختلف المجالات في ٥ سبتمبر ويسحب اعتراف الدولة بالبابا شنودة الثالث بطريرك الكرازة المرقسية وبابا

t.me/qurssan

الإسكندرية مع تحديد إقامته بالدير بوادي النطرون ويعين مجلسا لإدارة شئون الطائفة خلفا للبابا شنودة.

جو كئيب خيم على البلاد عقب قرارات السادات المفاجئة. دهشة مشوبة بالتوجس. لم أكن منشغلا بعمل في تلك الأيام. أقضي وقتي الفارغ متكاسلا طوال اليوم. بعد الاستيقاظ الخامل والاغتسال أنزل لشراء جريدة الأهرام، أمر قبلها على الخالة فاطمة لسؤالها عن احتياجاتها من الخضري، نتبادل الخدمات فهي أصبحت كأم لي، تؤدي لي الكثير من المساعدات التي أحتاجها، تخيط لي زرارا مقطوعا أو تسخن لي ماء الاستحمام في الشتاء، عندها صفيحة تملأها لي وتضعها على البابور البريموس، مازالت تستخدم واحدا تحتفظ به من الزمن الراحل. نشأت علاقة طيبة بيني وبين رمضان الخضري. شاب صعيدي من قرى سوهاج. طلب مني أن أعلمه القراءة والكتابة. أمر عليه بانتظام وأجلس على كرسيّ خشبي متهالك وفره لي خصيصا. أنتظره يفرغ من الزبون لنواصل درسنا، أصبح يكتب اسمه بخط واضح ويقوم بالعمليات الحسابية التي يحتاجها في تجارته. أشتري طلبات الخالة فاطمة التي طلبتها مني ولوازمي البسيطة من الخضار، لا تخرج عن الطماطم والخيار في الصيف أو الخس في الشتاء، أحرص على أكل الخضراوات الطازجة مع أكلي الجاف المنحصر في المعلبات وساندوتشات الفول والطعمية أو الجبنة والحلاوة والبيض، أحيانا تكون وجبتي هي الذرة المشوية أو البطاطا في مواسمهما، اشتريت بوتاجازا مسطحا وأنبوبة للطهي

السريع وعمل الشاي والقهوة. أضاف رمضان بعض الفاكهة إلى تجارة الخضار فسهل الأمر عليّ، البرتقال والموز في الشتاء والعنب والتين والبلح في الصيف. أصبح رمضان أحد مصادر تسليفي في الأزمات، ولو أن هذا الموضوع كان يسبب لي إزعاجا شديدا لإحساسي بأني أستاذه، وكنت أسعى بأسرع مايمكنني لسداد ديوني له.

وكانت مفاجأة يوم العرض العسكري، ينقطع الإرسال التلفزيوني لنعرف بعدها بقتل السادات في ساحة العرض. القائد الأعلى للقوات المسلحة يتم قتله بين قواته ورجال دولته من بعض ضباطه وجنوده المنتمين لتيار الإسلام السياسي، ذلك التيار الذي شجعه السادات ليواجه به تيارات اليسار بين شباب الجامعات الذي كان يمثل الشوكة المؤرقة له. أطلق المارد من القمقم ولم يتمكن من ترويضه، أعلن أنه رئيس مسلم لدولة مسلمة وأكد على ذلك، وعندما شعر بالمصيبة أخذ يولول أنه لادين في السياسة ولا سياسة في الدين، لكن بعد إيه؟... بعد خراب مالطة. هاهو المارد الذي أطلقه من القمقم ينقض عليه ويغتاله في ذكرى انتصاره وبين قوات جيشه التي تستعرض أمامه. بكل دهائه لم ينتبه إلى أن استخدام الأديان في الأغراض السياسية خطر تاريخي داهم، نسي الحروب الدينية التي أدمت أوروبا وقتلت الملايين، نسي محاكم التفتيش وصكوك الغفران، لم يتورع عن اللعب بورقة الدين متصورا أنه سيحقق أغراضه السياسية، متصورا أنه نسخة عصرية من معاوية أو ميكيافيللي، لكن الفرق شتان.

t.me/qurssan

وكانت جنازة الرئيس السادات جنازة متواضعة جدًّا من حيث المشاركة الجماهيرية بالمقارنة بجنازة الرئيس جمال عبد الناصر التي حضرها ملايين المصريين واعتبرت أكبر جنازة في التاريخ لرئيس دولة. هل هذا هو موقف الشعب المصري من بطل حرب أكتوبر ١٩٧٣ الذي حطم أسطورة التفوق العسكري الإسرائيلي وعبر القناة بدهاء ونجاح منقطع النظير؟.. سؤال غير منطقي.. هل زيارته لإسرائيل وتوقيعه معاهدة السلام معها في كامب دافيد؟.. أسئلة سيقف أمامها التاريخ. أيضًا ما نتج من غلاء فاحش عقب سياسة الانفتاح الاقتصادى، هل كان سببا آخر لإحجام الشعب المصري عن المشاركة في جنازته؟.. أسئلة مفتوحة للتأمل. كيف يخرج الشعب بالملايين في جنازة عبد الناصر المهزوم في حرب ١٩٦٧ ويحجم عن الخروج لتشييع المنتصر في حرب ١٩٧٣؟.. هذا هو السؤال المحوري المحيّر.

تولى الرئيس حسني مبارك الرئاسة في ١٤ أكتوبر عقب استفتاء شعبي وقام بعدها بالإفراج عن معتقلي سبتمبر واستقبالهم في القصر الجمهوري معطيا بذلك الانطباع ببدء صفحة سياسية جديدة مع القوى السياسية المصرية، واستبشر الناس خيرا، أو تمنوا.

وأنا أقوم بحلاقة ذقني لاحظت تسلل بعض الشعيرات البيضاء إلى رأسي. نظرت بتدقيق إليها، راقبتها في الأسابيع التالية بوجل، تخيلت أنها تنمو وتتزايد، ياه.. هل بدأ المشيب في الهجوم؟.. أصبحت عادة كالوسواس، أن أدقق في فحص ملامح وجهي في المرآة المتواضعة التي أستعملها في حلاقة ذقني. مرآة صغيرة

مغبشة بعض الشيء لا تشفي غليلي في التدقيق والاستيضاح. هل ضعف نظري هو الآخر؟ لاحظت أيضًا بعدها بوقت قصير ظهور تجاعيد حول العينين. هاهو الشباب يستعد للرحيل. يفاجئني. لا.. ليس بهذه السرعة.. إني مازلت أنتظر الفرصة. حقا لقد تأخرت كثيرا. لكن النجاح ليس يسيرا. طريق النجاح وعر وطويل. لكن أن تزحف علامات الشيخوخة هكذا فجأة.. ثقل كالرحى أصبح يجثم على الصدر. متابعة هستيرية لمراقبة تفاصيل الوجه والملامح. هنا بدأت تنتشر شعيرات بيضاء.. هنا ملمح لتجاعيد جديدة. لابد أن أشتري مرآة جديدة أكثر وضوحا. سألت زميلا في الفرقة على تجاعيد الوجه فنصحني باستخدام نوع كريم لترطيب البشرة وتغذيتها، كتبت الاسم في ورقة باهتمام لأسأل عنه.

في منتصف الثمانينيات رحلت أمي. تدهورت صحتها في آخر أيامها. زادت أزماتها القلبية، أصبحت تشكو يوميا من آلام صدرها. لم تؤثر الأدوية بفعالية على تخفيف آلامها. أصابني الغم والقلق عليها وكنت أذهب لزيارتها كثيرا. أصبحت لا تغادر الفراش إلا نادرا، للذهاب إلى دورة المياه أو لكي تعينها نادية على الاستحمام. أسلمت الروح وهي نائمة، أو ربما استغاثت ولم يشعر بها أحد. هذا ما كنت أفكر فيه كثيرا بعد رحيلها. وماذا كان يمكن فعله؟.. لا أدري، ربما حزني على فقدها هو الذي استدعى هذا الهاجس إلى ذهني. موتها ألجمني. لم أبكِها لفترة طويلة. ربما قاربت العام. أصابني وجوم وجهامة. كانت سلوتي

هي الجلوس في الليل بالسطح أما باب غرفتي والسهر صامتا حتى قرب مطلع الفجر. أسرح بفكري. ربما أراقب النجوم وأصنفها. أعرف أين تقبع النجوم الكبيرة وأين تتناثر النجوم الأطفال. أنتظر ظهور الهلال وأعايش مراحل نموه على مدى الأيام. اكتماله ونقصانه. تحققه واندحاره. أتأمل معنى الاكتمال وأنتظره. ثم أجزع لسرعة التدهور حتى التلاشي. ها أنا ذا أشعر بالخفوت والغروب بعد أن كنت أتحرق شوقا إلى التمام. اقتربت من الأربعين وعبرتها في غمضة عين. بدأت أعاني من زيادة الوزن. زادت تجاعيد الوجه، خاصة حول العينين. مررت على الموسكي واشتريت مرآة جديدة. مرآة صغيرة مستديرة لها حامل خفيف. أضعها أمامي على الطاولة وأجلس طويلا. أراقب وجهي وانكساراته. أتحسسه بأناملي. أدهن التجاعيد بالدهانات والكريمات المتعددة التي يصفها لي كل من أسأله. أدلكها لتتشرب الدهان جيدا لعلها تتلاشى.

قررت الفرقة تقديم مسرحية الخال فانيا لتشيكوف. انتشيت. هذا هو المسرح الذي أحب. شعرت بالغم لاختياري لشخصية ألكسندر فلاديميروفتش سيريبرياكوف الأستاذ المتقاعد، دور صغير بالنسبة لبقية أدوار أبطال المسرحية. كنت أتمنى أن أقوم بدور الخال فانيا، ذلك الدور الذي أحببته كثيرا، أو دور الطبيب ميخائيل لفوفيتش أستروف. يبدو أنني يجب أن أعترف. لا يتم اختياري للأدوار الرئيسية، أدوار البطولة، ومتى اختِرت؟.. ودور الأستاذ المتقاعد العجوز مريض النقرس هو الذي يناسب

سني وبدايات ترهلي الجسدي. لا لا.. يجب أن تحافظ على نفسك أفضل من ذلك.. يجب أن تنقص وزنك حتى يمكن أن تقوم بأدوار أفضل. لقد أهملت نفسك كثيرا.. وما الذي يدفع إلى الاهتمام بها؟.. حياة جافة فارغة لا جدوى منها وفشل يتلو فشلا.

الفراغ والملل جعلا تسليتي تكون بالأكل في أحيان كثيرة، خاصة بعد أن فقدت الحماسة للقراءة. الأكل والنوم إذا لم أكن جالسا أمارس الملل والخمول أمام باب غرفتي معظم الأمسيات أو عندما يسمح الجو في النهارات الطويلة. صادقت الطيور التي تحط من آن لآخر على السطح أمامي. صادقت القطط التي تتجول من حولي على السطح. واحدة منها اختصتني ببعض الاهتمام تقترب مني بحذر وتقف على البعد مني تراقبني، كأنها تريد شيئا، كنت أنهض وأدخل إلى الغرفة لأحضر لها شيئا لتأكله في محاولة لخطب ودها. كانت انتقائية في أكلها. تميل إلى اللحوم والأسماك. ماذا أفعل والأكل عندي كله معلب؟.. أقوم لأفتح لها علبة سردين أو علبة بولوبيف، أضع لها بعضا منها وأتسلى بأكل البقية الباقية. أصبحت أستمتع بمشاركتنا لبعضنا البعض في تناول الطعام. بدأت تأنس لي وآنس لها. أحيانا أنتظر قدومها إذا تخلفت لسبب من الأسباب. فكرت أن أختار لها اسما تمييزا لها عن بقية القطط. ملت إلى أن أسميها ليلى.. لعله الحنين.. أسترجع معها ونسة ليلى معي. أبثها اشتياقي إليها. أحدثها في لحظات الأسى والحنين. حديثي إليها كان يُسَرّي عن نفسي. زادت مكانتها عندي. قطة رمادية ممتلئة

t.me/qurssan

قليلا. نظراتها ثاقبة، أو هكذا تخيلتها. أحكي لها عن همومي. إحباطاتى المسرحية. أشواقي لسَميّتها. أناجيها أو أناجي نفسي لا فرق، ألقي عليها الأدوار المسرحية التي تاقت نفسي للعبها. كنا وحدنا، هي وأنا بعد أن تدخل الخالة فاطمة لأداء شئونها أو تنزل للاطمئنان على عم صالح القابع أمام البيت لأداء مهمته في رعاية البوابة.

سارت بروفات مسرحية الخال فانيا في مسار البروفات المعتاد. كنت أذهب وأعود محملا بإحباطاتي في عدم الفوز بالأدوار التي تاقت نفسي إليها، أتخيلني أصول وأجول فيها متألقا كما أحب أن أكون.. استمع إلى تصفيق الجمهور يدوي في أذنيّ.. أنحني تحية للجمهور.. أدخل إلى الكواليس وأعود للجمهور المشتعل في الصالة.. حفظت دور فانيا ورددته لنفسي. أعود لأحاول مع النوم الذي جافاني وأصبح عسير المنال. أصحو مرهقا من قلة النوم. أقضي الوقت جالسا أمام الغرفة سارحا في أفكاري.. مرددا أدوارى القريبة إلى نفسي.. الحلاج.. الفتى مهران.. فانيا.. متحدثا إلى ليلى عندما تجيء لزيارتي.. أحضر لها طعامها المفضل.. أضعه لها بالقرب مني الآن بعد أن أطمأنت إليّ.. تُرى أين أنت يا ليلى الآن؟.. في السويس أم في مكان آخر.. أنت أيضًا ضحية هذا الجيل.. كلنا ضحايا.. أنتظر ظهور النجوم التي أعرفها وأكاد أعطيها أسماء هي الأخرى.. يتردد في مسامعي صوت سونيا في نهاية المسرحية.. سنسمع ترانيم الملائكة وسنرى السماء مرصعة بالماس.. سنرى كيف تغرق كل شرور الدنيا.. كل آلامنا في بحر

الرحمة الذي سيغمر العالم كله.. وستصبح حياتنا هادئة.. رقيقة.. عذبة كالحنان.. أنا أؤمن.. أؤمن.. يا خالي فانيا المسكين.. أنت لم تعرف الفرح في حياتك..

تمت

نعيم صبري
القاهرة ١٣ فبراير ٢٠١٨
http://www.naimsabry.com
naimsabry@gmail.com

t.me/qurssan

صافيني مرة

صافيني مَرَّة.. أشهر أولى أغنيَّات عبد الحليم حافظ.. ورواية صافيني مَرَّة تحكى عن جيل بدأ وعيه مع هذه الأغنيَّة.. ومع صعود عبد الحليم حافظ.. جيل بدأ يتفتح على الحياة مع ثورة يوليو.. ويغنّى لها مع عبد الحليم.. عاش أزهى عصورها وانتصاراتها.. جلاء الإنجليز.. تأميم قناة السويس وحرب ١٩٥٦.. وحدة مصر وسوريا.. بناء السد العالي والتصنيع الثقيل.. ثم.. ثم بدأ يعاني مع انكساراتها.. حتى كانت الضربة القاصمة بهزيمة يونيو ١٩٦٧ وضياع كل الآمال التي عاش عليها.. جيل دمَّرته الصدمة وما تلاها من أحداث.. عاش بعدها حالة من الضياع.. وبرغم حرب ١٩٧٣ فإن ما تلاها من تطورات التفسخ السياسي والاجتماعي أجهز عليه. رواية تحكي عن جيل الثورة والهزيمة.

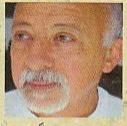

نعيم صبري؛ روائي وشاعر مصري. تخرج في كلية الهندسة بجامعة القاهرة عام ١٩٦٨. عمل في المجال الهندسي قبل أن يتفرغ للأدب منذ عام ١٩٩٥. بدأ مسيرته الأدبية بكتابة الشعر وأصدر ديوانيْ شعر عام ١٩٨٨؛ «يوميات طابع بريد عام» و«تأملات في الأحوال». اتَّجه بعد ذلك إلى المسرح وكتب مسرحية «بئر التوتة»؛ وهي مسرحية شعرية موسيقية. كتب بعد ذلك مسرحيته الشعرية «الزعيم» ثمَّ عاد فأصدر ديوان شعر «حديث الكائنات». بدأ كتاباته النثرية بكتاب عن سيرة طفولته بعنوان «يوميات طفل قديم»، ثم واصل كتاباته النثرية فأصدر ١٢ رواية حتى الآن؛ منها «أمواج الخريف»، «شبرا»، «المهرج»، «وتظل تحلم إيزيس»، و«دوامات الحنين».

EL Shorouk الشروق
9789770935118 L.E55.00
صافيني مرة

دار الشروق
www.shorouk.com